



حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجد وديوال

تأليف: أمادو همباطي با
ترجمة: أ. محمد بنعبود
مراجعة: أ. عبود كاسوحة

أبريل 2013



حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجد وديوال

تأليف: أمادو همباطي با

ترجمة وتقديم: أ. محمد بنعبود

مراجعة: أ. عبود كاسوحة

الكويت ودول الخليج 500 فلس
الدول العربية الأخرى ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي دولاران أمريكيان

نمر كل شهرة من
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الاشتراكات

المشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:

د. سليمان خالد الرياح

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي عجيل العنزي

د. ليلى عثمان فضل

أ. وليد جاسم الرجيب

د. بدرية أحمد الحجي

دولة الكويت

للأفراد 10 د.ك

للمؤسسات 20 د.ك

دول الخليج

للأفراد 12 د.ك

للمؤسسات 24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد 25 دولارا أمريكيا

للمؤسسات 50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد 50 دولارا أمريكيا

للمؤسسات 100 دولار أمريكي

مديرة التحرير

لياء القبندي

التتضيد والإخراج والتتفيذ:

وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

:E.Mail

ebdaat_alamia@yahoo.com

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل

على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٤٩

ردمك: ٠٠-٣٨٨-٩٩٩٠٦

<http://abyabdoalbagi.blogspot.ae/>
• حكايات حكهاء أفريقيا

وأسطورة نجد وديوال

العنوان الأصلي:

Contes des Sages d'Afrique by: Amadou Hampâté BÂ

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م

إبداعات عالمية - العدد 394

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسمها أحمد مشاري العدوان

(1923 - 1990)

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

الفهرس

7	مقدمة المترجم
17	سيرة أمادو همباطي با
	حكايات حكماء أفريقيا
19	١ - خيارات الناسك الثلاثة
23	٢ - الشيطان ومارتاكومبا
31	٣ - الأزواج... لماذا هم على هذه الحال ؟
39	٤ - المبرر المقيت للضبع - الأب
41	٥ - الكذبة التي أصبحت حقيقة
43	٦ - الشيطان والمعرض - الكارثة
49	٧ - دجينا نبارا، الجنّي المقعد
59	٨ - حفنة رمل
61	٩ - الملك والرجل الأحمق
63	١٠ - درس الخضوع
	أسطورة نجدو ديوال
69	مقدمة أمادو همباطي با لحكاية نجدو ديوال
79	الأصل الأسطوري لحكاية نجدو ديوال
83	نجدو ديوال، أمّ الكارثة
295	ملحق الهوامش

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

مقدمة المترجم

عندما ولجئت، منذ أكثر من أربع سنوات، مكتبة «خدمة الكتاب» بشارع علال بن عبد الله بالرباط، كنت أريد فقط أن أقتني كتاباً أصرف به بعض الوقت من ليلة كنت مرغماً على تمضيّتها بالعاصمة المغربية، لأمر أفضيه. تصفحت الرفوف تباعاً، باحثاً عن عنوان أو اسم كاتب يستهويني، لأنني لم أكن أقصد أن أشتري عنواناً بعينه؛ كنت أريد فقط أن يكون الكتاب سردياً؛ روائياً أو قصصياً. رأيت على رف أرضي مجموعة كتب شبه مهملة، انحنيت للنظر في أغلفتها فقرأت، بالفرنسية، على غلاف أحدها، اسم «أما دو همباطي با» والعنوان، بالفرنسية أيضاً «لا وجود لخصومات صغيرة». نظرت في غلافه وفي اسم صاحبه وفي بعض أسطره الداخلية، فاستنتجت أنه يدخل في «إطار» ما أبحث عنه: «حكايات أفريقية»؛ واسم أفريقيا، كما أعتقد، يبقى من أكثر الأسماء تلفعاً بأسراره وأساطيره... فأدبت الثمن وخرجت مستعجلاً معرفة العوالم التي ينسج الكتاب منها وفيها حكاياته. شعرت، أثناء القراءة، بأن الكتاب يستحق أن أتقاسمه مع قراء العربية، فقررت أن أترجمه؛ وبعد أن فكرت في الجهة التي أقترح عليها نشره، قررت أن أرسله إلى سلسلة «إبداعات عالمية»، على اعتبار أن داري النشر اللتين كنت أتعامل معهما، حتى تلك اللحظة، لهما اهتمامات أخرى، من جهة، وأصحابها هم الذين يقترحون عليّ ما أترجمه، من جهة أخرى.

ترجمت الكتاب، بعد أن قرأته، بهمة واسترسال لا يتيسران إلا عندما يكون المترجم يحب ما يترجم... راجعت الترجمة واستنسخت الأصل الفرنسي وأودعت الغلاف البريدي المترع بريد مدينة العرائش، ذا الطراز الإسباني الشاهد على مرحلة كانت فيها هذه المدينة تحت حكم استعماري بقيت منه بنايات جميلة قليلة وكثير من أصداء حكايات فيها من الواقع بقدر ما فيها من خيال... مروقت ووصلتني، على بريدي الإلكتروني، رسالة قصيرة من سلسلة «إبداعات عالمية» يخبرونني فيها أن العمل قصير ويحتاج إلى «دعم» بحكايات أخرى للكاتب نفسه أو لكتاب أفارقة آخرين... لكن كيف الحصول على كتاب آخر للكاتب نفسه، بل ولكتاب أفارقة يهتمون بجنس الحكاية؟ زرت مكتبات وسألت عن أمادو همباتي با، فلم ألق أي صدى لسؤالي، سوى لي الشفاه، دلالة جهل تام بصاحب الاسم. استنجدت، كما يحصل للكثيرين، في أيامنا، بالشبكة العنكبوتية، فعثرت على عناوين كثيرة لكتب حكايات أفريقية، من بينها كتب لأمادو همباتي با... لكن لا إمكانية لابتياعها عن طريق الشبكة، مادامت الإجراءات التي تمكن من ذلك معدومة. حصلت، مع ذلك، على حكايات من مواقع مشاعة، تنسجم مع «رؤية» همباتي با، فترجمتها وأرسلتها، لكن بقي في البال عطش لحكايات يرويها حكاء متمكن من صنف أمادو. وهنا جاءت الفكرة (المفتاح)، حيث بعثت برسالة إلكترونية قصيرة إلى صديق يُدرّس بفرنسا (الأستاذ عبد اللطيف القرشي) أضعه في سياق ما أنا فيه، فكانت استجابته أروع مما انتظرت... أتاني،

عندما قدم في عطلة دراسية، بعدة كتب لأمادو همباطي با .
وحكى لي كيف توجس السؤال عن كتب لهمباطي، ففوجئ بأن
الكتاب الفرنسيين يعرفونه ويرفون من شأنه مثل أو أكثر مما
يفعلونه مع كبار الكتاب العالميين.

قرأت عناوينها وتصفحتها، ثم استقر رأيي على أن أترجم
أسطورة «كايدارا»، الواردة في كتاب «الحكايات التلقينية
الفولانية»، وأرسلت الترجمة لتُضم إلى الحكايات المترجمة
سلفاً فنُشر الكل في كتاب بديع اختيرت لغلافه لوحة فنية دالة
ومنسجمة تماماً مع مضمونه، مما زاده رونقا وجمالا (العدد
٣٧٢ يونيو ٢٠٠٨).

والحقيقة أنني لم أكن أنتظر تلك الحفاوة التي استقبلته
بها وسائل إعلام مكتوبة، ورقية وإلكترونية متعددة، على طول
خارطة البلاد العربية؛ تحليلاً واحتفاء بمضامينه الإنسانية
الراقية... بل زادني اعتزازاً أن وجدت على بعض المواقع قراء
ينصحون قراء آخرين بقراءة الكتاب... وهناك من اتخذ قولة
همباطي با «عندما يموت مسن في أفريقيا، فإن ذلك يكون بمثابة
احتراق مكتبة»، شعاراً كي ينبه إلى ما يحيق بحكايات أو بأمثال
أو خرافات بلده من مخاطر، بسبب عدم تسجيلها حتى تبقى
ذخيرة للأجيال القادمة... بل اتخذ بعض القراء الكتاب برهاناً
لمحاجة المتزمتين في بلدهم، عندما يُنصبون أنفسهم أوصياء
على فكر وآداب أمّتهم، ويحظرون نشر حكاياتها وخرافاتها لما
تحمله من قيم يرونها، بغباء ويعمى للبصيرة، مناقضة لقيم
الأمة. وابتهجت، أيضاً، عندما وجدت أحد الدكاترة المختصين

يحلل، على صفحات جريدة الأهرام المصرية العتيدة، حكاية من الحكايات الواردة في الكتاب، وهي حكاية «أصل الطلاق»، تحليلاً سوسيولوجياً أكاديمياً رصيناً. وعلى الرغم من أنه لم يشر لا إلى السلسلة ولا إلى المترجم، فقد التمسث له العذر، وقلت إن قيمة صنيعة تحجب سوء تصرفه.

جاء هذا التداول المتواتر، والذي عكسته كتابات متعددة كما قلت، ولعشق خاص أصبت به من حكايات أمادو همباطي با ومن طريقته في بناء أو إعادة بناء حكايات الشعب الفولاني المسلم والمنتمي إلى دولة مالي، وغيره أحياناً، استهوتني فكرة أن أترجم جزءاً آخر من حكاياته الكثيرة والمتنوعة. وقد اخترت الأسطورة الثانية الواردة في الكتاب الموماً إليه أعلاه «حكايات تلقينية فولانية»، وهي حكاية نجدو ديوال، أم الكارثة؛ واخترت معها الكتاب الصغير الشائق «حكايات حكماء أفريقيا».

وسواء تعلق الأمر بأسطورة نجدو أو حكايات الحكماء^(*)، فإن أمادو همباطي با يواصل مهمته في تمرير قيم إنسانية سامية، يتقاسمها البشر باختلاف ألوانهم وأعراقهم وثقافتهم، على لسان حيوانات، في الغالب، وعلى لسان بشر في علاقتهم بهذه الحيوانات؛ ضمن حكايات تمتزج فيها أحداث قد توهم أحياناً بالواقعية، لكنها في الغالب تتخذ طابعاً عجائبيّاً للخيال فيه أجنحة.

(*) استغفيت عن ترجمة بعض الحكايات الواردة في هذا الكتاب «حكايات حكماء أفريقيا»، لأنها واردة أيضاً في كتاب «لا وجود لخصومات صغيرة»، المترجم سلفاً (انظر العدد ٣٧٢ يونيو ٢٠٠٨ من سلسلة إبداعات عالمية) (المترجم).

غير أن ما يميز أسطورة «نجدو ديوال»، هو كثرة أحداثها وتسلسلها، لتنسج، في النهاية، حكاية تقتعد الثنائية الخالدة في حكايات وخرافات أفريقيا وبقية الأمم، وهي ثنائية الخير والشر، ويقوم بناؤها على لحظات أربع أساس:

١ - يتمتع شعبُ (هو الشعب الفولاني) برضا إلهه، فتبرزه الحكاية ينعم بحياة مترفة متمتعاً بكل الخيرات التي يمكن لأرض، في عصر سحيق، أن توفره لقوم يعيشون عليها مطيعين منسجمين مع النواميس الكونية الأمرة دوماً بإيتاء الخير ونبد الشر.

٢ - يطفئ القوم ويجحدون النعم التي يرفلون فيها ويجردونها من أية دلالة ريانية: اعتبروا أن ما هم فيه من ترف أمر من حقهم، لا يد لأية قوة ميتافيزقية فيه، وبالتالي، فإن تغيير السلوك لن يؤدي إلى أي تغيير في النعم المتوافرة لهم. لذلك، وكأنهم المعنيون بقول الحق: «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»، سيسعون إلى التماذي في الهرولة وراء اللذات، غير عابئين بالحدود التي هي شرط استمرارهم في تنعمهم، فزنوا، وسرق كبيرهم صغيرهم، وغنيهم فقيرهم، وأزروا بكل قيمة اجتماعية أو أخلاقية.

٣ - يغضب الرب منهم ويقرر إنزال العقاب بهم فيسلط عليهم مخلوقاً لا كالمخلوقات؛ مشوها وشريراً وذا طاقات خارقة، قادراً على تحطيم مساكنهم وحبس نعمهم؛ مستلذا رؤيتهم يُسامون العذاب ويقاسون الشقاء.

٤ - يرأف الرب بهم من جديد، ويبعث بفتى مبارك ليدخل مع المخلوق الشرير، رغم حداثة سنه، في صراع طاحن ينتهي

بانتصار الخير على الشر، وإيقاف معاناة القوم، لأنهم قد استوعبوا الدرس، وقرروا ضمنا عدم العودة إلى معاقرة الشرور والآثام.

وبين بداية هذه الحكاية ونهايتها، يخضع القارئ اليوم (والمستمع الصغير أو الكبير، قديما، عندما كانت أفريقيا ماتزال تعتمد في تعليم أبنائها، كما يؤكد أمادو همباطي با، على تلقين هذه الحكايات شفويا)، إلى عملية استدخال واعية أو لا واعية لأضومومة متكاملة من قيم الخير، كما يكون في الوقت نفسه خاضعا لعملية طرح نفسي متواتر للقيم الرديئة المشينة الشريرة.

وهكذا نجد في حكاية نجدو ديوال، من جهة، قيم الإيثار والتضحية بالذات في سبيل المنفعة العامة والتواضع والكرم والبذل والعلم والعطف والرحمة وإغاثة الآخر... كما نجد، من الجهة المقابلة، كل سلوك ينبذه العقل ويمجه الطبع السليم، مثل الكراهية والحقد والحرص على المنفعة الشخصية والغدر والجهل والإيذاء والكيد والقسوة وحب التدمير والحسد. أما «حكايات حكماء أفريقيا» العشر، فتأتي في الكتاب، من جهة، بمنزلة تلوينات رائقة على هذه القيم نفسها، تجلية وإبرازا؛ كما «تعالج»، من جهة أخرى، قيما جديدة، شرا وخيرا؛ تبرز حكاية «المبرر المقيت للضبع - الأب»، مدى ضعف النفس الذي يسكن أفئدة بعض الكائنات، حتى لتصبح، في لحظة، متحللة من كل التزام أخلاقي أو اجتماعي، بل حتى ليصبح الأب أقسى على ابنه من أي أجنبي متوحش؛ أما حكاية «الكذبة

التي أصبحت حقيقة»، فتلفت، على الرغم من قصرها، إلى صغار الكائنات أمام الوهم، حتى لقد يكذب الفرد، ومن فرط ما يكرر كذبه، ينخدع هو نفسه بها فيصدقها؛ وتلمح حكاية «خيارات الناسك الثلاثة»، إلى قصة آدم وحواء... الأنثى، بإغوائها، قد تكون، أحيانا، سببا في إخراج الذكر من الجنة، بل سببا في خروجها، هي أيضا، معه منها؛ وإذا كان المتن الحكائي في «الأزواج... لماذا هم على هذه الحال؟» يقوم على «حيلة ربانية»، لجعل المرأة الضعيفة زوجة للرجل القوي والرجل الضعيف زوجا للمرأة القوية، فإن القصد أبعد من ذلك. ورد في الحكاية، على لسان إلههم: «إن وضعتُ ذوي القيمة في جانب وعديمي القيمة في الجانب الآخر، سارت أمور الدنيا مائلة، مثل حمل موزع بشكل سييء على ظهر ثورٍ حَمَّالٍ للأثقال. إذ لن يكون ثمة لا توازن ولا استقرار. عند كل انعطافة سيميل الحمل إلى جهة واحدة وسيصبح التحكم في الكون، أصعب مما هو عليه الأمر الآن». وفي حكاية «الشیطان ومارتاكومبا»، يتم التركيز على ضرورة أن يعرف الفرد مَنّا مقدار قوته قبل الدخول في أي صراع مع طرف آخر قد يكون أقوى وأشد بطشا. الإلقاء بالنفس إلى التهلكة هو جوهر هذه الحكاية... فكأن مغزاها النهائي هو القول المأثور «عاش من عرف قدره». كما تلمح إلى ضرورة التزام الإنسان، أمام أي حادثة، الهدوء وعدم التسرع ونقادي الحكم على الشيء من مظهره. وتنبه حكاية «الشیطان والمعرض - الكارثة»، إلى عناد الإنسان وانسياقه وراء حالات ضعفه من حسد وتبجح وجحود... ولا يسلم من ذلك حتى رجال الدين

المفروض فيهم التواضع والأثرة ونبد الإسراف في أي سلوك. وتلقن حكاية «دجينا نبارا، الجني المقعد» درسا في التواضع وفي ضرورة تجنب الغرور، بل وتبرز فضائل تفريغ النفس والقلب من أثقالهما عن طريق الإسرار بمكنونهما، خصوصا عندما يكون هذا المكنون سببا في عقدة ذنب تبقى قابضة في جوهر الكائن كأنها بومة تتحين فرصة تفكيك «البناء البشري» الذي تتوي فيه. ورغم القصر المفرط لحكاية «حفنة رمل»، فإنها تبقى من بين أكثر الحكايات عمقا، من حيث ملامستها لحقيقة طبيعة البشر وقياس قدراتهم على تحمل البذل المستمر من أجل الآخرين... إنهم يصبحون أحيانا غير قادرين على الاسترسال، يوميا، حتى في تقديم حفنة رمل بلا قيمة، إلى الآخر المحتاج، فبالأحرى الاسترسال في تقديم قدر مما يكسبون. وكثيرا ما تهتم حكايات أمادو همباطي با بشخصية الملك؛ تبرز هذه الشخصية، في حكاياته، بصفة عامة، متمصرة لدورين: دور الخير ودور الشر. وإذا كانت حكايات همباطي تبدي كثيرا من التقدير للملوك المتواضعين العالمين أو المستعنين بالعلماء، فإنها في المقابل تقدم شخصية الملك الطاغية، باستمرار، بشكل كاريكاتوري، كأنها تريد أن تفرط في إبراز سلوكاته المشينة كي «تُصلح» أو تربيته أو تعلمه. كناية عن الملك الذي يتقمص دور المتواضع الساعي إلى المعرفة، وبالتالي إلى العدل، يحكي أمادو همباطي حكاية «درس في الخضوع»، وتلميحا لنوع الملوك الثاني يحكي حكاية «الملك والرجل الأحمق» ليشير، إلى أن سلوكات الملك الطاغية بعيدة عن كل عقل وكل تعقل، ولا يبقى بعد ذلك،

إفراطاً من أمادو همباطي با في سخريته، إلا أن يقيض له رجلٌ
فاقد لعقله، لتستوي الكفتان: لاعقلانية الطاغية، يعادلها
سلوكٌ عدواني لفاقد للعقل.

ومهما حاولت في هذا الموجز أن ألقى من أضواء على
عالم همباطي با الحكائي، فإنه يبقى، بالتأكيد، أغنى وأشد
ثراءً، وعصياً على أية محاولة للإحاطة به وتقديمه في صورة
نمطية، يكفي أن نستحضرها كي نستحضر عوالمه التخيلية.
إن ثراء عوالمه الحكائية يشبه إلى حد بعيد ثراء القارة التي
تصدر حكاياته عنها... بل تبقى حكاياته، دائماً، في حاجة إلى
استكشاف، تماماً كما هي أمها أفريقيا في حاجة إلى استكشاف
مستمر.

ومما يزيد أعمال أمادو همباطي با ثراءً، اهتمامه الباذخ
بالهوامش. سيلاحظ القارئ، لا شك، أن أمادو همباطي يحرص
على الوقوف على كل كبيرة وصغيرة، في محاولة منه لجعل قارئ
أعماله على بينة من الأجواء الأفريقية الأصيلة التي تدور فيها
حكاياته، فتراه يلقي أضواء على أنواع النباتات المشار إليها في
الحكايات وعلى أصناف الحيوانات، منبهاً إلى دلالاتها ورمزيّتها،
سواء عند الشعب الفولاني الذي ينتمي إليه أو لدى الشعوب
الأفريقية الأخرى، وبالخصوص الشعوب الجارة. كل هذا يحيل
هوامشه تلك مصدراً ثراً للمعرفة بأفريقيا؛ للمعرفة بتاريخها
وبعادات سكّانها وسلوكاتهم، وبالعلاقاتهم ببقية الكائنات،
وبالخصوص بالحيوانات التي سيلاحظ قارئ هذه الحكايات أنّ
لها مكانة مركزيّة لدى الأفريقي، ليس بوصفها مصدراً أساساً

لمعيشه اليومي فقط، بل لرمزيتها ولدلالاتها (الخفية، كما يحبّ هو أن يعبر)، سواء من حيث استعمال بعضها في أعمال سحرية، لكونها، كما يقول، «مشحونة»، أو من حيث التبرك ببعضها الآخر واعتباره رمزا لفال الخير وللبري.

ويبقى أن أشير، في النهاية، إلى أن من الشيق بالفعل أن تكون لقطع من أسطورة «نجدو ديوال، أم الكارثة» - وهو مقطع صراع الفتى باغوماويل مع نجدو ديوال والنيل منها عن طريق إلحاق الأذى ببناتها - شقيقة أوروبية، تحمل أغلبية ملامحها؛ وأقصد بها حكاية «الأبيهم الصغير» - انظر تقديم همباطي بالأسطورة نجدو ديوال، بهذا الكتاب، مع ملخص موجز أنجزته للحكاية، في الموضع نفسه - إن هذا الكشف العجيب؛ هذا التشابه، بل التطابق، ليحتاج بالفعل إلى أبحاث تسبر أغوار تاريخ الإنسان، في أزمنة سحيقة... انعدمت فيها وسائل الاتصال، حتى بأشكالها البدائية، لكن مع ذلك تقاسمت البشرية، على الأقل، أساطير ومعتقدات... أليس ممتعا بالفعل هذا الغموض؟ أليس هذا الغموض منجما ثرا لتساؤلات تبقى أفيد من إجاباتها المحتملة؟

محمد بنعبود. العرائش

٢٠١١/١٢/١٠

سيرة أمادو همباطي با

- ولد أمادو همباطي با، المتحدر من أسرة (فولانية - منطقة بمالي) أرستقراطية، سنة ١٩٠٠ بمالي.
- كاتب ومؤرخ وعالم أنساب وشاعر وراوي حكايات.
- أحد كبار الاختصاصيين في الثقافة «الفولانية» وفي التراث الأفريقي.
- يعتبر أمادو همباطي با - الذي اشتغل، منذ سنة ١٩٤٢، باحثاً في المعهد الفرنسي الخاص بأفريقيا السوداء والذي يوجد مقره بدار - أحد المثقفين الأفارقة الأوائل الذين عملوا على جمع وتدوين وتفسير كنوز الأدب الشفوي لأفريقيا الشرقية: حكايات وخرافات وأساطير.
- لفت الانتباه سنة ١٩٦٢، بالمجلس التنفيذي لليونسكو الذي اشتغل به منذ ١٩٦٠، إلى الهشاشة القصوى للثقافة القديمة الأفريقية بإطلاقه لصرخته الإنذارية التي أصبحت مشهورة: «عندما يتوفى رجل مسن بأفريقيا، فإن ذلك يكون بمنزلة احتراق مكتبة».
- ألف أمادو همباطي با حكايات وكتب تاريخ وأبحاثاً دينية ويوميات...، وتوفي بأبدجان في مايو سنة ١٩٩١.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

حكايات حكماء أفريقيا

خيارات الناسك الثلاثة

«حكاية فولانية»

غادر ناسك تقي شؤون الناس، وذهب كي يلتجئ، رفقة زوجته، إلى مغارة تقع على خاصرة جبل شاهق. وثمة، ظل يصلي طيلة يومه ونهاره، لا يأكل إلا القليل، ولا يقرب أيًا من متع الحياة. أشفق الله على ناسكه، فأرسل إليه ملاكا من السماء.

أنعم الله على الناسك، بأن يحقق له أقرب ثلاث أمنيات إلى قلبه.

ذهب المتعبد للقاء زوجته. حكى لها الحدث العجيب الذي حصل له لتوه وطلب منها أن تخبره بما يجب طلبه من الله تعالى. والحال، أن زوجة الناسك كانت شديدة الدمامة، فقالت لزوجها: قبل أي شيء، اطلب من الله أن يجعلني جميلة؛ أجمل من غزالة الصحراء وأنصع من نجمة الصباح وألين من قصب ضفاف الوادي الكبير المزهر. فأنا، بدمامتي، لست جديرة برجل متعبد نال فضل ربه. إن من سيأتون كي يتخذوك قدوة، عليهم أن يجدوني إلى جانبك مثل حورية من حوريات الجنة! أما بالنسبة إلى الخيارين الآخرين اللذين علينا أن نطلبهما من الله، فسننظر في شأنهما لاحقا.

عاد الناسك إلى الملاك وقال له:

«عد إلى سيدي وربّي وقل له إنني أطلب منه أن يعيد خلق زوجتي بمظهر امرأة جميلة بلا نظير».

أعاد الله خلق زوجة الناسك على شكل نموذج الجمال الأنثوي نفسه.

عندما أفاقت المرأة في اليوم التالي ونظرت إلى وجهها في المرآة، لم تستطع أن تتعرف على نفسها. لم تستطع إبعاد نظرتها عن صورتها. بعد لحظات طويلة، انتهت بأن عادت إلى نفسها. وعلى الفور شرعت تجمع أشياءها مستعدة للعودة إلى المدينة. رأى الناسك، مندهشاً، امرأته مُحَمَّلة بالأمتعة وهي تغادر المغارة، فسألها عن وجهتها:

هل تأملتني ملياً؟ عقت المرأة. هل يمكنني بهذا الجمال الباهر أن أستمري في العيش في مغارة إلى جوار رجل لا تنزل روحه أبداً إلى الأرض؟ إن كنت تريد أن أظل زوجتك، عليك أن تغادر صومعتك وأن تأتي معي. وإلا فإنني حرة في أن أذهب لأسلم نفسي لمن سيعرف كيف يقدر فتنتي ويجعلني أتذوق لذائذ الحياة.

غادر الناسك معتزله وسار في أعقاب زوجته.

عندما استقرا في المدينة، لم يتأخر صيت المرأة في الوصول إلى سمع الملك ومجالسيه، إلى درجة أن منزل الناسك، ما انفك، في وقت وجيز، أن أصبح مكان لقاءات صاخبة. أبعد الناسك عن لقاءات المتعة تلك. وانتهى به الأمر أن أبعد عن مسكنه.

عاد إلى مغارته، خَجَلاً ومرتبكاً من كونه قد ضحى بسنوات

طويلة من التعب والتسك كي يستجيب لنزوات امرأة. آنذاك تذكر أنه ما يزال لديه طلبان يطلبهما من ربه. أخذ يصلي ويطلب من الله أن يعاقب زوجته الجاحدة والخائنة، وقد استبدت به الغيرة والرغبة في الانتقام، ناسيا فضائل العفو. استجاب الله إلى دعواته.

صباح اليوم التالي، وعندما استيقظت زوجته في منزلها الجميل ونظرت إلى وجهها في المرآة، وجدت أنها قد تحولت إلى كائن مشوه ومنفر، بحيث حتى الكلاب والقطط إن رأتها فرت من أمامها. هجر العشاق منزل الفجور، وذهبت المرأة المتحولة كي تستجير بأبويها.

على الرغم مما سببته الزوجة لأبويها، بسلوكها، من عار وألم، فإنهما قد قاما بمحاولة لدى الناسك طالبين منه أن يستعمل الطلب الأخير المتبقي في جعل زوجته تسترجع شكلها الأصلي. لأن الناسك وشرع يصلي ويدعوه أن يعيد لزوجته مظهرها الطبيعي، فاستجاب لدعواته.

عندما استعادت الزوجة شكلها الأول، خاطبت زوجها، نادمة: لقد أفسدت، للأسف، الإمكانيات الثلاث التي كانت لدينا كي ننال سعادتنا في الدنيا وفي الآخرة!

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

الشیطان ومارتاکومبا

«حکایة فولانیة»

كان مارتاکومبا قد أنهى لتوه دراساته القرآنية بتفوق. ويوم مغادرته دفعته فجأة نزوة أن يطلب من معلمه خدمة: أن يمنحه المفتاح السحري الذي سيسمح له بالتواصل مع الشيطان.

أحزن هذا الطلبُ الرجلُ الناسك، لأنه لم يكن يستطيع أن يرفض طلبا لمارتاکومبا. فهو كان، بالفعل، قد وعد تلميذه، رسميا، بأن يمكّنه من الخدمة التي سيطلبها يوم مغادرته. لقنه، إذن، على مضض، الأبجدية السرية: علمه المفاتيح السحرية والصلوات الطقوسية التي ترغم الشيطان على الظهور أمام عيني من يتلوها. اختار مارتاکومبا يوما مناسباً، فصنع مربعا سحريا وفقا للقواعد المتعلّمة، ثم توجه إلى سوق القرية، فاستدعى الشيطان ومكث منتظرا.

وها شيخٌ قزمٌ، أعور وأحذب، لباسه كله أسود، يظهر بساحة السوق التي كانت ماتزال فارغة تماما. نشر على مساحة الساحة كلها شبكة على شكل بيت عنكبوت، ثم اختفى.

شيئا فشيئا، شرع التجار والتاجرات يصلون، فعرضوا بضائعهم. ودون أن يعلموا بذلك، كان كل واحد منهم قد وضع بضاعته في زُرْدَة من زُرْدَات الشبكة غير المرئية.

بدأ الزبائن، بدورهم، يتقاطرون تباعا. انطلقت عمليات البيع والشراء. وفي وقت وجيز أصبحت الساحة تعج بجمهرة معتملة من الناس.

عاد العجوز الأعور للظهور، ثانية، أمام عيني مارتاكومبا. كان يحمل في يده يقطينة مملوءة دما. اقترب من مجموعة من النساء يجادلن في ثمن مواد غذائية، فأغطس قطعة خشب في الدم وحركها قليلا. بعد ذلك عمد، وهو يرفع القطعة الخشبية المدهونة بالدم، إلى تحريكها أمام وجه إحدى النسوة. عندئذ قفزت إلى عينها قطرة من الدم غير المرئي. على الفور أخذت إحدى رفيقاتها، التي كانت قد رفعت لتوها يدها كي تعدل على كتفها غندورتها.

«أيتها الغبية! صاحت. لقد أدخلت أصبعك في عيني. أجيدي استعمال هذا الغصن الطويل عديم المهارة، الذي تستعملينه يدًا».

وبما أن المرأة المتهمّة بالباطل، تعلم أنها لم تمس جارتها، فقد ردت بعنف نمرة مجروحة:

«أيتها الشريرة ذات الأرداف غير المتناسقة والمنتنة، أغلقي هذا الملعف الذي تستعملينه فما وإلا حولت، بهذا الدمج الذي يساوي أكثر من ثمنك، أسنانك إلى حبات كسكس!».

- أيتها الخنزيرة ذات الأسنان المرتجة واللسان الشبيه بلسان أفعى جائعة! إن كنت أنت تحاولين تكسير أسناني، فإنني، أنا، سأجعلك تتقيئين دمك، ليس من فمك وإنما من أنفك!

فرح الشيطان للغاية بأن استطاع إثارة معركة، وأراد أن يُعقّد المسألة أكثر. اقترب من المرأتين فوطاً بخبث قدم تلك التي اعتقدت أنها قد تلتقت، من قبل، الأصبع في عينها. صاحت هذه، التي ماتزال تحت تأثير الاحتيال الشيطاني:

«آه أيتها الكلبة مقطوعة الذيل! لم يكفك أن أدخلت أصبعك في عيني، ها أنت الآن تسحقين قدمي بقائمتيك الشبيهتين بقائمتي فرس أجرب. خذي هذا كي تتعلمي كيف تعيشين كما ينبغي!»، ثم وجهت لرفيقتها صفعة مدوية.

قفزت المرأتان إحداهما على الأخرى. أمسكتا بخناق بعضهما حتى تداخلا في جلبابيهما. فقدتا توازنهما فسقطتا على أواني تاجرة مملوءة بالبهارات. شرعت هذه الأخيرة توجه لهما ضربات وهي تسبهما بأقذع الكلمات. أخذت صديقة لإحدى المرأتين التاجرة وشرعت، بدورها، تسبها بسباب فاحش.

«ما دخلك أنت؟ عقببت التاجرة. هاتان الحمارتان اللتان بلا أذنين كسرتا الأواني وفرقتا بضاعتي، وأنت تريدينني أن أدهنهما بالسمن المعطر؟».

كانت المرأتان مازالان تتعاركان. دُهش الناس مما يرون. تجمعوا حولهما. شرع كل واحد من الجمهور يشرح الحدث للآخر بطريقته الخاصة.

ذهب الشيطان فأيقظ كلبين كانا نائمين في زاوية من الساحة ودفع بهما نحو الجموع. أتى الكلبان يعدوان وينبحان ويهددان بتمزيق الجميع. توجه الشيطان إلى طرف الساحة وفجأة قام، بعون من مساعديه، بسحب الشبكة مما قلقل كل السوق. بدا كأن الجموع أصيبت بالذعر. شرع الناس يعدون في كل الاتجاهات دون أن يعرفوا لماذا يفعلون ذلك. اختلطت السلع والبضائع التي هي في ملك تجار متعددين. سقط بعض الفارين وجرح آخرون وتمزقت ملابس البعض الآخر.

بعد ساعة من الفوضى العارمة، عاد الهدوء من جديد بتدخل من بعض التجار المهيبين الذين لم يفقدوا رشدهم ولم يتورطوا في المعركة، فعادت الأنشطة إلى حالتها الطبيعية. عاد الشيطان للظهور ثانية، نحو منتصف النهار. وقف، هذه المرة، إلى جانب بائع جواهر كان قد عرض بضاعته على قطعة ثوب. وضع قدمه على خاتم ورفع به بطريقة ما أمام نظر البائع. في تلك اللحظة نفسها كان زيون قد انحنى وشرع يتفحص حليا كي يشتري بعضها. عندما لم ير التاجر الخاتم، شرع يندب ويبحث عنها سدى. أسرّ له الشيطان بأن الزيون سرق الحلية. بمجرد أن عبرت هذه الفكرة دماغ البائع شرع يصيح من دون أن يطيل التفكير:

أين وضعت الخاتم الذي كان هنا؟

اغتاظ الزيون وقد جرح في كرامته:

- إلى ماذا تلمح؟ أين تريدني أن أضع الخاتم؟ وماذا تريدني

أن أفعل لك؟

- وضعتها في جيبك، وتريد أن تدعي البراءة، عقب

التاجر. سأجعلك تتبوّل بتلك الحلية، يا قليل التربية، أيها

الخسيس!

حينئذ أمسك التاجر بخناق الزيون وشرعا يتصايحان.

وكي يُعقد الشيطان الأمور أكثر، عمد إلى رفع ساقه عن

الخاتم. على الفور رمق الخاتم فضوليّ فصاح:

هيه! لا تواصل شجاركما، ها هو ذا الخاتم. إنه موضوع

بالفعل في مكانه.

أراد التاجر، مبلبلا، أن يعتذر، لكن الزبون أبى أن يهدأ .وعوض
أن يستمع إلى ما كان يريد أن يقوله، أمسك به ورفع به بنصفه
قاذفا إياه على الأرض، فانكسرت إحدى ذراعيه.

عدت الجموع نحوهما . سارع حرس من شرطة السوق إلى
إلقاء القبض على الزبون. رفض هذا الأخير أن يسلم نفسه
وقاوم بكل قواه. اضطر الحراس أن يزيّدوا من عددهم حتى
يستطيعوا الإمساك به. قفز الزبون جانبا وأمسك بمذبة كانت
موضوعة فوق سلعة قريبة وجرح أحد الحراس في وركه. استطاع
باقي الحرس، أخيرا، أن يمسكوا به. ثم اقتادوه بالقوة.

توجه الشيطان، وعلى شفّته ابتسامة رضا، نحو مجموعة
من الخياطين، مقررا على ما يبدو أن يؤذّينهم. مزج خيوطا
وقطع أخرى ووخز خياطا فاتّهم جاره... عندما عمت الفوضى
ابتعد راضيا. اقترب مارتاكومبا من الشيطان، منفعلما مما رآه
لتوه، ووجه له صفة ألقت به على الأرض.

قال الشيطان دون غضب، وهو لا يعلم أن مارتاكومبا كان
يراقبه منذ الصباح:

قل لي أنت. إن عاملني الجميع بهذه الطريقة، فإنني لن
أستطيع بالتأكيد أن أعيش إلى نهاية العالم، كما هو مدون في
ميثاقي مع الخالد! لماذا تضربني؟

- أضربك لأنني لا أستطيع أن أستمّر في معاناة أن أراك تزرع
المعارك بين الناس، مستغلا قدرتك على أن تبقى غير ظاهر.

- لا، أنت لا تضربني بسبب ذلك! عقب الشيطان. أنت ضربتني
لأنك تعرف أنك ستعيش تسعين سنة وأن لا سلطان لي عليك

الآن. لكن اعلم في المقابل أن هؤلاء الناس الذين أثيرَ بعضُهم على بعض ليسوا متحررين من وصايتي. فأنا في الحقيقة، لا سلطان لي على من يقسمون حياتهم قسمين، مُخصّصين القسم الأول للمجون وللمتعة المادية من كل نوع، والثاني للعبادة والتقشف.

والحال، أنني ألاحظ أن حياتك أنت ليست مكونة إلا من التعب والتقشف. أنا لست منزعجا من ذلك، لأنني متيقن أكثر بأنني سأتمكن منك، في النهاية. آنذاك ستؤدي ثمن هذه الصفحة غاليا! لم يعد لي الآن سوى دعاء أوجهه إلى الله: أن لا تراودك أبدا فكرة تقسيم حياتك إلى جزأين، فتفر بذلك من وصايتي!

- أيها الأعور العجوز، يا صاحب الإلهام الشيطاني، صاح مارتاكومبا. لقد خسرتَ تماما! مادمت أعرف كيف أتحاشى صفعاتك، لن تغلبني أبدا!

- ماذا ستفعل؟ سأل الشيطان بنبر حزين وخائر.

- اخرج من حياتي، قال مارتاكومبا. أنا أعلم ما بقي علي القيام به وسترى أن إنسانا سيستطيع إبطال حبالك.

ثم أسر لنفسه: «أنا أعلم الآن أنني سأعيش تسعين سنة؛ والحال أنني لم أعش منها سوى ثلاثين؛ بقي لي إذن ستون سنة. وكى أتجنب وصاية الشيطان، سأقسم حياتي إلى مرحلتين. سأعيش في البداية خمسة وأربعين عاما في المتع المادية والمجون، مستخلصا من الحياة كل ما تستطيع تقديمه؛ وبعد ذلك، عندما أصبح في الخامسة والسبعين، سأتوب وأعود إلى الله.

ستكون سنواتي الخمس عشرة الأخيرة مخصصة لله كما كانت سنواتي الثلاثون الأولى. وبذلك ستكون حياتي المتبقية مقسمة إلى مرحلتين: مرحلة مجون ومرحلة عبادة.

منذ اليوم التالي، شرع مارتاكومبا يرتاد المجموعات الأكثر مجونا. لم يستجب، بعناده المعتاد، لأي من النصائح الحكيمة ولكل التحذيرات من حبائل الشيطان. تخلص عن إيمانه وعن كل أعمال الخير، وعاش مقترفا الكبائر. بعد سبع سنوات من بداية حياته الماجنة، مات بسكتة قلبية مفاجئة.

مباشرة قبل إسلامه الروح، ظهر له الشيطان، متبوعا بموكب من ملائكة الجحيم. «لقد تمكنت منك أيها الطائش المسكين، قال له. لقد نصبت لك فخا فسقطت فيه على رأسك. أسلم إذن روحك بين يدي. وأنا أخبرك بأن جهنم ستكون مأواك الأبدي. ستعيش فيها صارا أسنانك متأوها من شقائك، لأن شقائك سيكون بلا نهاية».

اعلم يا أخي أن من الأحسن، في كل الظروف، أن تحتفظ بهدوئك وألا تستسلم للشكوك، لأن المظاهر تكون أحيانا خادعة. واعلم أيضا أن الحذر يقتضي ألا نثق بمعرفتنا الخاصة كي نستطيع مواجهة أي شيء. إن الافتراض والعناد والفضول غير المناسب، قد قاد العديدين إلى نهاية حزينة. وأخيرا، احذر كل تدخل نزوي ولا عقلاني. فمارتاكومبا ضرب الشيطان، لكنه أدى روحه ثمنا لفعله المتهور. قبل التدخل في أي أمر، يستحسن أن نعرف مقدار قوتنا وألا نعتقد، بالخصوص، أننا واثقون من مصيرنا.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

«أسطورة فولانية»

أتدرون لماذا أصبح الرجل الخير زوجا لامرأة بلا قيمة، والمرأة الشجاعة زوجة لرجل جبان؟ هذا أمر نلاحظه، لكننا لا نعرف له سببا. الأسطورة الفولانية، من جهتها، تفسر لنا السبب.

عندما أنهى الله خلق النوع البشري، وزع المحاسن والمساوئ على الرجال كما على النساء.

وذات يوم رأى كل النساء قادمات نحوه. قال لهن:

أنتن أيتها النساء! انظرن إلى الأفق وقلن لي ما الذي تريه. - سيدي، أجبن، إننا نرى شمسا متألفة تشرق على الأرض. ويبدو أن الأشياء كلها تحتفل بشروقها. فبالموازاة مع صعودها مستقيمة في السماء، بدأ يعود إلى الحياة كل ما كان يبدو آخذا في الموت.

قال:

أيتها النساء! أنتن، حتى الآن، ومنذ ساحق الأزمنة، لم تعشن سوى لحظات رهيبة. والآن يجب أن توضعن على الطريق إلى الجنة. ستسهر ملائكة عليكن طيلة الطريق. وستستقبلكن أخرى عند وصولكن. إياكن والتردد أو الأنين، وبالخصوص إياكن والخور!

كنتُ فيما مضى، وأنا الآن، وسأبقى دائما، مُنذرا. وأنا أعلن لكن أيضا أن منازل رائعة وحليا بجمال لا يضاهي، ستوزع

عليك وفق ترتيبك في الوصول. ستكون أولاً كن أكثر حظاً؛ وأنا أذكر كن بأن الجنة إقامة أبدية... ولذلك فإن الحمقى منكن هن من سيتركن غيرهن يتقدمنهن.

بعد أن أنذرتكن، أيها النساء، انطلقن في البحث عن سعادتك. انطلقت النساء. امتدّت جماعتهن وشرعت تسري مثل مجرى واد كلما تقدم ضاق. كانت أشجعهن تحتل الصفوف الأمامية.

بعد انقضاء ثلاثة أيام من المشي، ما عادت النساء قادرات على مواصلة المسير. «ما فائدة تمنّي مجد «المشاءات»؟، تتمن. ومن يدري، مع الوقت، أي مصير ينتظر الواصلات في المقدمة؟ ساعة الجنة هي بشاعة كل السماوات. والمنازل، فيها، هي بكثرة حبات الرمل في كل الأودية وكل الشطآن مجتمعة. ألا يقال إن هذه المساكن، التي يقع بعضها فوق بعض، تبتدئ من البحار وتنتهي، تقريبا، في قمة السماء؟ لماذا العدو إذن وإفقاد أجسادنا ليونتها؟ لماذا العرق وإنتان أجسادنا؟ لننتقدم ببطء، أخواتي، ولنحافظ على طراوتنا. وعندما نصل إلى الجنة، ستعثر كل واحدة منا على منزل لها. وحتى لو سكنت المتقدّمات منا غرضا جميلة، فإن المشي بقوة سيُهزّلهن. سيُحزن مظهرهن الهزيل جمال منازلهن ومناظرها الخلابة».

عندما أنهت النساء الكسولات كلامهن، عاودن سحب سيقانهن. وكي يسندن مشيهن الشبيه بمشي حرياء متعبة، شرعن ينشدن:

لماذا علينا أن نسرع، وأن نحزن؟

لماذا الصباح؟ أجل، لماذا؟

من يتجه إلى الجنة

لا يتجه البتة لأرض يباب

حيث يأسر الضيغُ الجدي،

وحيث يسرق قط الدغل دجاج الفناء.

لنتقدم بمهل ولنسأل الألواح (*) .

سنعلم أن السؤال الملعن

«ماذا حصل؟»

قد طُرح على النساء الجاريات

كما يجري ظبي للفرار من صياد.

لنمش ببطء

ولنسأل الألواح...

بعد ثلاثة أيام من انصراف النساء، قال الرب: ها قد انقضت

ثلاث ليال وثلاثة صباحات منذ أخذت النساء الطريق، لنرسل

ذكورهن في أعقابهن.

آنذاك استدعى الله كل الرجال وخاطبهم قائلاً:

ليس جيداً أن يبقى الذكردون أنثى. وقد خلقت رفيقات من

أجلكم. لقد انطلقن سلفاً نحو الجنة. هن يتقدمنكم بثلاث

ليال وثلاثة صباحات، لكنني سأعطيكم من قوتهن ثلاثة

أضعاف وستنطلقون في أعقابهن.

ستكون من نصيب كل واحد منكم المرأة التي سيجدها في

(*) الألواح: هي التي من المفروض أن كل شيء مكتوب فيها. فهي بمنزلة الأرشيف الرياني.

طريقه، ولن يكون بإمكانه الحصول إلا على واحدة(*) . ومن سيتكاسل منكم على الطريق، قد يبقى دون رقيقة. وسيكون اللوم عليهم. سأحكم عليهم بالعزوبية ولن يعرفوا لا سعادة الأسرة ولا امتياز الأطفال، وبذلك لن يستمر نوعهم في الوجود. وستبقى البذرة التي وضعتها فيهم مثل حبة جافة. سأنظر إليهم شزرا وسيشقون بذلك(**).

انطلق الرجال، وشرعوا يغنون وهم يتقدمون:

لكل كائن أصل،

ولكل معدن منجم،

ولكل فعل سبب.

إن كان جينو، الخالد، قد وضعنا على طريق زوجاتنا،

فلأن لذلك سببا.

من سيكن زوجاتنا،

قيل، إنهن جميلات ومكتملات.

لُعوبات دون مجون

ورائعات دون أن يكن فاسدات.

سينهين الحزن

(*) يقرر الله، خالق الكون، في هذه الأسطورة الفولانية، الزوجة الواحدة بالنسبة إلى الجنس البشري. وهذا متوافق مع موروث أصل الفولانيين الحمر (الفولانيون الرعويون) الذين لم تكن لهم سوى زوجة واحدة. لقد كانت صعوبات الحياة الرعوية تحول، بالفعل، دون اتخاذ أكثر من زوجة. وتعدد الزوجات، في نهاية المطاف، هو مشكل مدني (أو مشكل حياة الحضر) ذو صلة بالثراء. ويتم هنا ذكر مثال الأسد الذي يعد من بين أكثر الحيوانات فقرا - رغم أنه «ملك الدغل» - لأن من الممكن أن يبقى في بعض الأحيان عشرة أيام دون أن يجد ما يقتات به. وبذلك، فهو لا يملك سوى مرافقة واحدة، في حين أن طير الحباري، الذي يعثر في كل مكان على حب، يملك دائما العديد من المرافقات.

(**) كانت العزوبية دائما أمرا منتقضا في المجتمعات الأفريقية التقليدية. كان الرجل غير المتزوج يعتبر غير راشد، مهما يكن عمره، ولا يؤخذ برأيه في الاجتماعات العامة.

الذي يُظْلَمُ قلوبنا .

هيا ، لنمش بهمة نحو الجنة!

سنعثر فيها على زوجاتنا ،

وسنعيش فيها برزانة!

تعلو حكمة الله فيها

مثل جبل شاهق

تُستخلص منه معادن ثمينة

لتزيين جبهات الشجعان والحكماء .

هيا ، لنمش بهمة نحو الجنة!

سنعيش فيها برزانة

برزانة، برزانة!

بعد ساعات من المشي، انقسم الرجال إلى ثلاث مجموعات:

آل حمادي - حمادي في المقدمة، وآل حمادي في الوسط وآل

حمان - نضوف في المؤخرة (*).

النساء أيضا، كن انقسمن إلى ثلاث مجموعات: آل مانتالدي في

المقدمة، وآل سانتالدي في الوسط وآل مانتاكابوس في المؤخرة (**).

(*) حمادي - حمادي: يُسمى بهذا الاسم الرجل المشهور والذي له قيمة كبرى في عائلته وفي حيه وقريته وفي بلده أجمع. وعندما ينتقل من مكان إلى مكان، فليس مضيفه وحده من يعرفه، بل الحي والقرية وكل البلد يعرف أنه قد أتى.

وحمادي هو أيضا رجل ذو قيمة، لكن قيمته تحدّ بحيه وقريته.

أما حمان - نضوف، فيقال إنه عندما يتغيب، حتى أسرته لا تتنبه لغيابه؛ وإن سافر، فإن مضيفه نفسه لا ينتبه لقدمه.

(**) مانتالدي: هي زوجة ذات قيمة عالية؛ تستطيع أن تأخذ بيد زوجها وأن تحصل باستمرار على ما تعول به عائلتها، كما تستطيع أن تقوم بكل أمورها الخاصة.

مانتاكابوس: هي الزوجة التي لا تكفي بالآ تعرف كيف تحصل على شيء، بل إن أتى زوجها بشيء إلى البيت ضيّمته. وإن لم يقدم لها شيئا، شرعت تصيح. وإن قدم لها شيء، قالت إنه غير كاف. إنها الزوجة التي لا تكف عن الشكوى والتي لا تقوم بأي شيء جيد.

وقعت مجموعة آل حمادي - حمادي، المتكوّنة من رجال لامعين وحكماء وعمليين وشجعان، على مجموعة مانتاكابوس، أي آخر النساء في الترتيب القيمي للنساء. وبما أن مجموعة آل حمادي - حمادي كانت تجهل أن النساء المتفوقات كن في المقدمة، اختاروا زوجاتهم من ضمن آل مانتاكابوس.

وقع آل حمادي، مجموعة الرجال المتوسطين، على آل سانتالدي، وهن نساء متوسطات أيضا في قيمتهن، فاختروا زوجاتهم منهن. في هذا الوقت، كانت آل مانتالدي، النساء ذات القيمة الرفيعة، قد تقدمن رفيقاتهن في المجموعتين الأوليين، وكنّ قد أدركن مدخل الجنة. وعندما أردن اجتياز العتبة، أوقفتهن الملائكة: معذرة، أيتها النسوة، فأنتن مازلتن مجرد «نصف»، والحال أن النصف هو شيء غير تام، وإذن فهو غير ممتاز، وغير الممتاز لا مكان له في الجنة. انتظرن حتى يصبح لكل واحدة منكن زوج فتصبح كاملة. آنذاك ستدخلون مثنى مثنى، أي وفق الوحدات البشرية الممتازة.

وقبل أن تستفيق النساء من مفاجأتهن، حضر آل حمادي - حمادي، مصحوبين بزوجاتهم آل مانتاكابوس. صاحبت الملائكة: أي لغز! أهؤلاء من اختارهن الله لكم زوجات؟ أقبل آل حمادي بدورهم مصحوبين بآل سانتالدي.

وأخيرا وصل آل حمان - نضوف، آخر الرجال قيمة، إلى أبواب الجنة خاويي الوفاض. آنذاك سلمت النساء المتفوقات، مانتالدي، أنفسهن لهن كي يستطعن الولوج إلى الإقامة الربانية.

وهكذا تقاسم النوع الرفيع من الرجال النوع الرديء من النساء، وسقطت النساء ذوات القيمة في يد رجال بلا قيمة. عندما استقر المقام بهم في الجنة، أتى الرجال المتفوقون ليشتكوا إلى الله. اتفقوا مع النساء الأوائل، والتمسن من الله تعديلاً للوضعية. فقال لهم الله: أنا لا أرفض حقاً لمستحقه. لكن خلفية أفعالي ليست دائماً في متناولكم.

أيتها النساء الشجاعات اللاتي احتلن المرتبة الأولى، اقبلن عن طيب خاطر الرجال ذوي القيمة القليلة. وأنتم أيها الرجال المتميزون، خذوا إلى جانبكم النساء الكسلانات والعاديات. لقد قررت ما قررته، حكمة وعلماً. إن وضعت ذوي القيمة في جانب وعديمي القيمة في الجانب الآخر، سارت أمور الدنيا مائلة، مثل حمل موزع بشكل سييء على ظهر ثور حمالٍ للأثقال. إذ لن يكون ثمة لا توازن ولا استقرار. عند كل انعطافة سيميل الحمل إلى جهة واحدة وسيصبح الكون أكثر صعوبة في التوجيه، مما هو عليه الآن.

أما في الحالة التي أصبحتم عليها الآن أزواجاً، فإن الرجال ذوي القيمة سيمنعون النساء الكسلانات من السقوط في الأيدي القاسية التي ستزيل كل مرونة من جفونهن (*). وستكون النساء الرزينات الحكيمات ملجأً للرجال قليلي القيمة الذين تجمعهن بهم رابطة الزوجية.

لقد نظمت كل شيء وفق مقياس أنا وحدي أعرف لغزه.

(*) من فرط ما سيبيكن.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

تجنبوا الكراهية. ولا يلمز بعضكم بعضاً بدعوى أن قيمتكم ليست متساوية.

تحابوا فيما بينكم. وليتحاب الأزواج بالخصوص. أعلنوا أن من بين الأشياء التي أحبها، أنا الله، التفاهم الممتاز بين الزوجين، إذ أضعه في المرتبة الأولى.

المبرر المقيت للضبع - الأب

«حكاية فولانية،

في تلك السنة، كف المطر عن الهطول، فجفت البلاءيم واجتاحت الشقوق سطح الأرض. لم ينبت أي نبات جديد، وجفت النباتات القديمة.

لم يعد ثمة شيء يقتات به لا الإنسان ولا الحيوان. وما عاد بالإمكان العثور على أية قطرة ماء في أي مكان. شرع دود الأرض يقضم جذور النباتات وأخذت حشرات الأرض تقرض الأوراق والأغصان. بدأت الطيور تأكل الدود، والجوارح تأكل الطيور. بكلمة، شرعت الكائنات تأكل بعضها بعضا إلى درجة أنه لم يبق بأعالي الدغل (*) سوى عائلة ضباع تتكون من الضبعة - الأم، والضبع - الأب، والضبع - الابن. فرّ الثلاثة سعيا لتجنب الكارثة. في أثناء الطريق، سقطت الضبعة الأم، للأسف، نافقة من الجوع والعطش. أكل الضبع - الأب، والضبع - الابن الجثة. صلّحت الجثة، على الأقل، لشيء ما.

بعد أيام متعددة، شعر الضبع - الأب، من جديد، بجوع شديد. شعر بقواه تخور؛ وهو لا يريد أن ينفق. وبما أنه لم يكن ممكنا بالنسبة إليه أن يأكل نفسه، فإنه لم يبق أمامه سوى حل واحد: أن يأكل ابنه.

(من أجل ذلك، أسر لنفسه: عليّ أن أجد سببا ملائما، سببا يعلل موقفي أمام قبائل الضباع الثلاث: ذوي الرغب الأشقر،

(*) هو أيضا اسم لجهة من جهات السنغال.

وذوي الزغب الرمادي، وذوي الزغب الأسود).

غرق الضبع - الأب، فيما بدا أنه تأمل عميق. تملأه ابنه حائرا.
عندما شعر الضبع - الأب بأن ابنه يتأمل به بطريقة غير معتادة،
عمد إلى جعل مؤخرته تنخفض أكثر مما هي منخفضة أصلا.
آه يا صغيري! صاح. يُحكى أنه في غابر الأزمان، حوّل الله
أجساد الحيوانات بعضها إلى بعض دون اعتبار لنوعها. وصحة
هذا الكلام تبدو في أن عينيك هما عينا حمل وليستا عيني
ضبع صغير!

صاح الابن، الذي لم يكن غافلا عن نوايا أبيه غير الطبيعية:
(إي - أي - أي - إي! إي - أي - أي - إي! يا أبي أنا! كيف
يمكنني، وأنا ابنك، أن أكون ابنا لضان أقرن؟

- الدليل هو أنك أصدرت ثغاء، يا سليل الغنم! اعلم أن ابن الشاة
على الرغم من أنه يقضي في زغب الضبع مدة طويلة، لا يصبح أبدا
ج - ن - و - ي - ي (*) (وكي أعاقبك على احتلالك، دون وجه حق،
أحشاء أكل لحم، تعال إلى بطني كي تبحث عن بقاياك!)
وكي يقرن الضبع - الأب القول بالفعل، قفز على ابنه والتهمة
دون هواده.

الجوع لم يكتف بطرد الضبع من الغابة، بل جعله يأكل ابنه
أيضا (**).

(*) محاكاة صوتية لصيحة الضبع.

(**) تستخلص التقاليد من هذه الحكاية درسين:

- عندما يؤكد إنسان متخلق أمرا، فإن بإمكاننا، بالتأكيد، أن نصدقه، اللهم إلا إن قال: «حتى
ولو مت جوعا، لن أفعل هذا الشيء أو ذاك»، لأن الله وحده يعلم إلى أي مدى يمكن للجوع أن
يدفع بالإنسان.

- عندما يريد الزعيم أمرا بشخص ما، فإنه ينتهي دائما بأن يتمكن منه.

الكذبة التي أصبحت حقيقة

«حكاية فولانية»

ذات يوم، عثرت ضبعة، وهي تصطاد في ضواحي القرية، على جدي نافق. فرحت وحملته وابتعدت عن القرية جارة إياه إلى غابة كي تفترسه مطمئنة. لكن، وفي الوقت الذي كانت تستعد لأكله، لمحت بعيدا قطيعا من الضباع مقبلا نحوها. وخوفا من أن يفسد عليها بنو جلدتها وليمتها، سارعت إلى إخفاء الجدي، ثم أتت كي تقعد على قارعة الطريق. وهناك شرعت تصيح بقوة: (بواه ! بواه ! بواه !). توقفت الضباع الجارية:

ماذا دهاك أيتها الضبعة الأخت؟

- سارعوا إلى القرية! لقد نفق كل القطيع وألقيت الجثث في المزيلة. لقد أكلت منها حتى شبعت وأنا عائدة الآن إلى بيتي كي أنام.

عندما سمعت الضباع هذا الخبر المشهي، سارعت بقوة نحو القرية، إلى درجة أنها أثارت بقوائمها سحابة من الغبار.

بعد أن تأملت الضبعة هذا المشهد، خاطبت نفسها:

ها كذبتني قد أصبحت حقيقة؛ إن كذبة حقيقية لا يمكنها أبدا أن تثير وحدها كل هذه السحابة من الغبار! لأجري بسرعة، فقد أصبح الأمر حقيقة! أصبح الأمر حقيقة!

ثم تركت جديها حيث هو وسارعت بدورها نحو القرية. تلك هي قوة الكذب؛ فبتكراره ينتهي الكذاب نفسه بأن يصدق كذبه.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

«حكاية فولانية»

تناهى إلى علم مياندافو، ذات يوم مشؤوم - صادف آخر أربعاء من الشهر القمري - أن معرضا - كارثة سيقام على قدم التلة الحمراء، في السهل الذي يُطلق عليه اسم سهل «الحمقى المستنيرين»، فقرر أن يحضره، وقد استولى عليه فضول أن يعرف أية بضاعة ستعرض فيه، ومن سيكون أقل فطنة حتى يرتاد معرضا مثل هذا، حيث لا يمكن أن يُحصَد سوى سوء الحظ والخيبة وكوارث أخرى! وصل باكرا إلى مكان المعرض فاخْتَبَأ في تجويف عش أرْضَة أقيم على مقربة من ساحة السوق.

صعدت الشمس رويدا رويدا في السماء. ومثل سكير محتدم، شرعت تنشر حرارتها الجحيمية.

انتظر مياندافو ساعات، لكنه لم ير أحدا مقبلا. وفجأة رأى سحابة عظيمة من الرمال ترتفع في الجو، كأن جيشا كاملا على الخيل يعدو في الساحة. تساءل مع نفسه عمَّن قد يكون رفع هذه السحابة الغريبة من الرمال، لأنه لم يستطع أن يرى شيئا على الرغم من أنه حديق مليا في المكان.

آنذاك أخرجت عطاء رأسها من ثقب صغير على خاصرة عش الأرضة، وقالت: أنت يا مياندافو! اعثر لي على جرادة وسأسلمك ليس فقط وسيلة ترى بها المعرض، بل ستتمكنك أيضا من رؤية منظمه والحديث إليه.

عشر مياندافو بسرعة على الجرادة. سلمها للعضاء. مزقتها وأكلتها، ثم قذفت في يد مياندافو ببصاق. وقالت له:
حك عينك اليسرى به، مستعملا خنصرك اليسرى، وسترى
ما ستراه!

نفذ مياندافو على الفور. وما كاد ينتهي من حك عينه اليسرى حتى لمح - جالسا وسط الساحة - كائنا ذا مظهر إنساني، رغم أنه مشوه وغريب للغاية. كان ذقنه يعتمر لحية تيس، ويتدلى أسفل ظهره ذيل فرس وهو يقف على ساق واحدة في شكل لولبي، تنتهي بحافر خنزير وحشي. لمح مياندافو، غير بعيد عن الكائن، ثلاث عرصات عظيمة من البضاعة، وتتشكل كل عرصة من عدد كبير من اللعب.

كان الكائن الغريب، صاحب لحية التيس - والذي لم يكن سوى تجسيد للشيطان! - يتنقل من عرصة بضاعة إلى أخرى على ساقه اللولبية، مثل زوبعة هوائية. كان تنقله ذاك هو ما يثير سحابة الرمال. وبين الفينة والأخرى، كان ينظر حوله، يعكس وجهه قلقا، مثلما يحدث لشخص ضرب موعدا لشخص آخر، ولم يره يقبل في الوقت المحدد.

تقدم مياندافو واقترب من الشيطان. صاح هذا الأخير، وهو في قمة التعجب من أن يكتشفه فجأة إلى جانبه:

كيف صنعت حتى أبطلت السحر الذي يحجبني عن أنظار الناس الفانين؟ ألا تكون عضاء صغيرة تسكن عش الأرضة الرمادي، هي التي سلمتك، مقابل جرادة، قطرة بصاق مكنتك من أن تراني وأن تقترب مني؟ أه! يا لها من خائنة!

ويدلا من أن يجيب مياندافو عن سؤالٍ وحيدٍ الساق، سألته

بدوره:

هل يمكنك أن تخبرني، يا أيها الرجل الغريب، بطبيعة هذا
المعرض الكارثي الغريب وبالبضاعة التي تأمل أن تبيعها فيه؟
قال الشيطان:

- نعم يا مياندافو. لقد أتيت لهذا المعرض كي أبيع فيه ثلاثة
أنواع من البضاعة. وهي مصنفة وفق نوعها في هذه الكومات
الثلاث التي تراها هنا.

- نعم. أنا أرى بالتأكيد الكومات الثلاث، لكنك لم تقل بأية
بضاعة يتعلّق الأمر. إن ما يدهشني هو أنني لا أراك تقدمها لأحد،
ولا أحد، أيضاً، يأتي ليسألك عن ثمنها، ولو من قبيل الفضول.

- ذلك أن لا أحد يراني! قال الشيطان. وفضلاً عن ذلك، فإن
بضاعتي ليست مما هو معتاد لدى البشر. الكومة الأولى التي
ترى تحتوي على «الجحود»، وهو النزوع إلى عدم الاعتراف بالبتة
لأحدٍ بشيء. أما الكومة الثانية، فتضم «الحسد»، وبمعنى أدق،
الألم الذي نشعر به من أن نرى أحداً ينجح في شيء. وأخيراً،
فإن الثالثة تحوي «العناد» وكل ما يدفع بالإنسان إلى مواجهة
خطر محقق دون داعٍ حقيقي (*).

قال مياندافو ضاحكاً «إذن فإن تجارتك ستبور، لأنني
لا أرى، في الحقيقة، من قد يكون من البلادة بحيث يشتري
منك بضاعة مثل هذه، لا يكاد يقبل عليها أحد!».

(*) هذه إحدى المميزات التي كانت تُحسب من النّبل الأفريقي القديم: ذلك أن بعض الرجال
يعاندون ولا يستطيع شيء أو أحد أن يجعلهم يعدلون عن أفكارهم، فيعرضون أنفسهم للموت
لأسباب واهية.

- لا تكن مخطئاً، قال الشيطان. إن بضاعتي طلبت سلفاً.

لن يمر وقت قصير حتى ترى مُقتنين متميزين للغاية يأتون كي يأخذوها.

وبالفعل، مرت لحظات، بعد ذلك، حضرت امرأة تتزين بأناقة، مصحوبة بحشد من الخدم: «نهارك سعيد، يا ذا اللحية الطويلة(*)»، قالت، لقد أتيت لأخذ ما اشتريته.

أشار الشيطان إلى الكومة الأولى، قائلاً: تأكدي من أن البضاعة كاملة، واحمليها.

فحصت المرأة الجميلة، بدقة، اللعب، وصرّحت بأنها كاملة وفي حالة جيدة، ثم حملتها وهي تشكر الشيطان وانصرفت.

بعد انصرافها، أقبل ناسك مهيب، محاطاً بمريديه، فتقدم نحو البضاعة المعروضة، وقال: أتيت لأخذ بضاعتي. أشار عليه الشيطان بالكومة الثانية. فحص الناسك اللعب بعناية ثم طلب من مريديه حملها. بعد ذلك شكر، مثل المرأة الشيطان بحرارة على عمله الجيد، وولى مدبراً.

أخيراً، وبعد مدة طويلة، أقبل ملك عظيم، مصحوباً برفقة كبيرة. سأل الشيطان عن طلبه، فأشار عليه هذا الأخير بعزمة اللعب الأخيرة. حمل خدمه كل اللعب وأطرى على الشيطان وانصرف. عندما خلت الساحة من جديد، التفت الشيطان إلى مياندافو قائلاً:

أنت الذي رأيتني أبيع هذه الكوارث، إن كنت تريد أن تعرف كيف ستستعمل، عليك أن تجوب الأرض. ستري في أماكن عدة

(*) لقب الشيطان.

المرأة وقد استولى عليها الجحود فلا تعترف لزوجها بجميل إلا بطريقة كارثية؛ ومهما يفعل الزوج من أجلها، سترى هي دائما أنه كان عليه أن يفعل أكثر؛ وإذا ما وقع بينهما خلاف، فإنها لن تذكر إلا الشر الذي نالته من زوجها، أما الخير فلن تذكره أبدا. أما معظم النساء (*)، فإن الألم الذي يشعرون به من أن يروا أحد زملائهم يحقق نجاحات، يفوق كل تصورا إن الحسد الذي اشتروه يدفعهم لأن يقفوا ضد بعضهم البعض، حتى لو كان ذلك على حساب الحقيقة الربانية والتفتح الروحي للنوع الأدمي.

أخيرا، وفي كل مكان وزمان، سترى زعماء يعاندون محاولين بسط سيطرتهم وفرض إرادتهم حولهم، هذا إن لم يحاولوا حتى أن يُسَخِّروا الطبيعة لمصلحة أهوائهم! وهم يستعملون، من أجل النجاح في مساعيهم، القوة كما يستعملون الحيلة والخديعة والخيانة. وهم، عندما يفشلون، بدلا من أن يستسلموا لطبيعة الأشياء، يعاندون ويُشعلون، في الأخير - تبجحا وعنادا - ما به تكون نهاية حكمهم!

هكذا تكلم الشيطان الذي من المفروض أنه يعرف الطبيعة البشرية. لكن ألا نلاحظ، حتى في ثمرة فاكهة متعفنة، وجود قطعة صغيرة سليمة؟ لا مجال إذن للتعميم. فله الحمد، ثمرة نساء كثيرات من هذا العالم لم يستهلكن البضاعة المبتاعة من معرض الشيطان من طرف ممثليهم المجازية. وقل الشيء نفسه عن النساء والزعماء الدنيويين.

(*) يرمزون هنا، بصفة عامة، لرجال الدين الكبار.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

إن الزعماء المشغولين بنشر السلم والعدالة، والنساء الخيرات
والرجال الحقيقيين الريانيين، المندورين للحقيقة - الفريدة،
يرمزون، على مستوى آخر، إلى:

- القانون العادل الذي ينظم بلدة السعادة،
- الطريق الذي يقود إلى السعادة الدائمة،
- الحقيقة التي تنشر الحب والرحمة بين بني البشر.

« حكاية من بلاد ماركا »

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، ملك قويّ جداً، يعيش في أروع مملكة على وجه الأرض. كان بلده يعجّ بكل الثروات الممكنة. وكان الناس يقضون به أياماً رائعة. كان الملك يعيش في بحبوحة من السعادة، حتى نسي الموت وما عاد يعرف ما الذي تعنيه كلمة «شقاء».

كان يتساءل في أعماقه: كيف يمكن لإنسان أن يكون شقيّاً. وكى يعاقبه الله، ربما، أصاب ابنه الوحيد بشلل كامل. لم يستطع الطفل، طيلة سبعة أعوام، أن يغادر فراشه. آنذاك عرف الملك الألم وخيبة الأمل. كانت معاناته تساوي ألف موت. ملأ الحزنُ عليه كلّ قلبه. كان أكثر شقاء من المريض الصغير نفسه! الحياة التي كانت بالنسبة إليه، حتى تلك اللحظة، حفلاً لا ينقضي، أصبحت مثل ليل دامس لم يسبقه عشاء.

بحث الملك في كل مكان وبأي ثمن عن علاج للألم الذي كان يعانيه الأمير الصغير، لكن سدى. أسقط في يده إذ لم يستطع أحد من المعالجين والمتنبئين والمشعوذين، الذين تعاقبوا على فراش مرض الأمير، أن يعيد إليه صحته ولا حتى أن يخفّف عنه آلامه.

ذات يوم، وقفت على باب القصر امرأة عجوز، شيباء، درداء، عرجاء، حدباء من أمام ومن خلف، يسيل أنفها وترشح الدموع من عينيها الذابلتين. طلبت لقاء الملك، لكن الحرس رفضوا

طلبها فأطلقت صرخة مدوية اهتزت الأرض منها.

خرج الملك من غرفته لا يعرف ما يحدث. من ذا الذي أطلق

هذه الصرخة الرهيبة؟ قدمت له المرأة الشبياء، فسألها:

لماذا أطلقت هذه الصرخة، أيتها العجوز الطيبة؟

- لقد أتيت أيها الملك العظيم، كي أقدم لك معلومة ستوقف

جريان دموعك، لكنهم غلقوا الأبواب في وجهي، ولذلك صحت.

- تكلمي بسرعة أيتها العجوز الطيبة، فأنا أستمع إليك مثل

تلميذ طيِّع نجيب.

- اسمع! علمت أنك تبحث، منذ سنوات، عن معالج عبر

كل ربوع المملكة. والحال، أنه لا يوجد، في الكون برمته، سوى

كائن وحيد قادر على أن يساعد في شفاء ابنك من المرض الذي

يعانيه، إنه دجينا نبارا، الجنى المقعد (*). يقال إنه يعرف كل

شيء! هو يقطن بين السماء والأرض في منطقة لا يستطيع

أحد أن يصل إليها، لكنه يأتي، مرة كل أسبوع، كي يشرب من ماء

البركة الزرقاء، التي توجد في الوادي الأحمر، على قدم سلسلة

الجبال الصفراء. فإن كان ثمة أحد بإمكانه أن يساعد فس شفاء

ابنك، فهو هذا الجنى.

- لكن، أيتها العجوز الطيبة، كيف يمكنني أن ألتقي بهذا

الجنى؟ فهو ليس أحد رعاياي، ولا سلطة لي عليه.

- يجب أسره.

- لكن بأية قوة يمكنني أن أقبض على جنى قادر على أن

يقضي، في رمشة عين، على جيش بأكمله؟

(*) «الجنى المقعد» هي الترجمة الحرفية ل: دجينا نبارا.

أطلقت العجوز ضحكة عالية، وقالت:

الحيلة أقوى من أقوى الجيوش أيها الملك! أنا أشفق لأملك.
سأقول لك أيضا كيف تفعل كي تأسر دجينا نبارا. أصدر الأمر
لكل القرى بأن يتم إعداد أكبر كمية ممكنة من العسل، ثم
اجعلهم يحملون هذا الشراب المسكر إلى ضفة البركة التي يأتي
الجنى للارتواء من مائها، ثم اجعلهم يفرغونه في مياهاها.
تم الأمر كما قالت. تم جمع العسل من كل جهات البلد؛
لم تُهمل أية خلية نحل وأي تجويف في جذوع الشجر. عندما
جُمع كل العسل، أُفرغ في مياه البركة، حيث تَحْمَر. وعلى الفور
أصبحت البركة مثل بحيرة من نبيذ العسل.

عندما أقبل اليوم الموعد، أتى دجينا نبارا، كالمعتاد، كي
يستحم في البركة ويرتوي من مائها. فوجئ عندما لاحظ أن
لون مياه البحيرة قد تغير. أخذ منه جرعة. وجدها معسولة
ولذيذة. فأسر لنفسه: لا شك أن الله قد قرر أن يغير هذا الماء
كي يحسّن من مذاقه. آنذاك شرب منه ماء كثيرا. وفي الأخير
سقط، سكرانا تماما، بتثاقل على الأرض، وانخرط في نوم
عميق. كان الملك قد أرسل ثلاثة صيادين كي يَكْمُنوا بالقرب من
البركة، أمرا إياهم بأن يأسروا الجنى، دون أن يسيئوا معاملته.
عندما رأوه نائما نومته العميقة، أحاطوا به وانتظروا هادئين
استيقاظه، متجنبين إزعاجه.

عندما فتح دجينا نبارا عينيه، وجد نفسه محاطا، عن قرب،
بثلاثة من أبناء آدم، لكنهم، على ما يبدو، يحرصون على عدم
إصابته بأي أذى.

آنذاك سألهم: من تكونون وما الذي تريدونه مني؟ أنا أرى أنكم لا تريدون بي شراً، وإلا لكنتم قيدتموني أثناء نومي.

أخذ الكلمة زعيم الصيادين، وقال:

ملكنا وريثٌ واحد يحبّه حبا كبيرا، لكن الأمير مريض ولم يعد يستطيع الحركة منذ سبع سنوات. وقد جاب ملكنا الأرض والسماء معا بحثا عن معالج يكون قادرا على المساعدة في شفاء ابنه وإعادة السرور إلى قلبه، لكن دون جدوى.

والحال، أن امرأة عجوزا شيباء ومشوهة تماما، أتت، منذ أيام، وحدثته عنك. قالت له إنك تعرف كل ما يمكن أن يكون معروفا على الأرض، وأنتك الوحيد الذي تستطيع أن تساعد في شفاء هذا الطفل الذي يُعتبر أمل شعب بأكمله. ولهذا السبب أسكرناك، كي نستطيع الحديث إليك. إن الملك يرجوك بقوة أن تذهب معنا لتعالج ولده. سيعطيك ما تشاء وسيبقى ممتنا لك إلى الأبد.

شرع دجينا نبارا يضحك. بعد ذلك نهض بروية وتبع الصيادين من دون أن يسبب أية مشاكل.

في أثناء سيرهم، التقوا بثلاثة رجال. كان الأولان باحثين عن الذهب. كانا آخذين في مطالبة الرجل الثالث، وهو منجم يتكئ على جذع شجرة ضخمة، أن يدلّهما، اعتمادا على فنّه، على المكان الذي يمكن أن يكون فيه منجم للذهب. نظر دجينا نبارا للرجال الثلاثة، فحيّاهم وردوا عليه التّحية. وعندما ابتعد عنهم، شرع يضحك للمرّة الثانية.

أخيرا وصل الرفقاء الأربعة، دون مشاكل، إلى باب القصر.

دخلوا الساحة، ثم ولجوا مسكن الملك الذي استقبلهم في غرفة نومه. وعندما اجتازوا عتبة باب الغرفة، شرع دجينا نبارا يضحك للمرة الثالثة. ثم يعر الملكُ اعتباراً لضحكه، لأنه كان مهموما بعلاج ولده المحبوب، وارث حكمه. حيا الملك دجينا نبارا، معذترا له عن الطريقة التي استعملها كي يستقدمه، والتي يجد لها تبريرا في الألم العميق الذي يستشعره. قبل الجنى عذر الملك ثم قال:

أيها الملك! بإمكانني بالفعل أن أساعد في شفاء ولدك، وبطريقة أسرع مما تتصور، لكن ليس قبل أن تتحقق ثلاثة شروط من طرف ثلاثة أشخاص: وزيرك الأول وزوجتك المفضلة وأنت نفسك.

- ما تلك الشروط؟ سأل الملك.

- على كل واحد منكم، أنتم الثلاثة، أن يعترف، وسط جلسة عامة ومن دون أدنى تمنع، بحقيقة واقعية لها اتصال برغبة حميمية، لا يتم التعبير عنها، بصفة عامة، بصوت عالٍ وواضح. ستكون جديتك مثل شعاع من ضوء، وستجعل الظلمة التي تحول دون شفاء الأمير تنقشع.

التفت الملك إلى وزيره:

أنت أيها الوزير، يا من يخدمنا بكل إخلاص! الكلمة لك. أدار الوزير، منزعجا، بصره يمنا ويسرة، وفي الأخير أطرقت ولم يجب.

قال الملك: لا تخف. ارفع رأسك وعبر بجدية عن الرغبات التي لم تجرؤ أبدا على إبدائها بصوت مرتفع.

استمر الوزير في ترده، فألح الملك:

أنا أعدك وعد رجال أنه، مهما يكن جنوح الرغبة التي ستعبر عنها، ستبقى حظوتك عندي هي نفسها ولن أحقد عليك. آنذاك رفع الوزير رأسه وقال:

أيها الملك الشهم الذي أنا مدين له بكل شيء، باستثناء الحياة التي وهبنيها الله بواسطة من أبوي، أنا مستعد للتضحية بحياتي من أجل إنقاذ حياة ابنك، لأنك قد مكنتني من أن أحتل المرتبة الثانية في مملكتك. فسلطتي تعلو الجميع باستثناء شخصكم. أنت توافق على كل قراراتي، كأنني أنطق بقراراتك. لكن، وعلى الرغم من كل هذا، فإنني في قرارة قلبي، كنت أفضل أن أكون في مكانك وأن أراك في مكاني. هأنذا قد قلت الحقيقة! إن حلم كل من يحتل المرتبة الثانية، هو أن يحتل المرتبة الأولى. انحنى دجينا نبارا وضرب في كفه قائلاً: لقد قلت الحقيقة! فهذه بالفعل من الحقائق التي يُفكر فيها بصوت خافت، ولا يتم الإعراب عنها بصوت عال.

أتى دور زوجة الملك كي تتكلم. قالت:

زوجي، بالفعل، ملك عظيم، وأنا زوجته المفضلة. وهو غني وكريم، ويغمرني بكل ثمين: ذهب وفضة وأحجار كريمة وملابس فاخرة وأكل لذيذ.. لا شيء ينقصني. لكنني لست، مع ذلك، سعيدة للغاية. فأنا أبقي، في مجال الحب، على جوعي. صحيح أن زوجي الذي يبلغ من العمر سبعين سنة، يخصص لي القوة الضئيلة التي بقيت له، لكن ذلك لا يكفي لتهدئة ناري. إن قلبي البالغ من العمر خمسا وعشرين سنة، ليفضل

زوجا شاباً قوياً، وإن لم يكن سوى سائس أو فلاح متواضع، على زوج ثري جعلت السنون قواه تخور. أنا أفضل الزوج الشاب على كل ذهب الدنيا وفضتها. فالزوجة تفضل دائماً أن تتقاسم ليالي رقيقة مع رفيق شاب، حتى إن قضت اليوم كله تنقي الأرض، معه، من حجر «لوغان» (*) عقيم، على أن تحيا نهارات باذخة متلوثة بليالٍ خالية من العناق المحتدم الذي يهدئ جسدها ويسكن روحها.

صاح دجينا نبارا متعجبا: ليس ثمة من حقيقة أوضح من هذه! أنت فعلا أكثر نساء زمانك جدية!

بعد ذلك التفت إلى الملك نفسه، وقال له:

أيها الملك، لقد كان وزيرك وزوجتك صادقين. فهل ستعترف أنت أيضا برغبتك الحميمية التي تخبئها في قلبك وتود ألا يطلع عليها أحد؟

- نعم، بالتأكيد، قال الملك. فأنا، كما تعلمون، أكبر حاكم لكل الأراضي التي تقع بين النهرين. أملك محلات مملوءة ذهباً وفضة، وخزائن مترعة بكل ما يُمكن الجسد من بذخ شبيه ببذخ الجنة. إنني أملك من الثروة أكثر مما أنا في حاجة إلى إنفاقه. أنا أقدم هدايا وأقبل أخرى. لكن، وعلى الرغم من كل هذا، فإن ما يروقني أكثر من أي شيء آخر في الدنيا، هو أن أرى شخصا، وإن كان بائسا يمد يده نحوي ويقول لي: خذ! هذه هدية لك. وما يسيئني أكثر ويقلقني، هو أن أرى شخصا يمد كفه نحوي كي يقول لي: أعطني شيئا.

(*) لوغان: حقل.

- قلت الحقيقة، قال دجينا نبارا. فقد قال كل الحكماء، بالفعل، إن الملك الذي يعطي هو ملك خارق للعادة، لأن المعروف عن الملوك هو حبهم لأن يأخذوا أكثر من حبهم لأن يعطوا. ثم أضاف قائلا:

لقد اعترفتم، ثلاثكم، وبشجاعة، بحقيقة دفيئة يصعب الاعتراف بها. لقد تحققت الشروط إذن، وسأقول لكم كيف تعالجون الأمير. أيها الملك، هل ترى الدجاجة السوداء التي توجد خلف سريرك مستعدة لوضع بيضتها؟ اذبحها واجعل ابنك يأكلها. بعد ذلك، أخف تحت الأرض العظام واللحم الذي لم يستهلك. بمجرد أن تدفن البقايا سيشفى ابنك.

نفذ الملك الوصفة. على الفور استعاد الابن قدرته على تحريك أطرافه فقفز خارج سريره. كانت فرحة الجميع عظيمة. أقام الشعب كله احتفالا.

أراد الملك أن يقدم هدايا كثيرة لدجينا نبارا، لكن هذا الأخير رفض. وعندما ودّع الجميع وهم بمغادرة القصر، اقترب منه أحد الصيادين؛ وكان قد حضر منذ البداية كل ما حدث، فأمسك بكفه قائلا:

أيها الجنّي الطافح علما وحكمة؛ منذ أن التقينا، ضحكّت ثلاث مرات، هلا أخبرتني لماذا؟

أجاب دجينا نبارا:

- لقد ضحكّت من غرور البشر، وبالاخص من الثقة التي يؤكد الناس بها أمورا لا علم لهم، في الحقيقة، بها.

قالوا للملك إنني أعرف كل شيء، والحال أنني لا أعرف حتى

أن العسل المذاب في الماء يمكنه أن يسكرني ويجعلني عاجزا؛ وإلا لكنت تحاشيت فخكم. لهذا ضحكت ضحكتي الأولى.

وضحكت في المرة الثانية، لأن الرجل الذي يعتبر نفسه متنبئا ويبحث عن منجم للذهب، كان جالسا تحت شجرة جذورها مغطوسة في أشسع منجم للذهب يوجد الآن في أحضان الأرض.

وأخيرا، عند دخولنا إلى غرفة الملك، ضحكت للمرة الثالثة لأن الملك صرف ثروة كاملة كي يعالج ابنه، في الوقت الذي كان العلاج ملك يديه، فقط خلف سريره! آنذاك، وقبل أن يفتح فم أي واحد من الحضور كي يطرح على الجني الطيب سؤالا آخر، تحول دجينا نبارا إلى ضوء وحلق مثل نجمة هابوية، مختفيا في الفضاء، دون أن يستطيع أحد أن يقول ما إذا كان قد ذهب فوق أو أسفل!

تلك هي فضائل الخضوع الجدي وسلطة الحقيقة المحررة! فدجينا نبارا لم يكتف بأن يتجنب الغرور بالسّمة التي صُنعت له، مفضلا قول الحقيقة عن نفسه، بل أضاف إلى ذلك قيادة شخوص الحكاية الثلاثة إلى الاعتراف بأسرارهم الحميمية، محررا بذلك قلوبهم، وهو شرط علاج الأمير الطفل.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

حفنة رمل

،حكاية فولانية،

كان يعيش في إحدى القرى، رجل غني جدا، إلى درجة أنه لم يكن يعرف ما يفعله بماله. وكان هذا الرجل يحب أن يقف في شرفة منزله، فلاحظ أن رجلا فقيرا يمر كل صباح، قدام بابه: كان يتوجه إلى الدغل كي يجمع الحطب ويبيعه ليعول عائلته. ذات يوم، قال الرجل الغني للفقير: أراك كل يوم تمر أمام بابي، فأشفق لحالك. ومن الآن فصاعدا، تعال كل صباح كي تطلب مني المال الضروري لمصاريف عائلتك؛ وبذلك لن تعود في حاجة إلى الذهاب إلى الدغل لجمع الحطب. صباح اليوم التالي، أتى جامع الحطب ووقف أمام الثري وحياه ومكث منتظرا. كم يلزمك لمصاريف يومك؟ سأل الغني وهو يدخل يده في جيبه.

- أعطني حفنة رمل. ستكون كافية. أجاب الفقير. وعلى الرغم من اندهاش الغني من هذا الطلب، انحنى وجمع حفنة رمل من الأرض وسلمها له. شكره الفقير كما لو كان قد تسلم منه حفنة من معدن ثمين، ثم، وكعادته، انطلق لعمله. صباح اليوم التالي، وقف الرجل الفقير من جديد أمام باب الغني وطلب منه، مرة ثانية، حفنة رمل، فسلمها الثري له. استمرت الأمور على هذه الحال لبضعة أشهر، من دون أن تطرأ أي مشكلة. وذات صباح، عندما أقبل بائع الحطب ليطلب حفنة رمله، خاطبه الثري بسخرية:

- اسمع يا صديقي! إن كنت تريد حفنة رملك، كلف نفسك
مجهود الانحناء واجمعها من الأرض بنفسك. فأنت في النهاية
تتعبني!

عندما سمع جامع الخطب هذه الكلمات، انفجر ضاحكا:
آه أيها الرجل الغني! ها أنت قد تعبت من مجرد إعطائي
حفنة رمل لا تساوي سوى مجهود الانحناء لجمعها. ماذا كان
سيحصل لو كنت آتي إليك كل صباح كي أطلب منك قطعة
نقدية؟

دعني إذن أحصل أنا نفسي على ما أعيى به عائلتي؛ فعرق
جبيني لن يتضايق أبدا مما يقدمه لي كل يوم، لكن أي شيء آخر
غيره سينزعج من ذلك عاجلا أو آجلا.
تنتهي كلمة «خُدْ» دائما بإتعاَب من ينطق بها. فعلى الرغم
من أن هذه الكلمة لا وزن لها، فإنها تصبح ثقيلة إن قيلت لمدة
طويلة.

الملك والرجل الأحمق

«حكاية فولانية»

في أعماق الغابة، كان يبسط حكمه ملكٌ طاغية يسمى هيدايالا. كل صباح، كان خبث هذا الملك يُنتج ما به تغلي أدمغة الرعايا من القلق.

وعلى الرغم من نصائح مستشاري هيدايالا، فإنه كان قد قرر بصفة نهائية، مستسلما لعناده، أن يعذب كل من أصبح له صيت طيب في البلد. كان حاجباه مقطبين على الدوام، ولم يكن يرفع يده إلا كي يضرب، ولم يكن يفتح فمه إلا ليسب. كان يطلب من البعض أن يبتلعوا ألسنة لهب، ومن آخرين أن يلغوا مديّة قاطعة، وأمورا أخرى لا يعلمها إلا الله!

وكان يعيش بالمنطقة رجل معروف بمعرفته الغزيرة. كان الناس يلتمسون الاستفادة من حكمته الكبيرة. وهذا كان كافيا كي يرغب هيدايالا في إزعاجه، فطلبه للمثول أمامه. اجتمع حشد كبير من الناس، يوم اللقاء، حريص كل واحد على أن يكون حاضرا لمعرفة ما سيحصل.

قال الملك:

لقد سمعت أنك تدّعي معرفة كل شيء.

- سيدي، أجاب الحكيم، أنا لم أدّع أبدا أنني أعرف كل شيء. إن ما أعرفه ليس سوى قطرة، في حين أن ما لا أعرفه محيط شاسع.

- أه! أه! أنت إذن لا تعرف أي شيء، ومع ذلك تتبجح وسط

تلامذتك المزعومين! إذن، فسيكون عليك أن تغطس في قطرة معرفتك الصغيرة كي تعثر فيها على الجواب عن هذا السؤال: عندما نترك مدقا يسقط في جرن فارغ، عن أي شيء سيصدر الدوي الذي سينبعث: عن المدق أم عن الجرن؟ فكر جيدا وأجب، وإلا فإنني سأشנקك على الفور.

ظل الحكيم صامتا للحظة، ثم قال:

يصدر الدوي عنهما معا.

- لكن ما هي نسبة الكثافة؟ سأل الملك من جديد.

ظل الحكيم صامتا، لا يعرف بما يجيب.

قال هيدايالا من جديد:

بسرعة، أيها الحكيم الشهير الذي تتجاوز معرفته مدقا

وجرنا!

في هذه اللحظة، أزاح رجل أحرق الجمهور من طريقه وتقدم

نحو هيدايالا.

أيها الملك! صاح. لا يستطيع أحد لم يسبق له أن أصيب

بارتجاج دماغي أن يطرح مثل هذا السؤال، ومن يجيب عنه،

يجب أن يكون ذا عقل مخبول. وأنا من سيشبع فضولك. آنذاك

رفع ذراعه ووجه للملك صفعه كانت من القوة بحيث سمعها كل

من كان في القرية. ثم انفجر ضاحكا: ماذا ترى أيها الملك! عن

كفي أم عن خدك صدر الدوي، وبأية نسبة؟

غالبا ما يلزم أحرق لتربية طاغية.

درس الخضوع

«حكاية صوفيّة فولانية»

كان ناسك اسمه سولي يعيش، في مملكة ساولي، داخل مغارة تقع على خاصرة جبل تتناوب عليه الشمس الحارقة والرياح القوية والأمطار العاصفة. لم يكن يقات إلا من الفواكه الوحشية والعسل الذهبى، ولم يكن يشرب إلا ماء النبع، ولا يخرج للتنزه في الغابة إلا عندما يكون النحل يجني لقاح الزهور.

ذات يوم غامر راع، معتاد على لعق عرق الزهور الحلو والفواكه الوحشية، بالذهاب إلى الجبل، بعيداً عن الأماكن التي اعتاد الذهاب إليها. وثمة لمح الناسك. أراد الاقتراب منه ومحدثته، لكن الرجل الوحيداني فرّ منه كأن حيوانات متوحشة تهدده. استولى الفضول على الراعي فانطلق يعدو وراءه. قاما، بين الأشجار والحجارة، بسباق جنوني وغير منظم، كأنهما جردان يطارد أحدهما الآخر. لم يجد الناسك، في الأخير بُدّاً من الالتجاء إلى مغارته. دلف الراعي إليها وراءه، لكن المغارة كانت شاسعة وممراتها الداخلية يفضي بعضها إلى بعض، إذ لم يكن بها مكان يمنع المار من الاستمرار في سيره.

تعب الراعي من العدو فتوقف. وعندما استعاد أنفاسه خرج من المغارة وأخذ طريق العودة.

توجه رأساً إلى الملك سايدو، زعيم القطر ونائب ملك صاولي الأعظم، فقال له:

سيدي! لقد رأيت بأم عيني، في المغارة المقدسة، رجلا يلبس أوراقا وأليافا نباتية. وقد حاولت أن أعرف من يكون فاقترت منه لأكلمه، لكنه فرمني كما يفر حمل من ضبع، فعجزت عن القبض عليه. لا شك في أن هذا الرجل ناسك، وإلا فإنه لن يكون إلا إنسانا مخبولا أو جنيا شريرا.

أثير فضول الملك فنأدى على حامل سيفه وقائد الحرب المسؤول عن الجياد، وأمرهما قائلًا: اجمعا فرقنا العسكرية واذهبوا لتحاصروا الجبل الذي سيقودكم هذا الراعي إليه. في إحدى مغارات هذا الجبل المقدسة يعيش رجل، إن لم يكن جنيا. عليكم أن تأتونني به مهما يكن الثمن. وإلا فإنني سأذبحكم! هيا!

طوّق الجنود الجبل وقطعوا كل الطرق التي تؤدي إليه، ثم أخذوا يصعدون. نادى زعيمهم على الناسك رافعا صوته نحوه بأن الملك يريد مقابله. عندما رأى الوجداني أنه قد وقع في الفخ، خرج من مخبئه وقبل أن يمشي مع الجنود الذين أخذوا طريق قصر سايدو.

بمجرد أن أدخل الناسك على الملك، استولى على هذا الأخير، عندما رآه، شعور غير قابل للتفسير. اجتاح قلبه شعور عميق بالاحترام الديني. سأله بلطف:

ما اسمك؟

- اسمي سولي.

- ماذا تفعل بمغارة الجبل؟

- أتدرب فيها على كيفية التحكم في نفسي، وأتعلم.

- ولماذا تضر من مماثلتك من الناس كأنهم مرض مزعج

مقرف؟

- لا أستطيع أن أجيب عن سؤالك، أيها الملك، لأنك توجد على قمة جبل، بينما أوجد أنا في عمق وادٍ منخفض. لن يصلك كلامي إلا على شكل صدى متلاش لأصوات بعيدة. المسافة التي تفصل بيننا كبيرة للغاية.

- وما الذي يجب القيام به كي تنعدم هذه المسافة فيصل كلامك حتى يصير ملك روجي؟

- عليك أن تصبح مريدي النجيب.

- أنا مستعد للاستماع إلى تعليماتك. لكن ما الذي علي أن أقوم به كي أصير كذلك؟

- أن تنزل من عرشك وأن تغير ملابسك الجميلة بأسمال وأن تنسى ثروتك الكبيرة. وكي لا تندم البتة على وضعيتك، عليك أن تعتبر كأن سوء أصابك وأن تقول لنفسك إنه مهما تكن قسوة المحنة التي أصابتك من فورك، فإن ثمة دائما شقاء أفضح جنبك الله إياه فضلا منه ومنة.

نزل الملك، من دون أن يضيف كلمة واحدة، من على عرشه الجميل، وسلم قيادة مملكته لأخيه وتجرد من ثيابه الفاخرة وتبع سولي. غادرا المدينة معا، وتسلقا الجبل ثم ولجا المغارة.

وهناك، بعيدا عن الحركة وعن دعة المدينة ومنتعة القيادة، تعلم الملك سايدو التأمل تحت قيادة سولي. بعد شهر من التمارين، لاحظ أن حاله قد أصبحت سلفا أحسن مما كانت. واصل مجهوده دون خور فاستطاع، أخيرا، أن يجتاز الحواجز

التي تفصل بين الكائنات. استطاع أن يدرك ويتيقن من تفاهة وضعيات وطموحات البشر في هذا العالم الزائل. استطاع أن يلج سراً الوجود. علم أن وجود كل مخلوق، من الحجر الجامد إلى الإنسان الذي استطاع فكره أن ينتج كل تلك العجائب، ضروري ولا يعوض. تعلم كيف يحترم كل الكائنات الحية، النشيطة وغير النشيطة، التي تعمر مملكات الطبيعة الثلاث. تطور لديه هذا الوعي بعمق إلى درجة أنه لم يعد يرى على هذه الأرض شيئاً واحداً قيمته أقل من قيمة شخصه هو.

قال سولي، بعد أن رأى التطور الكبير الذي حققه مريده: سايدو، أنا سعيد لأنني ألاحظ أنك ما عدت ذلك الملك المتعالي الذي يعتبر بقية الناس مجرد ذرات رمل توطأ بالأقدام. أنت الآن تعرف أن كل شيء موجود يحتل مكاناً فريداً لا يمكن لغيره أن يحتله، وأن كل شيء موجهٌ ويمشي رويداً رويداً نحو الخير الأسمى. لقد ولّجت هذه الحقيقة - أنا أعرف ذلك - كينونتك وتنظف قلبك تماماً من العُجب إلى درجة أنك لم تعد ترى أي شيء أقل منك قيمة.

قال سايدو:

- هذا صحيح. أنا أعتبر نفسي اليوم أقل المخلوقات.
- وإذن، قبل أن أفك لك العقْد التي تلف أسرار الخير الأسمى، عليك الآن أن تذهب لتجوب الدنيا ولتحاول اكتشاف كائن أو شيء تُقدّر أن قيمته أدنى من قيمتك.

ودّع سايدو معلمه وركب كل مجاري مياه الأرض وتسلق الجبال والتلال والهضاب، وزار القرى والبلدات وقصور الملوك

ومفارات اللصوص، واستشار المسنين، وسبر بعينه السماوات، وتملى بفكره المجرات والنجوم، وتأمل بانتباه ما يدفع به المد نحو الأرض وما يسحبه الجزر نحو أعماق البحر؛ بكلمة، تأمل كل شيء، لكنه لم يرفي أي مكان أي شيء يقدّر أنه أقل قيمة منه. وكل مرة يقدّر أن شيئاً ما قد يكون متواضعاً، يعود ليرى فيه فضيلة أو خاصية هو نفسه محروم منها.

في النهاية، ويعد أن اقتنع بالفعل بأن موقعه يقع في آخر السلم، قرر أن يعود كي يقول لمعلمه إنه لم يعثر، فوق هذه الأرض، على كائن واحد أو شيء واحد أدنى منه قيمة.

في طريق عودته، أحس في لحظة أنه، كما يقال، في حاجة «للذهاب إلى الدغل» كي يقضي حاجة طبيعية. دخل إلى غابة صغيرة. عندما شرع يفحص المكان، اكتشف فضلات له جافة كان قد وضعها أثناء ذهابه لأول مرة، فقال مبتهجا: أخيراً عثرت على ما كنت أبحث عنه، فأنا، من دون شك، أساوي، على الأقل، أكثر من قيمة فضلاتي الشخصية!

مد كفه كي يمسك بالكويرة الجافة ويحملها ليربها لمعلمه، لكنه سمع فجأة، مندهشاً، أصواتاً صغيرة متعددة تنبعث من الكويرة! كانت كل ذرة من هذه المادة التافهة تتأوه وتتوسل إليه: من فضلك، أنت أيها الإنسان، جنبنا كل اتصال مشؤوم! كنا في الأصل، وقد خرجنا من زهور فواحة، ذرات معطرة. في أول اتصال لنا بك أصبحنا دقيقاً، فاقدين بذلك خاصيتنا الأساسية المتمثلة في أن نتوالد كي نؤبد نوعنا. وفي اتصالنا الثاني بك، تحولنا إلى مواد غذائية. وهنا علينا أن نعترف بأننا كنا أصبحنا

ذَوَاتِ مَنَافِعَ مَشْهُيَّةٍ وَمَغْذِيَّةٍ. لَكِن عِنْد اتِّصَالِنَا الثَّالِثَ بِكَ،
أَدْخَلْتُنَا فِيكَ، وَمِنْ ثَمَّ خَرَجْنَا لِلْوُجُودِ ثَانِيَةً فِي حَالَةٍ مَزْرِيَّةٍ!
ظَلَلْنَا أَيَّامَ طَوِيلَةٍ مَادَّةَ مَنْفَرَةٍ نُوْذِي أَنْوَفَ الْمَارَةِ وَحَنَاجِرِهِمْ. الْآنَ
وَقَدْ نَظَفْنَا الْهَوَاءَ وَبَيَسْتْنَا الشَّمْسَ، الْآنَ إِنْ أَخَذْتُنَا ثَانِيَةً، مَا
الْحَالُ الَّذِي سَنَصْبِحُ عَلَيْهِ؟ نَرْجُوكَ وَاصِلَ طَرِيقِكَ يَا ابْنَ آدَمَ،
وَيَا أَيُّهَا الْكَائِنُ التَّافَهُ وَالسَّامِي فِي الْآنَ نَفْسُهُ! إِنَّا نَخْشَى، إِنْ
لَمْسْتُنَا، أَنْ نَصْبِحَ هَذِهِ الْمَرَّةَ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُ لَا الْمَاءُ وَلَا الْهَوَاءُ وَلَا
النَّارُ تَطْهِيرَهُ!

عَادَ سَايِدُو، مَحْزُونًا، إِلَى مَعْلَمِهِ. رَوَى لَهُ حِكَايَتَهُ وَقَالَ مُلْخَصًا:
إِنِّي أَتَفَهُ الْكَائِنَاتِ مَا دَامَتْ قِيَمَتِي أَقْلَ حَتَّى مِنْ فَضْلَاتِي!
وَقَفَّ الرَّجُلُ النَّقْيَى. وَضَعَ كَفِيهِ عَلَى رَأْسٍ وَجْهَةً وَصَدَرَ
سَايِدُو، ثَمَّ قَالَ:

لَقَدْ أَدْرَكْتُ رُوحَكَ، يَا أَخِي فِي اللَّهِ، ذُرْوَةَ الْحِكْمَةِ. عِنْدَمَا نَحْسُ
بِأَنَّا أَكْثَرُ الْكَائِنَاتِ بؤْسًا نَكُونُ قَدْ أَدْرَكْنَا أَوْجَ الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ.
اذْهَبْ. عُدْ إِلَى بَيْتِكَ وَعَرَشِكَ. سَتَكُونُ، مِنْ الْآنَ فَصَاعِدًا،
مَحْسُوبًا مِنْ بَيْنِ الْعِدَدِ الْقَلِيلِ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا يَعْصِيهِمْ لِمَعَانٍ
تَاجِهِمْ. سَتَكُونُ «مَلَكًا مَتَعْلَمًا». لَنْ يَسُودَ النُّورُ وَالسَّلَامُ وَالْحُبُّ
وَالرَّحْمَةُ، عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا عِنْدَمَا يَكُونُ كُلُّ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ مِثْلَكَ،
مَتَعْلَمِينَ.

مَاتَرَالُ الْإِنْسَانِيَّةِ، عَلَى مَا يَبْدُو، تَنْتَظِرُ هَذَا الْيَوْمَ السَّعِيدَ.

«مقدمة أمادوهمباطي با»

تنتمي الحكاية التلقينية الكبرى «نجدو ديوال»، أم الكارثة، إلى صنفِ حكايتي «كايدارا» و«التماعة النجم الأعظم» (*)، وتحتل منه المرتبة الأولى. نعثر في هذه الحكايات الثلاث المتكاملة، على شخوص مشتركة: نعثر على حمادي - بطل «كايدارا» - في «التماعة النجم الأعظم»، بينما نجد في نجدو ديوال باغوماويل، الملقّن الأكبر في الالتماعة، في شكل طفل معجز، شاب وعجوز، في الآن نفسه.

وإذا كانت «كايدارا» تلقي الضوء على البحث عن المعرفة، مع ذكر ذهاب وإياب محفوفين بالحن وبالإشارات الخاصة، فإن «التماعة النجم الأعظم» تتحدث عن البحث عن الحكمة مع تعليم حفيد حمادي من طرف باغوماويل السلطة الملكية، أما حكاية نجدو ديوال، أم الكارثة، فنعثر فيها على صراع بين الخير والشر.

في هذه الحكاية، نجد مساراً خطياً، مثل الحكايتين الآخرين، يمتد بين نقطة بداية ونقطة نهاية، لكننا نعثر

(*) تتم الإشارة باستمرار إلى الكتب «كومين والتماعة النجم الأعظم وكايدارا» في هوامش هذا الكتاب.

ورفعاً لكل التباس، فإنني ألح على أنني لم أتعاون ولم أعط موافقتي على بعض «القراءات» وبعض «أوجه النظر» التي أنجزها أشخاص انطلقاً من حكايات سبق لي أن نشرتها، وبالأخص كايديارا. إن هذا النوع من الكتب وما ورد فيها من أفكار لا يعني، بالضرورة، إلا أصحابه. لكل بحث غرض يسعى إليه؛ لكن يُسَمَح لي أن أحذر، حبيباً، الباحثين الشباب من مغية محاولة «الصاق» بعض الحكايات الأفريقية بأنساق فكرية مسبقة أو ببعض المعايير الفكرية الغربية عنها.

فيها، عكس الحكايتين الآخرين، على تغيرات مفاجئة عديدة في الأحداث، وعلى معارك عجيبة ورحلات محفوفة بالمخاطر، تتخللها نجاحات وإخفاقات ومغامرات تتجدد باستمرار إلى أن نصل إلى النهاية السعيدة. حكاية نجدو ديوال هي صورة الحياة نفسها: فالصراع بين الخير والشر يحدث دائما حولنا كما يحدث داخل ذواتنا نفسها.

وكما هو الشأن بالنسبة إلى كل الحكايات التلقينية الفولانية، يمكن لحكاية نجدو ديوال أن تُقرأ، أو أن تُسمع، على مستويات عدة. فهي، أولا، حكاية عجيبة كبرى، قادرة على أسروتسلية الصغار والكبار معا. وهي، ثانيا، حكاية تعليمية على المستوى الأخلاقي والاجتماعي والتقليدي، حيث يُعلم، عبر شخوص وأحداث نموذجية، ما يجب أن يتصف به السلوك الإنساني النموذجي.

وهي، أخيرا، نص تلقيني عظيم، على اعتبار أنها تبرز المواقف التي يجب تقليدها أو رفضها، والفخاخ التي يجب تجنبها، والمراحل التي يجب قطعها عندما نأخذ الطريق الصعب للبحث عن اكتمال الذات.

أمام نجدو ديوال، ممثلة الشر القوية جدا، والتي تعتمد فقط على قدراتها الخاصة وعلى التحكم في بعض القوى السحرية، تبرزُ شخوص تجسد أنبل الصفات الإنسانية، وتكون قوتها الحقيقية، في النهاية، هي وضع الثقة، كل مرة، في العناية الربية أثناء مواجهة صعوبات الحياة.

وعلينا ألا ننسى أن الأساطير والحكايات والخرافات

أو لعب الأطفال، قد شكلت، باستمرار، بالنسبة لحكماء الأزمنة القديمة، وسيلة ينقلون من خلالها، وعبر القرون، بطريقة مقنّعة بهذا القدر أو ذاك، ومن خلال صور، معارف تظل، منذ أن تُتلقّى في الصُبي، محفورة في الذاكرة العميقة للفرد، كي تعود إلى الظهور، ربما، في الوقت المناسب، مُنارة بمعنى جديد. كان الشيوخ الملقّنون في بلاد بامبارا يقولون: إن كنتم تريدون إنقاذ معارف وجعلها تسافر عبر الزمن، أسروا بها للأطفال.

* * *

لحكاية نجدو ديوال فائدة خاصة، من حيث كونها تقدم، منذ البداية، مشكلة أصول الفولانيين. فهي تصف لنا البلد الرائع هيلي ويويو حيث قد يكون عاش، منذ أزمنة سحيقة، الفولانيون، سعاداء متمتعين بكل الخيرات، في مأمن من كل شر، بل حتى من الموت نفسه. بعد ذلك أثاروا الغضب الإلهي بسلوكهم السيئ وبجحودهم، فقرر جينو أن يعاقبهم فخلق مخلوقا رهيبا وشريرا، هو نجدو ديوال المشعوذة العظمى، التي أصابت تمائمها سكان هيلي ويويو التعساء بالكوارث التي اضطر الفولانيون، كي يتقوها، إلى الفرار عبر ربوع الدنيا.

وحدها الكائنات الطاهرة «با - وامندي وزوجته وكوبو، الخروف المعجز، والمعلم سيري ولاحقا باغوماويل الطفل المبشّر به، ستستطيع مقاومة المشعوذة الرهيبة والانتصار عليها، في النهاية، بفضل عون جينو.

وتشير هذه الأسطورة التي نتحدث عن الأصول، بطريقة عرضها، مختلف الأسئلة التي تناولناها في الملحق، من خلال

الهامشين ١ و١٥، خصوصا ما تعلق منها بتأثير موروث بلاد ماندي على بعض الأساطير الفولانية.

وهناك فائدة أخرى لهذه الحكاية: نعثر فيها، مع بعض التنويعات، تقريبا على نفس حبكة الحكاية الغربية الأبيهم الصغير (*) لكن مع غنى أكثر في التفاصيل وفي التحولات المفاجئة في مسار الأحداث. كما نعثر فيها أيضا على الإخوة السبعة المتسمين ببعض الغباء، وعلى الفتى الصغير الماكرو الماهر (يتعلق الأمر في حكاية نجدو ديوال بباغوماويل ابن أختهم) الذي يواجه، بدلا من الغول (في الأبيهم الصغير)، نجدو ديوال مصاصة الدماء. ومن الغريب، فوق ذلك، أن نجدو ديوال لن تموت إلا بالطريقة التي يموت بها أمثالها من مصاصي الدماء

(*) ملخص لحكاية الأبيهم الصغير: نال الفقر والبؤس من الحطاب وزوجته، فقررا أن يضيئا أبناءهما السبعة في الغابة، لأنهما لم يعودا يجدان ما يطعمانهم به. لحسن الحظ، كان أصغر أطفالهما والمكنى «الأبيهم الصغير»، بسبب قصر قامته، ما يزال مستيقظا فسمع محادثتهما. وعندما كانا متوجهين بأطفالهما إلى الغابة، عمد «الأبيهم الصغير» إلى تعليم الطريق بحصيات بيضاء صغيرة، اعتمد عليها في إعادة إخوته إلى المنزل. فرح الأبوان بعودة الأطفال، لأن سيد البلد كان قد سدد لثوه للحطاب دينا كان في ذمته. لكن لحظات السعادة لم تدم إلا قليلا. قرر الأبوان من جديد إضاعة أبنائهما في الغابة، فافتاداهم عامدين إلى منع الأبيهم الصغير من جمع الحصيات. وجد الأطفال أنفسهم، ثانية، ضائعين في الغابة، فعثروا على كوخ حذرتهن المرأة التي تسكنه من أن يلجوه لأن زوجها غول وسيأكلهم. لكن الأطفال فضلوا مواجهة الغول على مواجهة ذئاب الغابة. أدخلتهم زوجة الغول وأخفهم في سرير، لكن زوجها الغول سرعان ما اكتشف مخبأهم. عندئذ أقعته زوجته بأن يؤجل وليمته إلى صباح الغد، فنام الأطفال. بعد ذلك عمد الأبيهم الصغير إلى تغيير تيجان البنات السبع، بنات الغول، بطاقيات إخوته، تحسبا لما قد يقدم عليه الغول أثناء نومهم. وبالفعل، دخل الغول تحت جناح الظلام إلى الغرفة وذبح البنات السبع، ظانا أنه يذبح الإخوة السبعة. آنذاك فر الأطفال وطاردتهم الغول بعد أن ارتدى حذاءه. وعندما تعب، جلس على الصخرة التي يختبئ تحتها الأطفال. أقتع الأبيهم الصغير إخوته بالعودة إلى بيت أبويهم، أما هو فقد ارتدى حذاء الغول وعاد في اتجاه كوخه. قال لزوجته الغول إن قطاع طرق أسروا زوجها وهم يطالبون بفدية كبيرة وأن الغول يطلب منها كل ثروته. وكي يقنعها أراها الحذاء قاتلا إن الغول هو من سلمه إياها كي يصل بسرعة. عندما حصل على ما أراد، عاد إلى منزل أبويه اللذين استقبلاه بترحيب وفرح (المترجم).

في الحكايات الغربية، كما سنرى في نهاية الحكاية. فكيف لا نطرح، إذن، بعض الأسئلة حول أصل بعض الأساطير؟

* * *

نجدو ديوال - مثل كايدارا والتماعة النجم الأعظم - تعد حكاية من نوع «جانتول» وهو جمع كلمة «جانتى»، وتعني حكاية طويلة جدا تقوم على شخوص آدمية أو عجائبية، ذات بعد تربوي أو تلقيني، وغالبا ما يلتقي فيها البعدان معا، كما يقول، في البداية، راوي حكاية كايدارا: «أنا، في الآن ذاته، تافه وذو جدوى وبناء».

يُنشد الجانتول دائما، إما عبر أشعار ذات إيقاع سريع (ميرجي: شعر)، أو نثرا (فولفولدي ماوندي : طريقة كلام الفولانين العظمى). نسخة نجدو ديوال المحكية هنا نثرا، على الرغم من أنها تستعمل «ميرجي» مرارا، فإنها، عكس كايدارا، أكثر اكتمالا وأكثر ثراء بالتفاصيل، من هذه الأخيرة. ولهذا السبب اخترنا هذه النسخة كي نقدمها للجمهور.

في الجانتول، يكون على الحكاء التقليدي ألا يغير أي شيء من حبكة الحكاية (يعني: تطور الأحداث ومراحلها والرموز والأحداث الدالة). غير أن بإمكانه أن يغنيها ببعض التلوينات حول نقط ثانوية، وأن يجمّلها وأن يفصل أو يختصر في بعض الأجزاء وفق قدرة استيعاب مستمعيه. يكون همّ الحكاء، قبل أي شيء آخر، أن يثير اهتمام من يحيطون به، وأن يعمل بالخصوص، على تجنب إصابتهم بالضجر. على الحكاية أن تكون دائما ممتعة عند سماعها، كما أن عليها، في بعض

اللحظات، أن تجعل أكثر الناس صرامة يتسمون. فحكاية من دون ابتسام هي مثل طعام بلا ملح.

إن النسخة المقدمة هنا، لم تحترم، بصرامة، حبكة الحكاية كما يجب، فقط، بل احترمت، أيضا، تفاصيلها، كما نُقِلت في الموروث نثرا. إننا لم نسمح لأنفسنا، في بعض المواضع، إلا بالإتيان ببعض التدقيقات، ذات الطابع الشكلي الصرف، كي نسهل الفهم على القارئ، وتحديدًا كي ندقق بعض الترابطات الزمنية، أو كي نظهر العلاقة بين السبب والمسبب، وهي أمور لا يحفل بها المستمع التقليدي، الذي قليلا ما يهتم بمنطق الأشياء أو بتعاقبها الزمني.

جرت العادة بين الحكّائين التقليديين المؤهلين، أن يقطعوا حكاياتهم كي يذكروا عددا من التفاصيل التعليمية. وهكذا تصبح كل شجرة وكل حيوان مادة لتعليم تطبيقي ورمزي، في الآن نفسه. أما نحن فلم نرد أن نقطع إيقاع الحكاية باستطرادات من هذا النوع، هذا فضلا عن أن النص نفسه يحوي بعضا من ذلك، خصوصا في بدايته. كما أننا أشرنا في الهوامش إلى كل الأمور التي أردنا رفعها إلى علم القارئ.

وسيعثر القارئ (في هوامش مرقمة) على الإشارات ذات الطابع اللغوي أو التي أردنا بها تسهيل فهم النص، كما أننا قد سقنا في الملحق التفصيلات الرمزية الخاصة بالموروث الأفريقي بصفة عامة.

* * *

تقوم الحكاية - بعد جزء أول خُصص لوصف البلد الأسطوري

هيلي ويويو - على محورين رئيسيين:

يتحدث المحور الأول عن البحث الذي قام به با - وامندي،
جدُّ باغوماويل. وبا - وامندي هذا، رجل بسيط وطيب وخير
تجاه كل شيء حي في هذا الوجود. فهو يجسد، رفقة زوجته
ويلوري، كل الفضائل الإنسانية. فهو، كي يهيئ لمجيء حفيده
المنتظر، والذي سيكون الوحيد القادر على مواجهة نجدو ديوال
الخطيرة، لن يتردد في القيام ببحث محفوف بالمخاطر، سيقوده
إلى قلب بلد المشعوذة العظمى. هو، بروحه البريئة والواثقة،
لا يهتم البتة بما سيحصل له. كما أن جينو سيساعده في كل
خطوة من خطواته، وستكون الطبيعة كلها رهن إشارته.

سيتوجه با - وامندي، في البداية، مصحوبا بخروف مُعجز،
كي يطلق سراح سيري، وهو رجل ذوقدرات خارقة، تأسره نجدو
ديوال. بعد ذلك، سيقومان معا، رفقة الخروف، برحلة مثيرة،
كي يخلصا إلهما تستعبده نجدو ديوال، ويشكل منبع قدرتها
السحرية. سيسمح نصرهم هذا بحل العُقد الأولى للقدر
الشريرة لـ «الكارثية» والتمهيد لما سيقوم به باغوماويل لاحقا.

يعد باغوماويل نموذج المطلع على الأسرار. فالطرق التي
يتصرف بها ليست في متناول البشر. في «التماعة النجم
الأعظم»، يرمز إلى المعرفة: فهو المعلم والمربي والملقن. وهو
يتجسد في حكاية نجدو ديوال هذه، في شكل طفل يأتي
لنجدة الشعب الفولاني وتخليصه من شر نجدو ديوال. وما
يقوم به، لا يفعله استجابة لإرادة شخصية، بل يقوم به باسم

القدرة والمهمة اللتين تلقاهما من جينو، في حين أن نجدو ديوال تتصرف، من جهتها، دائما، كي تشبع رغباتها الشخصية، بانية قدراتها على أسر واستعباد قوى وسيطة (آلهة أو عفاريت) من دون الرجوع البتة إلى جينو، الخالق الأسمى. فهي لن تلتفت إلى جينو إلا في آخر الحكاية، عندما ستقلب، أخيرا نحوه - وقد أشرفت على الانهزام وجُردت من كل شيء وأصبحت تعيسة - كي تلمس عونه، لكن دائما بنية الإيذاء.

* * *

يُعتَبَر كلُ جانتول، في المجتمع التقليدي، بمنزلة كتاب ينشده المعلم ويلق عليه. أما الشاب، فيجب عليه أن يستمع وأن يتأثر بما يسمع وأن يحفظ الحكاية وأن يعمل، ما استطاع، على أن يعيشها مع نفسه. وهو يُنصَح (كما هو الشأن في كايدارا) بأن يعود دون انقطاع إلى الحكاية خلال اللحظات الفاصلة في حياته. فبالموازاة مع نضجه الداخلي، سيتغير فهمه وسيعثر، في الحكاية، على إشارات جديدة. وكل امتحان يجتازه في حياته، سيجعله، في الغالب، يفهم الدلالة العميقة لهذا الفصل أو ذاك من الحكاية؛ وفي المقابل، فإن فصلا من الحكاية قد يساعده على فهم أجود لمعنى ما يحياه ويعيشه.

وبالفعل، فإن لكل شخوص الحكاية ما يماثلها فينا. نجدو ديوال وباغوماويل يعيشان فينا مثل قطبين متباعدين تماما أحدهما عن الآخر. وكي نونتنا هي ميدان معركتهما.

كي ننتصر، في ذواتنا، على نجدو ديوال، يجب أن نعرف، أولا، كيف نحددها ثم كيف ندجنها، وأخيرا كيف ننصت ونتعرف على

صوت باغوماويل الذي يعرف كيف يشحذ فينا شجاعه مواجهة الشر بمساعدة جينو. إنه صوت الخير وصوت من يعرف كيف يسامح ويضحى بنفسه من أجل الآخرين. ولذلك، فهو محفوظ بمساعدة جينو وأجداده الأولين؛ إذ يأتي دائما حدث غير منتظر ليساعده، في الظروف الأكثر مدعاة لليأس.

لكننا نحمل في ذواتنا أيضا غباء الإخوة السبعة وعنادهم وعدم انتباههم (*)...

وأخيرا، فإن الولوج إلى داخل حكاية، هو، تقريبا، بمنزلة الولوج إلى داخل الذات. الحكاية هي مرآة يمكن لأي كان أن ينظر إلى صورته فيها.

وهذه مناسبة بالنسبة إلي كي أتقدم بامتناني إلى نورية، المتعاونة النشيطة، التي بفضل عملها وعنايتها خرج هذا الكتاب وكتب أخرى للوجود.

أما دوهمباطي با

أبيدجان، ١٩٨٤

(*) وينسحب هذا على بقية الحكايات أيضا، وخصوصا كايدارا. يجب البحث في ذواتنا، وليس في تلك الفئات الاجتماعية الخارجية، عندما يوافقنا من صفات حميدة وسيئة للشخص.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

الأصل الأسطوري لحكاية نجد وديوال

«في نظرية بلاد ماندي حول نشأة الكون،
قبل نشأة الكون، وقبل بداية أي شيء، لم يكن ثمة أي شيء،
سوى كائن. كان هذا الكائن فراغا بلا اسم ولا حد، لكنه كان
فراغا - حياً، حاضناً في ذاته مجموع كل الموجودات الممكنة.
كان الزمن اللانهائي واللازماني هو مسكن هذا الكائن -
الأوحد.

اتخذ لنفسه عينين؛ أغمضهما فانتشر الظلام، ثم فتحهما
فَوُلِدَ النهار.

تجسد الليل في ليورو، (القمر). وتجسد النهار في نانغي،
(الشمس).

تزوجت الشمس القمر. فولدا دومونا، الزمن الزماني الإلهي.
سأل دومونا الزمن اللانهائي بأي اسم سيناديه. أجاب هذا:
«نادني جينو، الخالد (*).

أراد جينو أن يكون معروفاً؛ أراد أن يكون له مُحَاطِب. حينئذ
خلق بيضة عجيبة، تحوي تسعة أجزاء، ودس فيها الحالات
التسع الأساس للوجود.

بعد ذلك سلم البيضة للزمن الزماني دومونا وقال له:
احضنها بصبر. وسيخرج منها ما سيخرج.
حضر دومونا البيضة العجيبة وسماها بوتشيندي.

(*) جينو «الخالد»، هو بالنسبة إلى الفولانيين، الإله الخالق الأسمى (المعادل في بلاد بامبارا
لـ: مانغالا).

عندما فقصت هذه البيضة الكونية، وُلِدَ منها عشرون من الكائنات الرائعة التي شكلت مجموع الكون المرئي وغير المرئي، ومجموع القوى الموجودة وكل المعارف الممكنة.

لكن، للأسف، لم يَبْدُ أي من هذه الكائنات العشرين مؤهلاً لأن يصبح المُخاطَب الذي أراده جينو لنفسه.

آنذاك انتزع جزءاً من كل واحد من المخلوقات الموجودة. خلط هذه الأجزاء ثم نفخ في الخليط فانبعثت شرارة من نفسه وولد كائن جديد هو نيدو، الإنسان.

تَسَلَّمَ نيدو، الإنسان الأصلي - الذي هو تركيبٌ من كل عناصر الكون، العلوية منها والدنيا، ووعاءٌ حقيقي للقوة الأسمى، كما أنه ملتقى كل القوى الموجودة، الجيدة منها والسيئة - في الميراث جزءاً من القوة الخالقة الربانية، والمتمثلة في هبة العقل والكلام. شرح جينو لنيدو، مخاطبه، القوانين التي شُكِّلَتْ، انطلاقاً منها، كل عناصر الكون. ثم عيَّنه حارساً ومدبراً لكونه وكلفه بالسهر على التجانس الكوني. ولهذا السبب يُعْتَبَر ثقيلاً أن تكون إنساناً (*).

بعد أن تعلم نيدو من خالقه، نُقِلَ لاحقاً لنسله مجموع معارفه. كانت تلك هي بداية السلسلة الكبرى للنقل الشفوي التلقيني.

(*) كأنه يشير هنا ضمناً إلى قوله تعالى «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» الآية ٧٢ من سورة الأحزاب (المترجم).

وَلَدَ نِيدُو، الْإِنْسَانُ الْأَصْلِيُّ، كِيكالا(*)، أَوَّلُ رَجُلٍ أَرْضِي،
وَسَتَكُونُ نَاغَارَا هِيَ زَوْجَتَهُ.

وَلَدَ كِيكالا هَابَانَا - كَوِيل: «كُلُّ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ».

وَلَدَتْ: كُلُّ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ «مَذْرَاةَ الطَّرِيقِ».

رَزَقَتْ «مَذْرَاةَ الطَّرِيقِ» طِفْلَيْنِ: يُمَثِّلُ أَحَدُهُمَا، وَهُوَ «الرَّجُلُ
الْعَجُوزُ» (غُورُكُو - مَادُو)، طَرِيقَ الْخَيْرِ؛ وَتُمَثِّلُ الْأُخْرَى وَهِيَ
«الْعَجُوزُ الضَّئِيلَةُ الشَّيْبَاءُ» (دِيُوِيل - نَايُوِيل)، طَرِيقَ الشَّرِّ. وَقَدْ
انْحَدَرَ مِنْهُمَا سَلَالَتَانِ بِنَزَوَعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ:

وَلَدَ «الرَّجُلُ الْعَجُوزُ» نِيدُو - مَادُو، «الرَّجُلُ الْجَدِيرُ بِالْاحْتِرَامِ»،
الَّذِي وَلَدَ بَدُورَهُ أَرْبَعَةَ أَطْفَالٍ: «السَّمَاعُ الْأَعْظَمُ» وَ«النَّظَرُ الْأَعْظَمُ»
وَ«الْكَلَامُ الْأَعْظَمُ» وَ«التَّدْبِيرُ الْأَعْظَمُ».

أَمَّا أُخْتُهُ «الْمَرْأَةُ الضَّئِيلَةُ الشَّيْبَاءُ»، فَقَدْ وَلَدَتْ، هِيَ أَيْضًا، أَرْبَعَةَ
أَطْفَالٍ: «الْبُؤْسُ» وَ«الْمَصِيرُ السَّيِّئُ» وَ«الْبَغْضَاءُ» وَ«الْمَكْرُوهُ».

* * *

كَمَا نَلَاخِظُ، فَإِنَّهُ انْطِلَاقًا مِنْ «مَذْرَاةِ الطَّرِيقِ»، الَّتِي أَعْقَبَتْ،
هِيَ نَفْسُهَا، «كُلُّ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ»، تَحَدَّدَتْ سَبِيلُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

أَصْبَحَ «الرَّجُلُ الْعَجُوزُ» تَجَسُّيدًا لِلْخَيْرِ. وَأَصْبَحَتْ «الْعَجُوزُ
الضَّئِيلَةُ الشَّيْبَاءُ» تَجَسُّيدًا لِلشَّرِّ.

وَنَجِدُو دِيُوَالَ هِيَ تَجَسُّيدُ أُسْطُورِي فُولَانِي لِدِيُوِيل - نَايُوِيل،
«الْعَجُوزُ الضَّئِيلَةُ الشَّيْبَاءُ»، وَالَّتِي يَسْمِيهَا بَامَبَارَا مُوسُوكُورُونِي
كُونْدَجِي^١.

(*) كِيكالا: هُوَ مَا يَعَادِلُ تَقْرِيْبًا آدَمَ؛ لَكِنْ، وَهَقَّ الْمُوْرُوْثُ الْفُولَانِي، قَدْ يَكُوْنُ تَعَاَقَبُ الْعَدِيْدُ مِنْ
«آدَمَ». وَكِيكالا هُوَ رَمَزُ الْقَدَمِ، وَبِالْتَّالِي، رَمَزُ الشَّيْخُوْخَةِ وَالْحِكْمَةِ.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

حكاية، حكاية، أريد أن أحكي حكاية.
دعوني أستلقِ على ظهري وأستريحُ، (*)
أغصُ في الكلام وأصبح فيه بضربات قوية، (**)
أصبح فيه وقدماي تضرعان الماء محدثة
صوت (بونتو بونتو). (***)
ما سأقوله يفوق الحلم روعة!
غير أن كلامي ليس هذيانا.
اللسان سيفجّر الكلام!
ليست الخديعة ما سيحرك لساني.
رنين لساني سيكون أوضح من رنين الجرس الملكي.
لساني سيصعد الطريق أحسن مما يصعده أي دليل حاذق.
سيثير كلامي اهتمام كل ذكي موهوب
واهتمام كل الذين يتأملون ويفكرون.
هذه الحكاية مذكرة (****)
من سماعها سيصاب البعض، أحيانا، بالحُمى.

* * *

(*) وضعية استرخاء تقليدية... يتم الاستلقاء على الظهر، وتثنى ساق نحو الجسد، مع الاحتفاظ بأخمص القدم على الأرض؛ وتثنى الساق الأخرى أفقيا، الركبة نحو الخارج، وتوضع القدم على الخصر المقابل، مما يشكل رسما شبيها بالمثلث.

(**) الحديث من دون عائق ومن دون تعثر.

(***) محاكاة صوتية: ضرب الماء بالقدمين، بالتتابع، بشكل موقع.

(****) نعت «المذكر» يشير إلى القوة والقيمة. ففي هذه الحكاية سنعثر على كثير من الحركة والمغامرات والشجاعة والتبل. النوع المؤنثة، من جهتها، تستثير الحب والحنان والرأفة والشفقة.

كان جدنا بويتورينغ (*) أول من حكى هذه الحكاية، بفضر،
لولده البكر هيليري؛ حكاها له خلال سبعة أسابيع. وها هي ذي
الطريقة التي باشر بها حكايته.

أمسك بويتورينغ بعصاه التي يستعملها في الرعي، والتي
قدّها من خشب الشجرة المقدسة نيلبي^٢. هي لم تكن بالتأكيد
عصا عادية.

ثمة ثلاثة أنواع من شجر النيلبي: شجرة النيلبي التي
تنبت في الأرض، وشجرة النيلبي التي تنبت في الماء، وشجرة
«نيلبي اللامكان» التي لا تنبت لا في الأرض ولا في الماء. شجرة
النيلبي الأخيرة هذه، ليست في حاجة، كي تترعرع، لا إلى ماء
ولا إلى تربة عضوية خصبة. وسواء أكان موسم الأمطار مدرارا
أم شحيحا، فإنها تنمو. ومن يحمل بيده عصا مصنوعة من
خشبها السحري، يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل من دون أي خطأ.
ففي الغصون الخضراء لشجرة نيلبي اللامكان، يسري نسغ من
نار. ومن أحد هذه الغصون كان «جينو» قد قطع أول عصا للرعي
وسلمها لكيكالا، الرجل الأول. هذه العصا نفسها هي التي نُقلت
أبا عن جد إلى أن وصلت إلى بويتورينغ.

أمسك إذن بويتورينغ بهذه العصا المعجزة، المأخوذة هي أيضا
من شجرة لا تقل إعجازا، كي يخط على الأرض صورة نجم ذي
سبعة أطراف^٣

(*) يعتبر بويتورينغ أحد المشهورين من أجداد الفولانيين. وقد عُُمِّم من طرف الموروث الفولاني
لجيرري، على فيرلو السنغالية (جهة لينجيرري). ويقدم في الغالب على أنه ابن كيكالا، الرجل
الأول. وقد نقلت إليّ الحكايات التي تتعلق به، خصوصا بواسطة حاملي التراث الكبيرين أردو
ديمبو ومولو غاولو. انظر الهامش ٧٨.

بعد ذلك أتى بجمجمة آدمية؛، نقلت إليه، بدورها، أبا عن جد، ووضعها ضمن خانة - مركز النجم. وعندما أخذ مكانه، مع ابنه، ضمن هذه الخانة، عَزَمَ على الجمجمة فشرعت تتكلم. استمع بويتورينغ وابنه، خلال ستة أسابيع، لكلام الجمجمة، وهما يأخذان مكانهما، كل أسبوع، في خانة مختلفة.

هذا القول هو ما تم حفظه والاحتفاظ به في الذاكرات، فصنع منه بويتورينغ حكاية حفظها هيليري وأنشدها، كي ينقلها إلى نسله من بعده.

هذه الحكاية القادمة من عمق التاريخ، هي التي سأحكيها بدوري من أجليكم.

آه! أنصتوا إلي! سأحكي لكم الحكاية التي كان يحكيها بويتورينغ وهيليري.

سأحكيها لكم، ليس عن طريق الـ «ميرجي»، بإيقاعه المتواتر، بل بواسطة الـ «الفولفولد ماوند»؛ طريقة كلام الفولانيين العظيمة (*).

اعذروني إن أخطأت؛

إن نسيت أو تجاوزت؛

أو إن سها لساني.

كلُّ حلالٍ غَزَلٍ

يحصل لخيطه أن يتشابك.

عندما تتداخل خيوطه

يقطعها ويعقدّها من جديد.

اعذروني إن تعب لساني أو ارتخى.

(*) ميجي: شعر ذو إيقاع سريع. فولفولد ماوند: نثر (انظر حول هذه النقطة مقدمة أمادو هيباطي با).

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

في بلد هيلي ويويو الجنة المفقودة

تدور الحكاية في (فالو) (*)، بالبلد الأسطوري هيلي ويويو (**)، حيث كان يُجهل ما جرى خلال ليلة لا عشاء فيها. في هذا البلد، كان كل شيء متوافرا: ثروة وقطيع وزروع؛ كل شيء كان يوجد فيها بقدر يفيض عن الحاجة. لا همّ كان يوجد بهذا البلد. كان الموت به نادرا، والتوالد كثيرا، والمرض غير معروف. وكان الجميع يتمتع بصحة جيدة. حتى العَجَزَة ذوو الرؤوس الشيباء كانوا يحتفظون بحيويتهم؛ لم يكونوا يعرفون الحمى أو السعال أو العجز. كل ما كانت المزارع تحتويه، كان بدوره معافى من أي مرض. لم يكن ثمة لا إسهال حاد ولا أمراض رئوية ولا ذباب مؤذ. ولم يكن الجراد يجتاح الحقول. في هذا البلد المبارك الذي تندر فيه حالات الوفاة ويكثر «العارفون»ه (***)، لم يكن ثمة أثر للفقر. كان من لا يملك سوى قطيعين يثير الشفقة وينعت بالبؤس. وبعد الحصاد، كان الجراد يأتي إلى الحقول فقط كي يلتقط الحب المتساقط.

(*) فالو: منطقة معروفة بالفيضانات. فالو ودجيري هما أيضا اسمان لمنطقتين بالسنگال.
(**) احتفظ الفولانيون بذكرى مكان أصلي؛ وهو عبارة عن جنة أرضية حقيقية، عاشوا فيها سعداء. وقد يكونون طردوا منها بفعل جائحة ضربهم بها جينو عقابا لهم على ما اقترفوه من خطايا. كانت هيلي ويويو مدينتين رئيسيتين فيها. كانت يويو هي العاصمة الكبرى. ويويو هي محاكاة صوتية. هيلي تعني حرفيا (كسر).
(***) العارفون (غاندو، من أندال «المعرفة»): وهم علماء، بالمعنى الشامل للكلمة، في المعرفة النظرية كما في التطبيق، وفي كل الميادين. تشمل معرفة العارف المظهر الخارجي كما تشمل المعنى الخفي للأشياء.

هذا هو البلد الذي كان الضولانيون يعيشون فيه أغنياء

سعداء!

كانت تسطَفُ على الأفق قممُ جبال تتسلسل انحناءاتها وتتناغم. وكانت بالأودية بحيرات عظيمة مملوءة بالسمك ومغطاة بنبتة النينوفار ذات الزهور المتفتحة والحببات التي تعادل في كثرتها حبات الذرة، وكان يكثر العُنب كثيرُ الماء، اللذيذ والمكتنز.

وفي أعالي الأدغال، كانت الظباء الرشيقة والجاموس المهيّب تعيش في سلام، لأن الأدغال كانت خالية من الكواسر، ولم يكن بالبلدات صيادون.

كان جينو يحب هذا البلد، إلى درجة أن القمر إن غادر مسكنه، مساء، قائلاً «لن أعود»، تبرز النجوم اللامعة، حافرة السماء على شاكلة «غريال» كي تنير الفضاء ومساكن الناس.

كانت أشجار القابوق القوية، ببلد فالو، تجاور أشجار البواب ممتدة الغصون، كأنهما تريدان أن تشاهدا معا أشجار الكايلسدر العظيمة وهي تفرد فروعها الكبيرة التي يُستخرج منها خشبٌ ثمين.

كانت الحقول الخصبة، بها، تعادل في شساعتها شساعة الفضاء الكوني.

ولم يكن ممكناً عدُّ الوديان ومجاري المياه التي تسقي الأرض بتموجاتها. كانت الهضبات المكسوة بالغابة، معمورة بما لا يعد ولا يحصى من الطيور التي تأتي لتُغطس سيقانها في المياه كما لو لتغتسل إلى حدود الركب، فتمشي مع الماء مترقصة إلى

حدود انعراجات الوديان، كأنها ترافق الأمواج إلى بيت زوجيتها. لا يوجد في الطبيعة شيئان متماثلان (*)؛ فالحواجر الصخرية تبدو أحيانا كأنها تسعى إلى الحيلولة دون جريان الماء إلى غايته النهائية؛ أي البحيرة المالحة. لكن الماء، تلك المادة الأم التي بلا روح^٨، هو تجسيد للصبر وللقوة. عندما يعوق حاجز مجراه، يأخذ، في البداية، في الارتفاع على مهل إلى أن يغطي الحاجز. بعد ذلك يتجاوزه، محدثا سحابة من قطرات، إلى درجة أنه يحدث اليقين بمجيء «غاتامار»، عاصفة العام الأولى. يتبخّر جزء من سحابة الماء تلك، فيصير نثارا، لكنه نثار لا يخلق الخياشيم ولا يحول البتة دون التنفس؛ وما تبقى يتجمع في الأسفل مشكلا، من جديد، شريطا جديدا أبيض يواصل طريقه نحو هدفه، قارضا الجرف وشاقا مجراه كي يضاعف مداه^٩.

وعلى حواف مجاري المياه، يُلطفُ النثارُ الجوَّ إلى درجة أن شخصا إن اقترب منه يشعر بجسده ينتعش ويعرب، في لحظة، عن رغبة لا تقاوم في النوم الفوري.

باختصار؛ كان البلد من الروعة بحيث ينسى كل غريب قَدَمَ إليه، أن يعود إلى بلده.

أفاض الشعراء المُغنُّون لهيلي ويويو في التغني بهذا البلد الرائع. كانوا ينادونه البلد السَّبْعِي^{١٠} (نسبة إلى الرقم سبعة)، لأن سبعة أودية كانت تخترقه بين سبعة جبال عالية، كما كان به سبعة حقول رملية شاسعة تبدو كثبانها الجميلة كأنها تجري في شكل تموجات متجمدة.

(*) حرفيا: «الله لا يخلق شيئين» (ويُفهم متماثلين).

وفضلا عن شجر اللوز، كانت الأشجار المثمرة التي تنبت في الأدغال تمثل سبعة أنواع مهيمنة: السنط ذو الفاكهة المأكولة والنخيل المثمر الذي كانت تثمر عناقيده المتزاحمة فاكهة أحلى من أجود عسل؛ وشجر العُنَاب الذي كانت حبة واحدة من فاكهته تترع أضخم الأفواه؛ وشجرة التمر الهندي التي تداوي ثمرة واحدة منها أي مرض ١١؛ وشجرة الرونيي التي تشبع حبة فاكهة واحدة منها فيلا. أما شجر التين فكل محاولة لوصف فاكهته تعد من قبيل سَلْبِه قيمته. وأخيرا، آه، نعم، نعم! ببلد هيلي ويويو، كل شجرة كريتة كانت تنتج من السمن ما يكفي لتغذية حي من القرية بأكمله لمدة سنة! كانت هذه الشجرات السبع المباركات تنتج ما يفيض عن الحاجة من الفاكهة التي يمكن جنيها طيلة السنة. كان السمن بهذا البلد كثيرا؛ ولم يكن يستقى فقط من شجرة كريتة، بل أيضا من شجرة «مبيغو»، دون الحديث عن السمن ذي القشدة المحصل من حليب البقر الثر. وكان الفول السوداني الذي ينبت في الحقول يوفر، مع سردين الأودية، الزيت الضروري. أما العسل ذو الطعم اللذيذ، فكان من الكثرة بحيث لم يكن يباع.

في بساتين العائلة أو بساتين الأسر الصغيرة (*)، كانت تقطف حبات اليقطين والذرة وحبات دباء ضخمة وبطيخ لذيذ وفاصوليا ذات حبات كبيرة ولذيذة.

كانت الدباء واليقطين تصطف متناغمة إلى درجة أنها كانت تغطي، خلال كل الفصول، سقوف القش، بحيث تمنع الدخان

(*) يوجد، غالبا، في القرى التقليدية حقل كبير جماعي أو عائلي يشتغل فيه الجميع. كما يمكن لكل فرد أن تكون له حديقته الصغيرة أو بستان فاكهة خاص.

من عبورها للانتشار في الهواء (*).

في كل بلدة، وفي كل قرية صغيرة، كانت تتردد أصدااء الدجاج - الذكور ١٢. وكان نباح الكلاب بنفس عنوية ألحان النفير، ولم يكن نهيق الحمير يؤذي السمع. كانت الثيران ١٣ تخور كما لو كانت تشير الانتباه إلى جمالها وسمّنها. أما ثغاء التيوس التي تلتمس إناثها، فمن الممكن تشبيهها بغناء جماعي لأصوات آدمية.

أجل، كان ذلك هو البلد الذي يستجيب فيه - قصد إيقاظ السكان - نهيق الحمير إلى النداء الرائق للديكة، بينما تصدي صيحات الطيور الليلية العائدة إلى أعشاشها.

لم يكن ثمة من وجود، ببلد هيلي ويويو، للخفافيش التي يعميها ضوء النهار الوليد، وهي متوجهة مذهولة للتعلم بالأشواك.

وكان جراد هيلي ويويو يقضم سيقان الزرع وليس سنابله، لم تكن أمور الإنسان تصاب بسوء.

في كلمة، لا شيء في هذا البلد كان يمكن أن يحدث سوء. حتى سم العقرب وسم الأفعى لم يكونا يقتلان أبداً، بل لم يكونا يحدثان أدنى تورم.

كان لون سماء بلاد هيلي ويويو شبيها بأول ريق صباغة النيل؛ الزرقة الأكثر رقة.

النسيم بها رائق

الفرس رائعة

والفتاة بارعة الجمال.

(*) عندما يكون السقف مصنوعاً من القش، فإن الدخان يخرج عبره. وعندما يكون مصنوعاً من أوراق، فإن الدخان يخرج من الباب. هذه الصورة تشير إلى كثافة وغنى النباتات التي تحمي، فضلاً عن ذلك، السقف خلال فصل الأمطار.

وكان المسافر يكتشف، مع مواصلته لتجواله، المساكن وقد أضحى كل مسكن أجمل من سابقه.

كان جينو يُهطل على البلد مطراً مدراراً، لكن هذا المطر لم يكن يفسد لا الحرث ولا الكأ الذي كان ينبت بغزارة. لم تكن الزوابع تؤدي إلى صواعق. لم يسبق لصاعقة أن أحرقت شجرة، أو منزلاً. كان البلد مبراً من أي سوء:

المجد لك، المجد لك!

المجد لك أيها الخالد!

كان سخاؤك يعم هذه الأرض التي لم تكن قليلة القيمة! يقولون إن الملك سليمان ١٤ نفسه - والذي تعتبر زوجته بلقيس، ملكة سبأ، بمنزلة خالة للفولانيين - هو من وضع تصاميم هيلي ويويو. وقد أنجز العفاريت الذين سخرهم لذلك روائع كثيرة، فعملهم لم يكن، بالتأكيد، أمراً هيناً.

أجل، في هذا البلد الشبيه بالجنة، كان يسكن نسل هيليري ابن بويتورينغ، جدّي الفولانيين ومالكِي قطعان عظيمة ١٥.

المعلمون الكبار ١٦ الذين طالما لاحظوا ودرسوا وفهموا، لم يتفقا على المكان الذي وُجد به بلد هيلي ويويو. فبعضهم جعل موقعه شرق البحر الأحمر، في بلاد خالتنا بلقيس، ملكة سبأ. ويؤكد آخرون أنه قد وُجد غرب البحر الأحمر بين بلاد الحبشة (إثيوبيا) وبلد الفرعون ملك مصر (*).

ليس قصد هذه الحكاية أن تثبت من صدق أو خطأ هذا الكلام. وفي جميع الأحوال فإن آلاف وآلاف من الناس سيقولون

(*) هذه الفقرة مع الفقرات التي تليها (إلى نهاية الفصل) تدخل في النص التقليدي للحكاية.

إن الكذب هو الحقيقة، والكذب سيبقى كذبا، وآلاف آلاف آخرون سيقولون إن الحقيقة هي الكذب، والحقيقة ستبقى حقيقة! تُحكّي هذه الحكاية قصّدَ تعليم الفولانيين حتى لا ينسوا الأحداث الجسام القديمة التي كانت سبب اندثار أجدادهم وهجرتهم وتلاشيهم وتفرقهم في مختلف الأصقاع؛ وحتى يعرفوا بلدهم، حتى إن كانوا لا يستطيعون تحديد موقعه في الكون؛ وحتى يعرفوا لماذا تم طردهم ولماذا هم تائهون في كل مكان، وكيف أصبحوا رحلا أبديين وأناسا غير مرغوب فيهم، يقيمون بضواحي القرى، لكنهم، على الرغم من ذلك، لا يترددون في أن يهاجموا برماحهم من يحتقرهم وفي استعباد من يهاجمهم وفي إصابة الأمراء الذين يحقرونهم بالدهشة (*).

عندما يتم استعباد أحد الفولانيين، يُقبَلُ ويعرف كيف يتحلّى بالصبر، إلى أن يحين اليوم الذي يكون متأكدا فيه من قدرته على الانتقام. لا يقبل الفولانيون أن يُحتقروا. وإن عوملوا معاملة سيئة، بدأوا بإحراق كوخهم الشخصي، كي يُظهروا بجلاء أنه لا شيء لديهم يخسرونه، ثم يعمدون إلى إحراق أكواخ عدوهم. يجرحون ويقتلون ثم يغادرون البلد صاحبة قطيعهم، لأنه لا شيء يشدهم إلى مكان بعينه (**).

هم أكثر تجوالا من الإغصار، وهم ينتقمون ممن يعتدي عليهم من دون أن يحدثوا جلبة. هم يحرصون على شرفهم وعلى حسن معاملتهم أكثر من حرصهم على حياتهم. من

(*) بأن يصبحوا المنتصرين عليهم.

(**) ثروتهم الوحيدة هي قطيعهم. وهم يتقلون معه. ولا يتم استبقاؤهم في مكان إلا لتكريمهم.

يقترَب من فولاني، فليقترب منه من أجل فعل خير، وإلا فإنه سيؤذي الثمن غاليا!

ليس للفولانيين أدوات حفر؛ ذلك أنهم بحوافر جيادهم يحفرون للبذور مواقع بالأرض.

عصا الفولانيين أقدر على القتل من بندقية.

وما يثير غضبهم هو أن يُمسّ قطيعهم الذي هو كل ثروتهم، أو أن يتم المس بمظهر نسائهم (*) الذي هو شرفهم. إنهم يجعلون من يقترب منهم يعضُّ على التراب.

مولد نجد وديوال

في زمن بعيد، لا يمكن تحديده بالضبط، كان الفولانيون يحيون سعداء ببلد هيلي ويويو. لكنهم، مع مرور الزمن، امتلأوا كثيرا بهذه السعادة، فأصبحوا منها متباهين بذواتهم فأضاعوا أنفسهم. أصبحوا يتصرفون، جراء ذلك، بطريقة سيئة للغاية. ما عاد بعض منهم يحترم شيئا، إلى درجة أنهم أصبحوا يمسحون قاذوراتهم بسنابل الزرع. ورافقت النساء دُكرانَ الحيوان، وتخلت بعضهن عن الماء وشرعن يفتسلن بالحليب (**). طفقن يستعملن الحليب حتى في غسل ثيابهن واستحمام أطفالهن وغسل خرافهن الداجنة (***) . ثم، ألم تعمدن إلى استعمال

(*) لا يتعلق الأمر هنا بحلي أو بزينة لا قيمة لها، بل بكل ما يشكل القيمة الأخلاقية للمرأة: فمظهرها هو خصالها.

(**) أن يتم الاغتسال بالحليب معناه الخروج عن المعيار والإفراط والتبجح، خصوصا عند الفولانيين الذين يعتبرون الحليب مادة مقدسة.

(***) الخروف الداجن خروف عائلي، وهو نوع من الحيوانات التي تعتبر جالبة للحظ، تنتقل داخل البيت بحرية. هي تنتمي إلى العائلة، فهي إذن محبوبة ومدلة.

دقيق الأرز المعجون في صبيغ جدران منازلهن؟ وكانت الرغبة تستبد بهن، أحيانا، فيخرجن إلى الطرقات متبرجات وقد أبدين فتنتهن.

قلدهن الرجال أيضا ففعلوا مثلهن. ثم شرعوا يقابلوهن في الدغل فيتصرفون مثل الدواب (*). وشيئا فشيئا شرعت النساء يرفضن الزواج قاصدات، من ذلك، تحصيل مجد؛ فأضحى حالة عادية أن ييقين عازيات (**).

هكذا أصبح يعيش عدد كبير من الفولانيين، من دون أن يأتي ناه ينهاهم عما يقترفونه من منكر.

وعندما دامت هذه الحال مدة طويلة، غضب جينو. ولما قرر أن يصيب الفولانيين بسوء، شرع في ابتداء الكائن الذي سيكون أداة الشر.

أمسك جينو بقط أسود؛

قط، يسود من سواده الضم

والليل الأشد حلكة!

ثم أمسك بتيس منتن منتوف الزغب ١٧

ويطير غامق السواد؛

أحرق كل ذلك بشعاع أخضر؛

وضع الرماد في قرية صفراء؛

(*) يعتبر الجنس، في أفريقيا التقليدية، أفريقيا السافانا، فعلا مقدسا، لأن «بطن المرأة هو معمل جينو». وفي مجتمع يركز على التحكم في النفس، يصنف الفعل الجنسي الممارس خارج إطاره ومن دون احترام للأعراف، صاحبه في خانة الحيوانات.

(**) (إلى الآن، تعتبر حالة العزوبة أمرا غير معروف في أفريقيا، كما يتم الحكم عليها حكما سلبيا للغاية؛ فهم كانوا يقدر أن العازب ليس رجلا واعيا بمسؤولياته، وإذن فلا يمكن الاعتماد عليه.

عجنه بماء لا لون له؛
وضع العجين في درع سلحفاة؛
سلحفاة عملاقة من سلاحف المياه العميقة ١٨
فحول كل شيء، صانعا منه بيضة ١٩
سلم البيضة لتمساح ذي جلد صلب، ليحضنها؛
تمساح عجوز، سنوات عمره بلا عد ٢٠
حضر التمساح
وفرخ جينو البيضة.
خرج منها كائن؛
لهذا الكائن، ذي الشكل الآدمي غير الواضح،
سبع آذان وثلاث عيون؛ ٢١
كان فتاة.
كل ما كان مسموما شريرا،
كل ما يعيش في الغابة
أو في أعالي الأدغال،
ويحيا في الوديان
ويستقر في الجداول
أو يختفي في باطن الأرض
ويتسلق الهضاب
أو يلتجئ إلى المغارات
والشر الذي يسكن النار
والذي يختفي في النباتات؛
بكلمة، كل ما نلتمس من جينو

أن يجنبنا إياه،
كل هذه الكائنات أَرْضَعْتَ، بالتناوب،
الفتاة التي وُلِدَتْ لَتَوْهَا.
كبرت الفتاة وأُضْحَتْ طفلة قصيرة بدينة،
يمجها النظر، بأذنانها المشوهة.
لم يكن كائنٌ على الأرض بهذه الأذان.
سميت الفتاة المشوهة نجدو ديوال إينا بازي، الشرسة السَّبْعِيَّة
الكبرى، أم الكارثة (*).
تعلمت الأصوات السبعة للكلمات السحرية.
وتعلمت كل التعزيمات الخاصة بالتحكم في أرواح الشر
المنتمية للعناصر الأربعة ولنقاط الفضاء الست.
قادرة على اتخاذ كل الأشكال، والتحول من شكل إلى شكل
كما تشاء، قاذفة بالأذهان في أتون الحيرة.
وهكذا أدركت نجدو ديوال - محاطة بالعتمة ويكل الأرواح
المؤذية وعفاريت الشر - سن الرشد.
رأها رجل يسمى داندي (فلفل) ابن ستي «ملح البارود» (**)،
فطلبها للزواج. قُبِلَ طلبه. انتقل الزوجان، بعد حفل الزواج،
للسكن بتولال - بالوال، الغابة السوداء الحزينة.

(*) نجدو مشتقة من جَدِّي التي تعني سبعة. فهي إذن «السبعة». ديوال مكونة من ديو (امرأة)، ومن آخر الكلمة «ال» الذي قد يكون دالا على التحقير، كما قد يكون دالا على الإعجاب، وفق السياق. ويمكن لـ ديوال أن تعني «خارق للمادة»؛ والكلمة تعني، هنا، «المرأة ضخمة الجثة»، أو «الشريرة العظمى». أما «إنا بازي» فتعني حرفياً: «أم الكارثة».

(**) يسبب الفلفل الحرق، بينما يدخل ملح البارود في مكونات البارود المتفجر، أي المدمر، وفي مكونات مختلف الأعمال الشريرة. والقصد هو ذكر أي المكونات الشريرة، من جهة الأب كما من جهة الأم، اجتمعت لتولد عنها سبع فتيات لـ نجدو ديوال.

ولدت نجدو ديوال من داندي سبع بنات، كل واحدة منهن أجمل من أجمل جنية.

ذات يوم، قابل داندي طوكي (السم).

سأله طوكي: إلى أين، يا داندي؟ وبدون سبب واضح، انقذف عليه. شرع طوكي ينتفخ بسمه فارتفع مثل جرف عال. بعد ذلك أخذ بتلابيب داندي وضغط على عنقه إلى أن أضحي جسده باردا تماما.

كانت ثمة، قريبا من موقع وقوع الواقعة، ضفادع قاعية على مؤخراتها تبدو بطونها مثل بطون نساء حوامل، وهي تتابع المشهد. انقذت الضفادع بدورها على طوكي وقتلته فابتلعته دون أن تترك منه شيئا.

خرجت بعض الأفاعي من حيث لا يدري أحد، وسارعت نحو الضفادع فالتصمتها دفعة واحدة؛ ثم أسرع نحو جحورها. آنذاك، هاجمت عقارب سوداء، كبيرة مثل سلاحف، الأفاعي، فتمكنت منها وابتلعتها كما كانت هي، الأفاعي، قد ابتلعت الضفادع (*).

من أين أتت هذه العقارب ٢٢٩

صمت!... سأقول من أين أتت حتى تنقل أفواه الخبر إلى آذان.

هذه العقارب أسن من كيكالا نفسه،

جد النوع البشري.

هي أقدم من الضيلة،

(*) يُظهر تعاقب الحيوانات التي يبتلع بعضها بعضا، أن لكل شر شرا آخر أسوأ منه.

هي أقدم من أقدم العقبان،

أسن من شجر البواب.

هي أسن حتى من بعض الجبال ٢٣

خلال ذلك اليوم القديم الذي سقطت خلاله أولى قطرات المطر على الأرض، كانت العقارب ثمة سلفا، وقد اغتسلت بها. بعد ذلك ولجت جحورا وكننت منتظرة حصول ما سيحصل، فوجدتها ما حصل ثمة (*).

بداية الشّور

في ذلك الزمان، كانت نجدو ديوال - الأداة الشريرة لتنفيذ غضب جينو - قد استقرت في كوخ مصنوع من أغصان شجرة تيايكي؛ تلك الشجرة السحرية التي يصيبها المطر بالجفاف وتخضر من الحرّ ٢٤. كانت ثمة، بأذانها السبع ويعيونها الثلاث المفتوحة. عندما تعطس، كانت شرارات تنبجس من رئتيها، وعندما تحك أطرافها كان نحل يخرج من جسدها. كانت الشجرة تجف إن تنفست نجدو ديوال بالقرب منها، وإن صاحت على جبل، كان ينهار منكسرا فيغدو مثل دقيق من تراب. كانت تكمن في كوخها منجزة عملياتها السحرية التي تنشر آثارها المشؤومة على كل بلاد هيلي ويويو.

ذات يوم، عندما توجهت نساء فولانية إلى السوق كي يبعن لبنا، وجدن بها أمورا غريبة: قناني مترعة بروت الغنم، وجفانت

(*) ليس لهذا المشهد من غرض غير أن يقدم وفاة داندي، الذي كان له دور واحد هو أن يجعل نجدو ديوال تلد الفتيات السبع اللاتي سيكون لهن دور أساسي في الحكاية.

ضَخَامُ بها براز آدمي وروث بقر وفضلات عظائية، كما وجدن
يَقْطِنَاتٍ مملوءة بالبول وبالبصاق، وعثرن على عظام طويلة
لسيقان آدمية، ملقاة على الأرض مثل سيقان نباتات.
صاحت النساء الفولانيات: يوا يوا. لقد دخل السوق كل كرية
منتن!

شرعن يسألن بعضهن بعضا: ما الذي حدث؟ لم يكن يعرفن
أن جينو قد قرر أن يُنزل بالفولانيين عقابه، وأن نجدو ديوال، أم
الكوارث، كانت أداة تنفيذه لعقابه.

عندما نظرت النساء إلى أوانهن، رأين أن اللبن أضحى دما
وأن الحليب (*) أصبح قيحا. فررن، وتوجه بعضهن إلى هيلي
وبعضهن إلى ويويو، ثم شرعن يحكين ما حصل لهن.

تناهت هذه الأحداث الخارقة للعادة إلى سمع ملك (**)
هيلي. أخبر الملك ٢٥، بدوره، رجاله بالأمر، فانتقل الجميع إلى
ويويو، العاصمة التي يقطنها الملك الأعظم.

استدعى هذا الأخير المعلمين الاثنين والعشرين الكبار في
البلد، والرعاة الكبار الستة والخمسين ٢٦. طلب منهم أن يضربوا
الرمل وأن يفسروا ما توصلوا إليه حتى تتم معرفة دلالة هذه
الظواهر الغريبة. بعد أن مارس المنجمون فنهم، خلصوا إلى أن
شرا مستطيرا سيصيب بلدهم هيلي ويويو، لأن الأقدمين كانوا
يقولون:

(*) القصد هو الحليب المخثر الذي بلا قشدة.

(**) تعني لامدو حرفيا: «الذي يقود». وفوق الزعماء والملوك المحليين، كان ثمة ملك وحيد لبلد
هيلي ويويو. ومباشرة بعده يأتي ملك هيلي.

الويل للبلد
عندما يتحول الحليب دما وقيحا؛
عندما يباع الغائط والبول
في السوق!
آنذاك، سيتحول الكون؛
ستُسحق هيلي ويويو وتطحن كالدقيق.
سينهار جرف النهر
مثلما تنهار جدران من لبنٍ
تحت وقع العاصفة.
ستنزل مياه الوديان إلى أدنى مستوياتها،
وستصبح الغابات صحارى.
لن تعود البلدات الكبيرة سوى أكوام من حطام.
لن نعود نرى، حيث كانت تجري المياه،
سوى أرصفة رملية.
المنازل الكبيرة ذات الطابق
ستصير مثل كثنان مكومة،
وستصير أخرى شبيهة مغارات،
وشبيهة أعشاش العظايا،
أو أعشاش الخفافيش والصراصير.
في الحقول، ستغدو اليقطينة المأكولة
مجرد قرعات شديدة المرارة،
وستعقم النساء والبقرات.
وإن أطفالن، مغامرة،

لن يستطعن إرضاع صغارهن.
لا أحد سيشفق على ما يثير الشفقة!
لن يشتغل الإنسان إلا من أجل نفسه (*)
كل سيمجد نفسه ويذم الآخرين.
سترى الناس يتحادثون ويتبادلون الابتسامات بنفاق ظاهر، ثم
يستهزئ بعضهم ببعض ويتسأبون بمجرد أن يغادر بعضهم بعضا.
سيصبح الناس مثل طيور الحذف (**); عندما يغطس طير
منها في الماء، تشرع بقية الطيور في الدعاء:
«آه يا جينوا! أغرقه، امنعه من الخروج من الماء!» لكن بمجرد
أن يعود الغاطس إلى الظهور، تخاطبه بمودة: «لقد دعونا من
أجلك. هل اصطدت شيئا؟»
في ذلك الزمن الكارثي، الذي سيكون مسبوقا بجائحة،
سترتفع في الشمال النجمة الشريرة ٢٧ .
آنذاك سيقول الغريب الذي نزل عندك: «لن أغادر أبدا»
سيربط صرّته وسيحتفظ بما يملك ويعتاش مما تملك.
والأدهى من ذلك أنه، يوم يقرر أن ينصرف، سينتظر أن يتسلم
منك هدية!
أجل. خلال تلك الحقبة الملعونة، سيطمع المعلمون الموجهون
في متعلّمااتهم (***) .

(*) لن يشتغل الإنسان إلا من أجل نفسه: تعتبر الأنانية، في التقليد الأفريقي، أقيح الأشياء...
فالذي «لا يتقاسم» أو الذي يعيش منفصلا عن المجموعة، يعتبر على أنه غير عادي. ونشر إلى
أنه، في أسطورة نشأة الكون، تأتي ثنائية الخير والشر، مباشرة بعد «كل يعمل لنفسه».
(**) نوع من الإوز، يرمز إلى النفاق.
(***) رمز انهيار القيم. ذلك أن المعلمين الملقنين... يعتبرون نموذجا للغة والأخلاق.
إن وظيفتهم لن تكون مشروعة وفعالة إلا إذا احترموا الموانع الكبرى: عدم الكذب أبدا وعدم
التعصب للرأي وعدم ارتكاب الفواحش... إلخ.

وسيطمع الأصدقاء الحميمون في نساء أصدقائهم.

لن يكون على السنة النساء، خلال تلك الحقبة، سوى: «أريد الطلاق، سأحصل على الطلاق، وليذهب الأطفال الناتجون عن الزواج إلى الجحيم!».

خلال ذلك الزمن، سيكذب الزعماء - يمكنهم أن يفعلوا ذلك من دون خوف ماداموا زعماء - جهرا (*)، ولن يستحيي الناس الأكثر غنى من سرقة الناس الأشد فقرا.

خلال ذلك الزمن ستؤخذ الأرض على أنها سماء وستؤخذ السماء على أنها أرض (**).

هكذا كانت تقول التكهّنات.

سأل زعماء هيلي ويويو المعلمين الكبار والمنجمين:

هل ثمة قربان يمكنه أن يطرد الشر أو أن يقلل من القلاقل التي ستنفجر مثل زوبعة! ما العمل كي نهض هذا الإعصار الكارثي، وكي لا تصيب الصاعقة هيلي ويويو، وكي لا يتحطم البلد؟

توجه المنجمون بأنظارهم نحو المعلمين الكبار (***)، لأن هؤلاء يتجاوزونهم علما.

أصعب شيء، بالنسبة إلى أحد الرعايا، كما يقال، هو أن ينظر إلى ملكه وجها لوجه وأن يخبره بالحقيقة من دون

(*) يقال بأن الزعيم، أو الملك، لا يحتاج إلى الانحدار إلى درجة الكذب، مادام في كل الأحوال، ومهما فعل، لا يكون معرضا لأي خطر. يُفهم بأفريقيا أن يشتط في سلطته، لكن لا يُقبل منه أن يكذب. في التماعة النجم الأعظم، عندما يقدم باغوماويل الصولجان الملكي لديجيندو دييري، الملك الشاب الذي علمه، يقول له (ص ٩١): «لا تدع أي كذبة تتسرب إلى كلامك؛ فنهاية كل كذاب أن يصبح مفسدا. من له سلطة أن يشتط في حكمه، عليه ألا يكذب».

(**) رمز الخلط المطلق والاضطراب الكامل للقيم.

(***) يمثّل المعلمون الكبار (Les silatiguys)، كما سبق أن قلنا، الدرجة العليا من التعليم الفولاني. وكل كاهن أو راع متعلم يحلم بأن يصبح معلما كبيرا (انظر كومين).

مؤارية. لكن المعلمين الكبار لهيلي ويويو لم يترددوا. كان كلامهم واضحا لا لبس فيه. قالوا:

لا شيء يستطيع منع وقوع ما تم التكهّن به.
سيؤدي الثمن من عاقر الخطايا (*).
ستحطم هيلي ويويو وستتحول لبنات الجدران إلى مسحوق.
ستجف غصون الشجر على الجذوع.
ستجف الوديان ويتحول النبات إلى حشائش.
لن تعود الأمور إلى حالتها الطبيعية إلا بعد وفاة نجدو ديوال،
أم الكارثة. لكن، وبالأأسف، سيدوم الظلام الأعظم طويلا، لأنه
من معدن صلب، صعب الذوبان ٢٨.
بلد ويلي ويلي الملغز

عندما كان الملك وزعماء هيلي ويويو يبحثون، كما رأينا، عن
وسيلة لاجتناب الكارثة التي كانت تهددهم، باشرت نجدو ديوال
تشيد بلدة غير مرئية في محيط إقامتها. عندما أنهت بناء
البلدة سمّتها ويلي - ويلي، وتعني «الاثنان معا، الاثنان معا».
لم يكن ينقص شيء من متع مادية أو روحية وهمية (**)،
بويلي ويلي، إلا ما يكفي من النساء ليرافقن الرجال. كان كل
ما يوجد من نساء بويلي ويلي، هن الفتيات السبع لنجدو ديوال،
واللأئي ولدتهن من زوجها داندي. لم يكن فقط جميلات مثل

(*) مما يعني ضمنا أن الذين لم يرتكبوا خطايا سينجون وسيُجنَّبون الكوارث.
(**) كل ما يوجد بهيلي ويويو ليس إلا وهما وسرابا؛ فالجمال ليس له من دور سوى أن يفتن
ما ليس، في جوهره، سوى قبح خالص.
الوهم الروحي أو السراب الروحي... هو كل ما يؤدي بالرّيد إلى التوقف في منتصف الطريق؛
فهو عندما يصاب بالاندھاش أمام ظاهرة روحية أو أمام ما يتصوره هو نفسه، يفقد الرؤية
الواضحة للهدف الحقيقي الذي يسعى إليه.

جَنِيَّات، بل عملت أمهن، أيضا، عن طريق السحر، على جعلهن يحافظن دائما على عذريتهن. قد تتزوج رجالا، لكنها تصبح وقد عادت عذراء من جديد.

في تلك الحقبة، شرعت نساء هيلي ويويو يمتن تباعا. لم يبق منهن إلا النساء الفاضلات، زوجات المعلمين الكبار وبعض الزعماء (*). أضحى الرجال، بمجرد سماعهم بوجود امرأة غير متزوجة، في مكان ما، يسارعون في قوافل كاملة كي يجربوا حظهم، فيتشابكون ويقتل بعضهم بعضا في الطريق.

والحال أن مسافرين غربيي الأطوار، كانوا يجوبون بلاد هيلي ويويو، وما هم في الأصل إلا عملاء لنجدو ديوال، عملوا على إشاعة خبر مذهل: في بلدة بعيدة، تعيش سبع فتيات عذراوات لا مثيل لجمالهن، تعترم أمهن، ملكة البلدة، تزويجهن. لكن الملكة قررت، ألا تزوج بناتها إلا من الرجال الذين تختارهم الفتيات أنفسهن. وهي تستدعي الخطاب كي يأتوا ليحربوا حظهم.

بمجرد ذبوع الخبر، شرع المترشحون يشدون الرحال من كل الأقطار المجاورة. لم يكن يسمح لهم بولوج البلدة إلا في مجموعة من سبعة أشخاص.

وعندما كانوا يدخلون البلدة، كانوا يُقدّمون إلى نجدو ديوال، وكانت هذه، وقد عمدت إلى اتخاذ زينة باهرة جميلة، تخاطبهم بهذه الكلمات:

أمل أن يكون لكم الوقت الكافي كي تشاهدوا بناتي. ابحثوا لكم عن مستقر، الآن، وعودوا غدا مساء. فكما أن كل فارس

(*) كما قلنا من قبل، فإن النساء والرجال الذين لم يرتكبوا خطايا ولم يستسلموا لتفسيخ المرحلة، لم تشملهم الكوارث.

يسعى إلى معرفة مميزات مطيته الجميلة التي يستعد لركوبها، ويتساءل عما إذا كانت من نسل «جبلينغو»، فرس الشيطان، فإن كل رجل أيضا، يريد أن يعرف مميزات المرأة التي يسعى إلى الاقتران بها.

كان المترشحون السذج، للأسف، يجهلون أن نجدو ديوال قد اعتادت على استعادة نشاطها بشرب الدم البشري، وأنها تفضل، أكثر من أي دم آخر، دم الفتیان مُرد الذقون ٢٩ ! كان لكل واحدة من بناتها، قريبا منها في مخبأ، مَعِي طویل مدبوغ بشكل جيد، ينتهي بمنفذ مشكل من قرن ظبية قميئة. ومعلوم أن رقية مؤذية تشوي في رأس الظبية القميئة ٣٠ التي يستعمل قرنها، في عدد لا يحصى من الأعمال السحرية. أما الطرف الآخر من الأنبوب فكان يوجد في غرفة نجدو.

عاد العشاق السبعة مساء اليوم التالي، ففتحت الملكة لكل واحد منهم باب مسكنٍ واحدةٍ من بناتها.

مكث كل خطيب يجالس خطيبته إلى أن حل منتصف الليل. آنذاك شرع كل واحد منهم يخفض صوته ويخفت من نور المصباح، ويلتحق بخطيبته في سريرها. وعندما يريد الاقتراب منها، تتركه العذراء يفعل إلى أن يخال أنها متلهفة إليه، لكن بمجرد أن يصير شديد القرب منها، تتقهقر:

«على مهلك يا أخي. لا تكن لجوجا. التسرع عادة ما يحطم أكثر مما يحل الأمور. أنا أريد، قبل كل شيء، أن أكون متيقنة من أنك تحبني حبا حقيقيا؛ أنك تحبني كما تحب نفسك. أريد أن أكون لك وحدك وتكون لي وحدي. عليك أن تقدم لي

دليلا على حبك؛ دليلا على أنك لن تضنّ علي بأي شيء هو ملك لك. عندما سيحصل لدي هذا اليقين، سأعلم أنني حتى إن طالبتك بروحك، ستسلمني إياها؛ آنذاك سأسلمك ما يشكل سعادتي وحياتي: عذريتي».

كان مثل هذا الكلام يلهب قلب العاشق، فيتصاعد دخان الحب ليلف سماء فطنته. كان يثمل من هذا الكلام حتى لا يعود يعرف موقعه من الكون؛ فيضعف ذهنه ويكفّ عن التفكير ويصبح عبد رغبته، محسوبا، مؤقتا، على صنف الحيوانات؛ هكذا يتصرف المرء عندما يستولي عليه العطش إلى المرأة.

كان الخطيب يصيح، متلهفا:

اطلبي مني، أختاه، ما تشائين أسلمك إياه في الوقت واللحظة؛ اصنعي بي ما تشائين! أنا أحبك وأتحرق شوقا إليك، فلا تتمنعي!»

عندما تَعْمَى بصيرة المتبصّر، تجيب الماكرة:

«آه، يا أخي! أمي مريضة. والحال أن الدم المذكّر وحده قادر على إشفائها. اقبل أن أجرحك وأن آخذ بعض دمك من أجل أمي المسكينة. بمجرد أن تشربه ستنام بعمق. آنذاك سأستغل فرصة نومها فأسلمك نفسي. ومهما طال الليل ستجدني صابرة طيبة. ستجدني عذراء ومستجيبة لك.

ستعجب من رشاقة ساقي، وسترى كيف أضحى كعبايّ ملساوين ومقدودين، وكيف أصبح ذراعاي منحوتين، وكيف أرقّ جينو أنا ملي. ستتأمل أظافري ذات الشكل الطويل واللون الأبيض الناصع.

نعم يا أخي ! أنا عذراء لم أمسس بعد . وبالنسبة إلى من لا يفهم هذه اللغة أقول: أنا منزل لم يسكنه أحد بعد .

عندما كانت كل بنات نجدو ديوال يقلن مثل هذا الكلام، كان خُطابهن، وقد انطلت عليهن الحيلة، يقولون بتأثر: أجرحيني . نعم أجرحيني لتروي أمك، لكن دعيني، أنا العطشان، أرتوي من حبك !

آنذاك، وعلى الفور، كانت الفتيات تخزن عصبا وتضعن به قرن الطبية القميئة . أما نجدو ديوال، فكانت، وقد أُخبرت عبر إشارة معلومة، تمسك بالطرف الآخر للمعي الطويل الذي يمتد من سرير ابنتها إلى سريرها، وتشرع تمتص دم الرجل الشاب الشقي .

عندما كان الشاب يُفَرِّغ من جزء مهم من دمه، كانت الفتاة تسمح له بالاقتراب منها، وهي متأكدة أن عشيقها سيموت من الإنهاك غدا أو بعده بقليل، وأن أمها، بعد أن تستعيد نشاطها، سيمكنها مواصلة عملها المرعب والشرير .

هكذا بدأ شباب هيلي ويويو يصلون سبعة سبعة، دون أن يمنعهم شيء، البتة، من الإسراع، بابتهاج، نحو هذه النهاية الرهيبة .

خلال كل ذلك، كانت نجدو، كل مرة ترتوي من الدم الطري، تنفث الهواء من صدرها الجهنمي، فتتبيس أعشاب البلد، بدءا من النباتات الصغيرة وانتهاء بالأشجار الأكثر قوة . جفت الوديان ومجاري المياه، ولم تُستثن حتى الآبار . تكلست الأشجار في الغابات فماتت الحيوانات التي تقاتت من النبات ونفقت

الطرائد جوعا، حيث كان يتم العثور عليها مباداة جراء أمراض غير معروفة.

أصاب البِلْدَ، تباعا، كلُّ الكوارث التي تنبأ بها العرافون. لم يمر يوم واحد أو أسبوع أو شهر أو سنة من دون أن تتم رؤية كارثة تتحقق: انهارت مدن عن آخرها وجفت وديان وتحطمت جبال. انعدمت المؤونة وما عادت النساء والأبقار، بأردافهن الواسعة، يُطفَلْنَ. وحدها بعض المناطق المأهولة بأناس شرفاء وطيبين استثنيت، لكن الجميع كان يعاني. هكذا عاش سكان هيلي ويويو، طيلة سبعة أعوام، جائحة مُمَضَّة، بالقدر نفسه الذي كانت به حياتهم، من زمان، رائعة ومبتهجة.

البحث العظيم الذي قام به با - وامندي؛ الرجل الخَيْرُ حلمٌ مُبَشِّرٌ.

كان يعيش بقرية هايو (*)، الواقعة على سفح أحد جبال هيلي ويويو السبعة، والتي كان زعيمها هو حمادي مانا، رجلٌ طيب يدعى بابا وامندي «أب السعادة». كانوا ينادونه با - وامندي. كانت غالبية سكان منطقة هايو لا تقترف آثاما، لكن با - وامندي كان أكثرهم، بكل تأكيد، حكمة وفضلا.

لم يكن يُعدُّ من بين مُتَرْفِي هيلي ويويو، لكنه كان يُعتبر نموذجا للاستقامة. لم يسبق له أبدا أن خدع أحدا، كما لم يسبق له البتة أن استجدي أحدا. كانت أعدادُ من الفقراء تأتي لتقترض منه (**)، لكنه لم يطالب قط باسترجاع دينه. وهو

(*) هو، في الآن نفسه، اسم قرية واسم بلد، كما أن هيلي ويويو هما اسمتا بلديتين، وفي الآن نفسه، اسمتا بلدين.

(**) لا يتعلق الأمر، بالضرورة، بالمال (أو بما يدخل في معناه)؛ فالاقتراض قد يكون من الدواب.

نفسه، على أي حال، لم يكن يستدين قط على الرغم من أن أسرته الصغيرة كانت مرارا، منذ مَقْدَم الشرور العظمى، تقضي يومها من دون أكل وتنام من دون عشاء.

كانت زوجة با - وامندي تدعى ويلدو - هور «الرأس اللطيف - المحظوظ». وكانوا ينادونها ويلوري. كانت أشد جَلْدًا من زوجها، وكان بعضهم يقول إنها تفوقه دماثة أخلاق وكرما، كانت تجمع في ذاتها، بوصفها تقيّة مثل قديسة، الخصال الأربع التي كانت المرأة تعتبر بفضلها امرأة ممتازة، فلا يأتيها الرجل بضرة ٣١، لم تكن تعرف الحسد، كما لم تكن تضايق زوجها.

ذات ليلة، رأت ويلوري حلما. رأت فيما يراه النائم أنها تأكل وجبة طَبَخَ أرزُها في الشمس ومَرَقُها في القمر (*). وعندما أنهت طبقها رأت نفسها تلد جَدْعًا أبيض كالجليب.

أذهلها هذا الحلم ولبلبها فحدّثت أباه عنها، وذهب هو لملاقاة الكاهن الأعظم أغا - نوتيوورو ٣٢ الذي كان يجيد، بشكل مذهل، تأويل الأحلام. حكى له حلم ابنته. اتكا أغا - نوتيوورو، بعد أن استمع إليه، على مرفقه واضعا ذقنه في كفه اليمنى، فتهلّل وجهه وطَفَقَ يضحك. ضحك طويلا ثم قال لأبي ويلوري:

ستضع ويلوري سبعة أطفال ذكور وطفلة؛ لكن لا أحد من الأطفال الذكور ستكون له ذرية؛ وحدها البنت سيكون لها طفل

(*) اجتماع الشمس والقمر، القطبين المتكاملين (مؤنث ومذكر - ذهب وفضة - ليل ونهار «الليل مؤنث في الفرنسية - مترجم»)، يدل هنا على فكرة الشمولية والتجانس. الأمر ليس اعتباطيا، مادام يتعلق بالعلامة التي تعلن الميلاد المقبل لباغوماويل، الطفل المبشّر به الذي سيرسّله جينو كي يقاوم نجس ديوال وينتصر عليها. وهذه الأخيرة، بوصفها أداة للشر، ليست مكتملة في خلقها وفائدة للتوازن، مادامت مكونة فقط من عناصر ظلامية.

ذكر، وسيكون طفلاً مباركاً؛ سيتجسد هذا الكائن الملعن، أولاً وقبل تكوينه، في نجم عظيم. سيبزغ هذا النجم كل مساء من جهة الشرق، عند مغيب الشمس غرباً؛ وكل صباح سيغيب غرباً عندما تكون الشمس تشرق شرقاً (*). وبمجرد أن تصبح ابنتك حاملاً، لن يعود النجم إلى البزوغ لا عند مشرق الشمس ولا عند مغيبها. سيكون هذا النجم قد ثوى في أحشاء ابنتك حيث سيتجسد طفلاً.

سيكون طفلاً متمتعاً بالرعاية الربانية، لأن مصيره هو أن يقاوم بشدة نجدو ديوال، الكارثة العظمى. سيدوم صراعهما سبعة أعوام؛ وخلال هذه السنوات السبع سيواصل البلد تحمل الشقاء الذي أصابه جراء فعل نجدو ديوال، عندما حبست الأمطار المخصبة التي ما عادت تسقط كي تحيي النباتات والكأ، وعندما منعت الحيوانات من الولادة، وأبيست مجاري المياه، إلى درجة أن المسافرين العطاش ما عادوا يجدون ما يبلون به ريقهم أو يُورَدُون منه مطاياهم.

لكن بعد هذه الأعوام السبعة، ستعود الأرض - التي سترتفع حرارتها بفعل نفَس نجدو ديوال، إلى درجة أنها ستحرق الأقدام - إلى طراوتها.

ستكف الأشجار عن التحليق مع كل هبة ريح كأنها قد زودت بأجنحة، ستكف عن أن تطير، متوجهة فجأة كي تغوص تحت الأرض والضياع فيها.

(*) تعود هنا إلى الظهور تيمّة النجم المبشر الذي يقدّم، فضلاً عن ذلك، على أنه تجسيدٌ قبليّ لياغومايل. ومادام هذا النجم يبرز من الشرق مساءً ويغرب من الغرب صباحاً، فهو بمنزلة بديل للشمس؛ وبمنزلة حضور للضوء العلوي في قلب الظلام.

كل أسقف القش التي أنشئت لتوها، تفقد - بفعل الأعمال السحرية للمشعوذة العظمى - قشها في اليوم التالي كأن الأمر يتعلق بسقف حيوان شَيْهَم، فتجتاح الشمس الحارقة داخل الكوخ؛ لكن الظلال التي غادرت داخل المسكن، ستعود إليه وسيصبح الجو من جديد محتملا ولطيفا.

عندما سحرت نجدو ديوال البلد، عمدت إلى حبس تعويذة الفولانيين الخيرة ٣٣، منبع قوتهم، في يقطينة معدنية؛ ثم أغطست اليقطينة في صخر، وأخفت الصخر في أكمة من تراب، ووضعت الأكمة في جزيرة صغيرة؛ وبعد ذلك، قذفت بالجزيرة الصغيرة وسط بحيرة مالحة شاسعة (*) وهيجت أمواجها الغاضبة، حتى فاق ارتفاعها ارتفاع أعلى الجبال، قاذفة بمن يريد الاقتراب منها بعيدا.

عندما أخبر أبو ويلوري زوج ابنته بدلالة الحلم، ذهب هذا الأخير ليسأل أغا - نوتورو إن كان ثمة من توضيحية يقدمها للحيلولة دون أن تجهض نجدو ديوال زوجته عندما تصبح حاملا.

ضرب أغا - نوتورو الرمل، ثم فحصه بعناية. كانت النتائج الست عشرة متطابقة. قال:

ها، ما عليك أن تقدمه قربانا؛ عليك أن تبحث عن خروف من نوع كوبو - نولو وتقدمه صدقة لرجل أصم أخرس أعور.

(*) يتم، هنا، اقتراح امتداد شاسع - بحر أو محيط - يتمنّع على كل إمكانية للقياس. ومادام يشكل حقيقة تنتمي إلى عالم آخر، فإن بإمكانه أن يكون شاسعا أو غير قابل للعبور بالنسبة إلى البعض، أو سهل العبور بالنسبة إلى آخرين. لقد أخفت نجدو ديوال منبع قواتها في قلب محيط ما بين العوالم، حيث لا يستطيع أحد أن يصل إليه.

بدا با - وامندي مبلبلا، لأنه كان يجهل ما عساه يكون خروفا
من هذا النوع، فقال: أرجوك، كن طيبا وفسر لي ما يكون خروف
كوبو - نولو - كوبو - نولو، أجاب أغا - نوتورو، هو خروف أبيض
الصوف، عيناه بلونين مختلفين: واحدة لونها داكن، والثانية
لونها لَبَنِي.

- هل هذا فقط ما يميز هذا النوع من الخرفان ؟
- لا. صوفه لا بد أن يكون أبيض دائما (*)، وكذلك إحدى
عينيه، أما العين الأخرى، فيمكنها أن تكون داكنة كما يمكن أن
تكون حمراء.

شكربا - وامندي أغا - نوتورو بحرارة، ثم أخذ طريق العودة
إلى بيته سعيدا مثل عريس. وبما أنه كان يحمل بعض قطع
الغوري النقدية، فقد توجه إلى سوق الخرفان كي يشتري خروفا
من نوع كوبو - نولو، سميناً وناصع البياض. من حسن حظه أن
عثر بسرعة على الحيوان الذي يبحث عنه. وعكس المعمول به،
سلم صاحبه الثمن من دون أدنى مجادلة.

شرع يجر خلفه، بحبل، خروفه كوبو - نولو، وهو يبحث عن
رجل أصم أخرس وأعور. لم يكن هذا الأخير، بالتأكيد، من أنواع
الناس الذين يمكن العثور عليهم بسرعة، لكن الصلوات، عندما
تُؤدَّى، تصبح الأشياء الأشد ندرة في متناول اليد، لأنه يصبح
للسماء دخل في المسألة! بعد بضع ساعات من البحث والتجوال
عبر أزقة وطرق البلد، لم يلتق با - وامندي برجل أصم

(*) البياض، لون الحليب (السائل المقدس بامتياز، بالنسبة إلى الفولانيين)، هو رمز الطهر، إذن فهو مقدس.

أخرس أعور، بل التقى برجل أحذب أعور أعرج أصدف. حياه
باحترام كبير وقال له:

هل يمكنك، يا أخي، أن تقدم لي معلومة؟

قال الأحذب، الأعور، الأعرج، الأصدف، مندهشا:

لماذا لا تضحك مني كما يفعل الآخرون، عندما يلتقون بي؟

- ولماذا أضحك منك؟

- لأن بنيتي مشوهة ومظهري غريب ومثير للضحك، على

ما يبدو. ألا تجدني مثيرا للسخرية؟ ألا ترى في فرصة لإشباع

سخريتك؟ لماذا لا تهزأ بي مثل بقية الناس؟

أجاب با - وامندي وهو أقرب إلى الشفقة على الرجل منه إلى

الضحك، عيناه دامعتان:

أنت يا أخي لم تصنع نفسك بنفسك. إنك لم تشتري من

السوق حالتك التي توجد عليها. من يضحك من مظهر شيء

إنما يضحك، بطريقة غير مباشرة، ممن صنع هذا الشيء. ومن

جهتي، فإنني لا أرى فيك البتة رجلا يدعو إلى السخرية، لأنك

على الشاكلة التي أراد جينو أن تكون عليها.

انفجر الرجل، الأحذب، الأعور، الأعرج، الأصدف بضحكة

ابتهاج وقال:

- ما المعلومة التي تبحث عنها؟

- أنا أبحث عن رجل أصم أخرس أعور.

- ولماذا تبحث عنه؟

- لأسلمه هذا الخروف الذي نصحني أغا - نوتيوورو بتسليمه

إليه هو وحده وليس البتة لغيره.

- هل يمكنك أن تسلمني نواة كولا كي أنشط أضراسي وحفنة

نشوق أنشقها وأسرح خياشيمي؟

كانه بفعل المصادفة، كان با - وامندي يحمل معه علبة بها نويات الكولا وعلبة نشوق مترعة بنشوق «المونغلا»، مطحونة بعناية ومعطرة. بدلا من أن يسلمه با - وامندي قدرا من النشوق ونواة واحدة من نويات الكولا، أعطاه علبة النشوق بأكملها وكل علبة نويات الكولا. قسم ذو العاهة أضخم النويات إلى جزأين، قادر كل جزء على ملء فم بكامله، ثم تناول جزءا منها وشرع يعضه بأسنانه، وسلم الجزء الثاني لبا - وامندي، داعيا إياه أن يفعل مثله.

بعد ذلك أمسك باليد اليمنى لبا - وامندي، فمه مترع بالكولا، وتنحى به جانبا. لنجلس هنا، قال له؛ فمهما تكن مدة الجلوس قليلة، فهي دائما مفضلة على وضعية الوقوف. الجلوس مريح.

جلس الرجلان على الأرض مباشرة، أحدهما قبالة الآخر. آنذاك فتح الرجل الأحذب، الأعور، الأعرج، الأصدف علبة النشوق التي سلمه إياها لتوه با - وامندي. وضع من النشوق قدرا ما بين إبهامه والسبابة ثم استنشقه بشقي أنفه معا مع إحداث صوت صفير مميز. سالت من عينيه دمعتان. مسحهما بظهر كفه اليسرى وقال:

هكذا إذن؛ أنت تبحث عن رجل أصم، أخرس، أعور، ولم تتخرج من سؤالي عنه. هل سألتني لأنني أنا أيضا أحذب، أعور، أعرج، أصدف، أم أنك سألتني لسبب آخر؟

أجاب با - وامندي: يحصل مرارا أن نعثر على جوهرة نادرة في بركة ماء صغيرة، بعد أن نبحث عنها، سدى، في المحيط الأعظم (*).

- وإذن، يا با - وامندي، إن الذي لا يستنكف عن سؤال الجميع، لهُوَ متأكد من العثور على بغيته. إن فعلك الحسن وتقديركَ يُلْزِمَانِي جدا. لذلك سأخبرك بالمكان الذي يمكنك أن تعثر فيه على الرجل الذي أُشِيرَ عليك به.

لقد بنت نجدو ديوال الكارثية، أم البؤس والكآبة، مدينة ملغزة سمّتها ويلي ويلي (الاثنان معا، الاثنان معا). وقد حبست فيها أخي التوأم «سيري»، لأنه يحمل سرّا يمكنه أن يؤدي إلى هلاكها. وكما أنني، أنا عبدو، أحذب، أعور، أعرج، أصدف، فإن أخي سيري، من جهته، أصم، أخرس، أعور. تحبسه نجدو ديوال في دهليز كانت تريد أن تحبسنا فيه معا، لكنني أفلحت في الضرار. لقد كبلت أخي بالحديد، وكى تتأكد من عدم قدرته على الضرار عبر أزقة المدينة، جردته من ثيابه، فتركته دون قميص أو سروال. وكل يوم يُضرب، عاريا ومكبلا، إلى أن يُنْهَكَ تماما من قبل خدم نجدو. ستعثر إذن على من تبحث عنه في مدينة ويلي - ويلي.

بعد أن أطلع عبدو الأحذب، الأعمى، الأعرج، الأصدف، با - وامندي على كل الأسرار الخفية المرتبطة بأخيه سيري، أخرج

(*) يدل هذا الجواب على أن با - وامندي لا يسعى أبدا إلى التقليل من شأن أي كان. هو ليس فريد نوعه؛ هو فقط يقدر الناس ويتمتع بذهن متفتح. هو يتصرف مثل أي شخص يسعى إلى التعلم. تلك هي خصال با - وامندي التي ستعمل الحكاية على إبرازها باستمرار، والتي يجب على كل مريد أن يتمتع بها: خفض جناح النذل والاستقامة واحترام الآخرين، فضلا عن الرافة.

من جيبه طلسمًا وقال له: احمله على جيدك. سيمكنك من الوصول إلى ويلي ويلى من دون أن تصاب بمكروه.

في الطريق إلى ويلي - ويلي.

شكربا - وامندي عبدو كما ينبغي له ثم عاد إلى بيته وشرع يستعد للسفر. في الغد، في الصباح الباكر، حمل على كتفه جرابه وجر خلفه كوبو - نولو، وغادر البيت آخذًا طريق ويلي ويلى، حيث سيعثر بالتأكيد على سيرى، الرجل، الأصم الأخرس، الأعور، الذي هو ملزم بأن يسلمه الخروف.

مشى با - وامندي؛ مشى منذ الصباح وإلى أن أصبحت الشمس في كبد السماء، قاذفة الأرض بحرارة منهكة، ترغم كل مسافر على البحث عن ملجأ.

ذهب كي يستريح تحت شجرة كثيفة الأوراق. ولم يكد يأخذ مكانه، تحتها، لبضع لحظات، حتى رأى سربًا ضخما من الجراد يقترب. احتل الجراد منطقة الظل وشرع يرقص حول با - وامندي وينشد:

با - وامندي، يا با - وامندي، ما وجهتك؟

- أنا ذاهب إلى ويلي - ويلي، البلدة الملعنة لنجدو ديوال.

- وما الذي تبحث عنه في تلك المدينة المنفرة الجهنمية،

والخالية تماما من النساء، إلا من البنات السبع لنجدو ديوال

الكارثية؟ إن عيون ويلي - ويلي لتجري دما؛ وأرضها أكثر

إحراقا من النار؛ وكل يوم، تنهي نجدو ديوال وجبتها بشرب

دم فتيان.

أجاب با - وامندي:

أنا أسوق إلى ويلي - ويلي خروف كوبو - نولو هذا الذي أمامكم كي أهبه إلى سيري الرجل الأخرس، الأعور، الأصم، أخي عبدو، الرجل الأحذب، الأعور، الأعرج، الأصدف. أجل، سيكون الخروف كوبو - نولو خروف خلاص سيري، الأصم الأخرس الأعور. وحدهما سيري وأخوه عبدو يقفان في وجه نجدو ديوال، لأن سيري يعرف السر الذي بإمكانه تجريد المشعوذة من كل فعالية أو سلطة، وحرمانها من الوسائل التي تمكنها من اجتياح هيلي ويويو.

أجل، فبفضل سحرها أصبح سكان هيلي ويويو غارقين في بؤس فظيع! وقد كف الأطفال هناك عن العدو والقفز. يبدو السكان منهكين كأنهم قد قضوا النهار ينقلون أحمالا ثقيلة من الحطب الجاف. إنهم يقومون، في الآن نفسه، وبلا هوادة، بعمل مضمّن ولا جدوى منه، لكن لا أحد منهم، في المقابل، يملك وجبة طعام بمنزله. تضعهم نجدو ديوال في وضعية شبيهة بوضعية رجل يُطلب منه أن يصنع خزفا من طين جاف. صاحت عميدة الجراد (*):

آه، يا با - وامندي! لقد خلقنا جينو وجمع فينا مميزات عدة حيوانات^{٣٤}. دعنا نحك لك حكاية:

ذات يوم، كنا شارعين نحلق، متجمعين مثل سحابة عظيمة. وكنا قد نزلنا بحقلك العائلي وبمسكنك الشخصي، وقمنا بالتهام كل شيء. لم نستثن أوراق أية شجرة مثمرة.

(*) الجراد المتكلم: منذ أن بدأ با - وامندي رحلته، ولج عالما آخر؛ عالم الأشياء «الخفية». فهو يحصل على ملكات جديدة ويمكنه أن يفهم لغة الحيوانات. وتعد هذه الحميمية بين الإنسان والحيوان خاصية أخرى متداولة في الحكايات الأفريقية.

ثقبنا أرض حقلك ووضعنا بيضنا كي نستطيع معاودة الاجتياح السنة التالية. والحال أنك على الرغم من ذلك، عندما وجدت، يوما، الأطفال يعبثون بجراد لا أجنحة له، وإذن لا دفاع له، عمدت إلى تخليص صغارنا. إن هذا الفعل الكريم الذي أقدمت عليه في مقابل العمل الشرير الذي ارتكبناه في حقلك، يلزمنا اليوم بأن نعرب لك عن اعترافنا بالجميل. نحن نعلم أنك متوجه إلى ويلي - ويلي. أنت تعرض نفسك إلى موت محقق؛ ونحن نتقدم إليك بعوننا: خذ بعض فضلاتنا وحافظ عليها في جرابك بعناية. فقد تحتاجها في يوم من الأيام.

استجاب با - وامي لما طالبت به؛ ملأ كيسا صغيرا من فضلات الجراد ووضعها في جرابه. بعد ذلك ودع الجراد المجتاح وواصل طريقه، صاحب خروفه خلفه.

خلال اليوم الثاني من رحلة با - وامندي، صادف في طريقه عرس سلاحف. كان عدد السلاحف كبيرا، إلى درجة أن المرور كان شديدا الصعوبة. خاطبته كبيرة السلاحف:

أنت أيها الرجل ذو الخروف!

هل تهت أم تراك فقدت صوابك؟ أي سوء حظ ساقك إلى هذا المكان الذي يُحظر على الجميع ولوجه؟ المؤكد أن ساعة حتفك قد أزفت وإلا لما كنت اليوم موجودا بهذا المكان!

في هذه اللحظة تقدمت سلحفاة صغيرة، هي ابنة ملك السلاحف، وقالت لأبيها:

آه يا أبت!

إنني أتكفل بحماية با - وامندي، وأضمن له السلامة. لقد سبق لهذا الرجل أن عثر علي، في حفرة، أحتضر من الجوع والعطش، عاجزة تماما عن الخروج من الحفرة اعتمادا على إمكانياتي الشخصية. آنذاك، أوقف رحلته وأخرجني من سجنني ثم حملني وأوصلني إلى بركة يتصل ماؤها بماء نهرنا. وعندما وصلنا إلى البركة أدخلني إلى الماء ووضعني في عمقه، وهو يسعى إلى جعلني في مأمن من أي نَهَابٍ محتمل.

قال ملك السلاحف متعجبا:

أنتم يا قارعي الطبول! اعزفوا بصوت مرتفع نشيدنا الملكي على شرف با - وامندي! وبينما شرعت تصعد نغمات النشيد المبتهجة، أمسك ملك السلاحف بكف با - وامندي، ثم رفعها عاليا وشرع يحركها بود وهو يصيح: بوركت يا با - وامندي، يا منقذ طفلي الوحيد، وريث عرشي! نحن على علم بأنك متوجه إلى ويلي - ويلي، مدينة نجدو ديوال الكارثية. اعلم أنك ذاهب في اتجاه محن مرعبة، إن لم تكن متوجها نحو موت محقق.

بعد قوله ذاك، أمر الملك أن يأتوه بقطعة من درع سلحفاة، تحتوي على قدر من تراب صلصالي، ثم سلمه لبا - وامندي: خذ! ضع هذا في جرابك. لا تَضعه واحرص على أن يكون باستمرار في متناول يدك. عندما تجد نفسك، يوما، في مأزق، اكسره واقذف بقطعه في النار. هذه هدية نقدمها لك عريون اعترافٍ بطيبتك وكرمك.

أطنب با - وامندي في شكر ملك السلاحف (*). بعد ذلك شقوا له طريقا فواصل مسيره نحو ويلي - ويلي، مرفوقا دائما بخروفيه.

كانت الشمس قد غابت لتوها خلف الأفق. لكن با - وامندي لم يتوقف، رغم ذلك، عن المشي. استمر يمشي إلى أن ارتفعت أولى صيحات الديك. كان قد بلغ به التعب كل مبلغ، واستولت عليه رغبة لا تقاوم في النوم، فانهار على الأرض. هل كان ما يشاهده حلما؟ هل كان حقيقة (**). رأى قطيعا كبيرا من الكلاب يحوم حول وكر لحشرة الأرضة. شرعت الكلاب، عندما انتبّهت إلى وجوده، تنبح. أخذت تُرعرع براطيلها وتكشر عن أنيابها وهي تسارع نحوه، مستعدة لتمزيقه. في تلك اللحظة خرج كلبٌ رعي ضخمٌ من بينها وصاح: توقفوا يا إخوتي! اسم هذا المسافر هو با - وامندي، وهو رجل خير وصدقة. سبق لبأ - وامندي ذات يوم أن عثر علي مختبئا في ممر، وأنا في حالة مرض مميتة، مجتاحا بالجرب وبالقرد الشره الماص للقليل من الدم الذي كان بقي فيّ، مهددا إياي بالهلاك المحقق. كانوا يطردونني من كل مكان، لأنه لا أحد يحب كلبا مريضا. حينئذ أخذني با - وامندي وساقني إلى بيته ومكنني من طعام فقال لي اختبئ حيث أضع ذرتي. التجأت إلى حيث أشار عليّ، وطيلة بقائي ثمة، لم يتركني أحاج شيئا؛ أتاني باللحم وأتاني باللبن. كنت أكل حتى أشبع وأخذ راحتي كما أشاء. وكان با - وامندي يعالجني.

(*) السلحفاة: انظر الهامش الرقم ١٨، من الملحق.

(**) التعجب الفولاني التقليدي أمام ظاهرة شاذة أو غير طبيعية.

وعندما استرجعت عافيتي كلفني بحراسة قطيعه المكون من الغنم والماعز السمين. بتلك الطريقة استعدت صحتي ونشاطي إلى أن حان اليوم الذي راودتني رغبة الرجوع إليكم. وحتى في تلك اللحظة، لم يعرقل أبدا عودتي.

هيه يا با - وامندي! أنت إذن مُرَحَّب بك في بلد الكلاب التي تحوم حول وكر الأرضة العجيبة ٣٥، وسيأتي خالي الملك ليسلم عليك.

لحظتئذ، شرع كلب مريض، تساقطت كل أسنانه، تسيل من عينيه دمعات كبيرة ويتدلى من فمه لعاب، يتقدم نحو با - وامندي وهو يرتعش بشدة. لعق يدي با - وامندي وقدميه، ثم قال:

إن من تحدث إليك لتوه هو ابن أختي. لقد كنت رجلا طيبا في معاملتك له. وأنا الآن حريص على شكرك، لأن على فعل الخير أن لا يجازى، عند الناس المحترمين، إلا بفعل الخير. أنا أعلم أنك في طريقك إلى ويلي - ويلي. أجل، لقد بنت نجدو ديوال الكارثية تلك المدينة الخفية التي سمتها ويلي - ويلي (الاثنان معا، الاثنان معا)، والحال أنه كان عليها أن تسميها هيلي - هيلي (تكسير كل شيء، تكسير كل شيء!).

أمسك الكلب العجوز ٣٦ بالسائل المتخثر حول حافتي عينيه وسلمه لبا - وامندي فقال له: خذ هذا ولفه في قطعة ثوب واخفها في جرابك. فانت إذ تتوجه نحو ويلي - ويلي، فإنك سائر، لا شك في ذلك، نحو موت محقق. فربما كان عليك، ذات يوم، عندما تجد نفسك في مازق وبلا عون - أن تضع في بعض

الأعين هذه المادة التي قدمتها لك لتوي، بعد أن تخلطها بكحل مر ٣٧، ثم أضاف إلى العلبة بعضاً من مسحوق الكحل المرومن رماد المطيخ.

قبل با - وامندي، ممتنا، كل ما قدم له. شكر بحرارة ملك الكلاب وواصل طريقه.

بعد لحظات أفضى به المسير، فجأة، إلى مكان تتخذ الضفادع مأوى لها. كانت الضفادع مقطوعة الذيل، تقفز في كل اتجاه. وعندما انتبهت إلى وجود با - وامندي شرعت تصيح: ماذا دهاك أيها الرجل ذو الخروف؟ ما وجهتك؟ أكون حياتك قد أشرفت على نهايتها؟ لو لم يكن الأمر كذلك لما خطرت ببالك أبدا فكرة التوجه إلى ويلي - ويلي، وبالأخص أن تسلك الطريق التي تمر وسط مأوانا. لذلك، فأنت الآن ستؤدي ثمن جراتك وتهورك. اقتربت ضفدعة صغيرة من با - وامندي متقافرة:

ألم تتعرف علي؟ سألته. لقد سبق لك أن طوقتني بعمل خير؛ والدور علي الآن لأرد لك الجميل. - أنا ما عدت أتذكر الآن أنه قد سبق لي أن التقيت بك من قبل، قال با - وامندي.

- من المعتاد أن ينسى فاعل الخير ما قام به، فذلك أمر مستساغ، عقب الضفدعة الصغيرة. إن ما لا يُقبل ولا يليق هو أن ينسى المستفيد من فعل الخير. وأنا، من جهتي، لا أنسى من شملني بفعله الخير.

ذات يوم، كانت الشمس حارقة، فكدت أموت عطشا. شرعت أشعر بالهم ممض. آنذاك انتبهت إلى وجود أنية من طين مملوءة

ماء، موضوعة تحت شجرة. عاودني الأمل وشرعت أقترب من الآنية كي أروي عطشي من مائها، لكن فم الآنية كان عاليا كما أنه كان ضيقا بالنسبة إليّ. كل محاولة مني للقفز كي أدرك فم الآنية، كانت تنتهي بالانزلاق. كنت أنزلق وأندحرج ثم أنقلب على ظهري فلا أعود أرى قدّامي سوى السماء.

لحظتئذ، مرق طفل بدين، هو بالتأكيد ابن صاحب الآنية الخزفية. وجدني منهكة تماما، وأنا أئن على الأرض، على حافة الهلاك. كنت ألث مثل كلب عطشان. أمسكني الطفل البدين من ساقي وربطهما إلى حبل ضاغطا بقوة، إلى أن انتصبت أذناي. رفع الحبل الذي ربطني به، فوجدت نفسي معلقة، الرأس إلى الأسفل، وشرع يعدو وهو يؤرجحني. وصدقوني أن تلك الأرجحة لم تكن تشبه في شيء هدهدة طفل لجعله ينام، بل كانت، بالأحرى، اهتزازات تجعلني أغثو بأحشائي! امتلأ بطني بالهواء إلى أن كاد ينفجر، وتورمت ساقي المكبّلتان. وكان الطفل يتلذذ بشدة من رؤيتي على تلك الحال البائسة.

آنذاك كنتَ تدخلت يا با - وامندي، وخلصتني من الطفل. كنت خلصتني من الحبل ونهرت الطفل ومنعته من أن يعاود فعلته. أنا لا أذكر الآن ما كنتَ سلمته إليه مقابل تخليصي، لكنني أذكر أنك كنتَ سلمته شيئا ما. إن ما لا يمكنني أن أنساه هو ما قمت به من أجلي، وما حال بيني وبين الهلاك.

خرجت أم الضفدعة الصغيرة من الصف واقتربت، متهادية، من با - وامندي. غث بين قدميه بجوهرة بيضاء مستديرة في حجم بيضة طيرٍ أكل الذرة وقالت:

أنت يا من يشمل الحيوانات والدواب بأفعاله الخيرة، يا من يعطف حتى على فراخ ضفادع المياه الدافئة والبركات الموحلة! إن الحيوانات الأرضية والحيوانات المائية، ودواب بلدات الغابات ممتنة إليك. وعصافير الحقول تلهج بمدحك على أغصان غابات أعالي الأدغال!

أنت يا با - وامندي! خذ هذه الجوهرة وضعها في جرابك؛ فهي ستكون لك ذات فائدة في يوم صعب أنت الآن، لا شك، مقبل عليه. فالذهاب إلى ويلي - ويلي يعني الذهاب نحو الموت! وضع با - وامندي الجوهرة في جرابه.

قالت: جرت العادة، إن التقدير، بل الامتياز، يكون من حظ من يعترف بالجميل أكثر مما يكون من حظ فاعل الخير، لأن الجحود هو من جبلة الإنسان.

بعد ذلك، حيا با - وامندي أم الضفدعة الصغيرة على طبيعتها وحيا بقية الضفادع ثم واصل طريقه.

كان الوقت مايزال باكرا والجو منعشا. مشى با - وامندي ساحبا خلفه خروفه، لساعات طويلة، مستفيدا من طراوة الصباح. كانت الشمس مختفية خلف سحب، لكنها، عندما ارتفعت في السماء بمقدار أربع عَصِيَّات لرمح كبيرة، ثقت أشعتها الحارقة السحب ونشرت حرارة كانت من الارتفاع بحيث بدا الكون منها جامدا. لا هبة هواء واحدة! شرع با - وامندي يفرز عرقا مدرارا. لكن على الرغم من أن الحركان يخنقه، واصل المسير، لكن بصعوبة بالغة، لأن الطريق، فضلا عن الحرارة، كانت تصبح أكثر وعورة؛ فهي مرة منحرفة، ومرة محفورة، وأحيانا

متعرجة وصعبة، ومرات ضيقة، إلى درجة أنه كان يتساءل كيف يمكنه المرور مع خروفه.

وبما أن المصائب عندما تأتي، تأتي مجتمعة، فإن با - وامندي قد لمح، في الأفق الشرقي، تجمعاً شاسعاً للسحب، شبيهاً بجبال متراسة. كانت بعض تلك السحب ميالة إلى البياض، وكانت أخرى سوداء نيلية وأخرى لونها أزرق. كانت تلك السحب تتقدم ببطء كأنها قطعان غنم ترعى في سهل. لا شك في أن الأمر يتعلق بعاصفة هي قيد التكون، ما دام با - وامندي قد رأى وميضاً ينير الفضاء. لا شك في أن السماء ستفتح أبوابها لإغراق الأرض.

هبّت الرياح فجأة. شرعت تدلف في أوراق الشجر وفي جبة با - وامندي، مما جعل مشيه شديد الصعوبة. كان عليه، كي يتقدم، أن يميل بقوة إلى الأمام، إلى درجة أنه كان يبدو آيلاً للسقوط على وجهه، كل لحظة. كان يُميل رأسه كأنه يتفادى الصفعات التي كانت الزوبعة تقذف بها صُدْغُهُ. كان يسحب خروفه بيمينه ويسخر يسراه، بصعوبة بالغة، ليُلصق أطراف جبته على جسده، ساعياً إلى منعها من أن تنتفخ أكثر.

رفع با - وامندي عينيه لينظر إلى الأفق. بدت له التماعة أفقية واضحة بين سحبيتين، ثم التماعة أكبر متشعبة. لا شك في أن عاصفة ضخمة ستنفجر.

لم يكن الوقت مناسباً كي يَبْتَئِلَ لا هو ولا خروفه. لم يعد يستطيع أن يتقدم وقد نال منه التعب، وشرعت جبته المنتفخة بالهواء تعيق مشيه، فالتجأ إلى شجرة وجعل تحتها يدعو جينو:

يا جينوا! امنع السماء من أن ترسل ماءها على الأرض! استمرت الرياح تهب بقوة. وكانت الشجرة التي التجأ إليها با - وامندي تقع في منحدر أشجاره شائكة. كانت الطيور الشعثاء متشبثة بالأغصان الممتدة وهي تتمايل، حسب اتجاه الرياح، مرتفعة أحيانا مثل أمواج مائجة، أو تهوي في الفراغ مثل مركب يغرق. وعند كل هبة، كانت الرياح توقف ريش الطيور فتغدو أذنانها شبيهة بمروحة.

هل تمت الاستجابة لدعوات با - وامندي؟ فما هي إلا هنيهة حتى أعادت العاصفة إغماد سهام نارها التي كانت تتوعد بها الأرض بالإحراق، وسكنت الريح. بدا كأن جينوا أراد ألا يبتل با - وامندي، الرجل ذو القلب الطيب، وخروفه. هدا الرعد واستحال مجرد صدى متباعد. كانت الرياح، جالبات المطر، قد أبعدت العاصفة فأصبحت السحب الداكنة الضخمة، التي كانت منذ قليل تظلم السماء، مستنيرة مثل مشروب خلط بالماء. أصبحت شفافا في انتشارها وهي تتداعى متموجة مثل كثران رملية. سارت السحب الصغيرة في أعقابها متعثرة، ثائبة ظهورها كأنها تشكل طريقا متعرجة.

آنذاك غادر با - وامندي ملجأه وواصل طريقه ساحبا خلفه خروفه في اتجاه ويلي - ويلي. بمجرد مغادرته للطريق الضيقة الملتوية (*)، أفضى به مسيره، فجأة، إلى سهل يصعب اجتيازه: كان عبارة عن امتداد شاسع لرمال دقيقة، يغوص الماشي فيها

(*) كل مرة تصادف في حكاية طريقا معوجا نسلكه أو نهرا نعبه أو جبلا نتسلقه، فإن ذلك يرمز إلى امتحان أو مرحلة علينا أن نقطعها على الطريق الروحي.

إلى الركبتين. وبمجرد هبوب رياح، ولو خفيفة، كانت ذرات الرمل تصبح مُعْمِية تخرز الجلد مثل آلاف من النمل المسعور. استطاع با - وامندي، بإرادة جينو ومساعدته، وبعد مجهود ومعاناة، أن يجتاز المنطقة الرملية القاتلة التي طالما ابتلعت، قبله، أكثر من رجل وأكثر من مطية (*).

لكن، وللأسف، بمجرد اجتيازه للسفح الرملي، وقع على قرية لحيوانات الشَّيْهم (**)، حيث كان يُعقد مجلس استشاري للعرش، هو في الحقيقة مجلس غير معتاد: كان الأمر يتعلق، بالأحرى، بمحاكمة. ومن الغريب أن المتهم كان هو الملك نفسه. كانت المحاكمة منعقدة بالساحة العمومية التي يقام على أرضها، كل سبع سنوات، احتفال شعبي. كان السكان جميعهم مدعوين لحضور الجلسة. وُضع الملك - الذي كان مريوطا مثل حزمة حطب، ومحمولا مثل جثة مبتذلة - وسط الدائرة التي رسمت كي يخضع ضمنها لتحقيق أولي.

أي جرم اقترفه، إذن، الملك حتى يعامل بهذه الطريقة المذلة ويعرض هكذا أمام محكمة شعبية؟ كان قد أمر، ذات يوم، وقد تعكر مزاجه، بقتل كل القروء الموجودة بمملكته. والسبب، كما كان يقول، هو أن هذه القروء غريبة عن المملكة وغير مرغوب

(*) منطقة الرمال: هي بلد التعلم. إن لم تجد أحدا يقودك، غصت فيها، مهما تكن فطنتك ومهارتك. وأن تفوص معناه أنك تسقط في الفخاخ المبتوثة على الطريق. إنها الوهم والسراب الإلهي. نضع نصب أعيننا هدفا ليس إلا وهما. نعتقد أننا وصلنا، لكننا إنما غصنا. ومن ثمة ضرورة وجود دليل موثوق به. وبأ - وامندي لم يستطع أن يتقدم في هذه المنطقة إلا لأنه محمي ومقود من طرف جينو.

(**) الشَّيْهم حيوان بري من الثدييات أشواكه بيضاء وسوداء. شبيهه بالقنفذ، لكنه ليس بقنفذ (المترجم).

فيها، وأنها مجرد عناصر مشوشة تمتص البلد وتُفقر المواليد الجديدة.

لم يستطع با - وامندي تصديق أذنيه، أو بالأحرى ما تراه عيناه. أن يعرض ملك على محكمة شعبية، فهذا أمر يمكن تقبله على مريض، لكن أن يكون مربوطاً مثل كومة حطب جاف، وأكثر من ذلك، بسبب قروود لم تكن تنتمي بالتأكيد لفصيلة الشيهم، فإن ذلك يتجاوز أي منطق. لكن الأمور هي كما هي، ويجب تعلم التكيف معها كما هي. فإذا كان من بين عادات ذلك الزمن أن يَفْرَك كل المدعويين بطونهم قبل تناول أي وجبة، فإن من لا يفرك بطنه قبل الأكل، قد يعاني عسراً في الهضم، ولا يكون عليه أن يلوم إلا نفسه.

كان الشاعر المغني المنتمي لفصيلة الشيهم قد لمح با - وامندي فاقترب منه وقال له:

من تكون أنت يا من لا ينتمي لفصيلتنا؟ أنت لست من هذا البلد. من أين أتيت؟ وإلى أين تتوجه بكل هذا الطيش؟ أنا أعتقد أنك قد نسيت رشدك في مكان ما، وأنت قد علقت حظك إلى غصن بغابة قريبك؛ وإلا فإنه ما كان عليك أن تأتي هذا اليوم. إن أي أجنبي يرى ما رأيته أنت لتوك، عليه أن يموت حالا. اعلم أيها الغريب؛ يا ابن آدم، أن الملك الذي تراه هكذا مربوطاً، ما يزال ملكاً. وهو يملك سلطة أن يحكم على أي غريب، إلى أن يزاح عن عرشه، وهو ما لم يتم بعد. والحال، أنه قد أمرني بأن أرميك بالسهم حتى الموت. تقدم! سأأخذك إلى مكان التعذيب، وهناك سأقذفك بأدواتي الحادة كلها دفعة واحدة. ستخترق جسدك وستموت!

ساربا - وامندي طوعا، في المقدمة، فتبعه الرامي وهو يقوده بصوته. عندما أدركا المكان، انتفض الشيهم بهمة فانطلقت إبره (أشواكه) مثل أسطر في اتجاه جسد با - وامندي. لكن، يا للمعجزة! سقطت إلى جانب جسده وانغrustت في الأرض مشكلة ما يشبه حاجزا. من الذي جعل السهام في تلك الحال؟ هل تكون اصطدمت بدرع ملغز؛ درع لا تستطيع أي عين رؤيته؟... في تلك اللحظة نفسها انبثق قنفذ من اللامرئي، وقال: أنتم يا معشر الشيهم! لو كان با - وامندي قد قُتل اليوم بسببكم، لكنتم جميعا قد هلكتم جراء شرٍّ مستطير. سأله الملك، على الرغم من كونه مقيدا مثل كومة حطب: من يكون إذن با - وامندي هذا؟ وأين ومتى قابلته؟ حكى القنفذ:

عرفت با - وامندي في يوم كان شرّه عظيما؛ عرفته ذات يوم وجدت نفسي، خلاله، محاصرا وسط حريق بالدغل. كانت النار، المندلعة بقوة، تتقدم بسرعة نحوي؛ وكانت السنة لهبها تلتهم بشراسة كل ما تجده في طريقها. شعرت بخوف عظيم وشرع قلبي يخفق بقوة، إلى درجة أن قوائمي تجمدت كأنها قد تورمت فجأة. قفز با - وامندي الذي كان يراقب المشهد، فوق السنة اللمب كي يصل إليّ. أمسك بي ووضعني في جرابه ثم قفز، على الفور، فوق النار كي يخرج من منطقة الحريق. بعد ذلك وضعني في حجر. وكى نرد له جميل خيره، أقام إخوتي القنافذ، التي لا تراها أعينكم، دائرة حوله. وقد قام كل واحد منا بصد سهم من السهام التي قذفها جلادكم، وغرشناها في الأرض. أما أنتم،

معشر الشيهيم، فتعرفون القوة السحرية التي نمتع بها، نحن القنافذ. وإذا لم تقوموا بإصلاح خطئكم بحكمة، فإننا سننزل بكم عقابا شديدا!

عندئذ تقدم أحد أفراد الشيهيم، وهو أعور، ساقاه معطوبتان؛ تقدم بصعوبة وهو يجر جسده المنهك، فجعل عنقه ينتصب ثم غثا بحبة من فاكهة الفوجي ٣٨ وقال: أنت يا با - وامندي! خذ هذه الفاكهة وضعها في جرابك.

ثم خاطب بقية حيوانات الشيهيم: كان لكم دائما رأي سييء عني. كنتم ترفضون أي نصيحة أقدمها لكم، وتعتبرونني مجرد غبي. لكن أن أكون دميما وأن يكون لي جسد مشوه، لا يعني بأي حال من الأحوال أن ذلك دليل غباوة! إن هذه الحال الخارجية لن تستطيع طمس البركة التي يودعها جينو داخل إنسان ما (*). أنت يا با - وامندي، واصل حديثه، كل هذه الفاكهة بمجرد أن تشعر بالجوع، ثم احتفظ بنوياتها في جرابك. ستكون ذات فائدة لك في يوم صعب، وسيأتي هذا اليوم حتما ما دمت متوجها إلى ويلي - ويلي.

شكربا - وامندي القنفذ وغادر حيوانات الشيهيم بعد أن سامحهم بحلم على ما بدر منهم من نية سيئة. واصل طريقه إلى أن أدرك نهرا. كان هذا النهر قد امتد إلى

(*) يعتبر المشوه جسديا، بشكل عام، مسكونا بالعفاريت ومهورا بقوة خفية. ويُعتقد أن التشوه الخلقي يحدث بواسطة قوة سحرية. سنلاحظ، دائما تقريبا، أن حيوانا مسنا أو مريضا أو مشوها، هو الذي يسلم لبا - وامندي هدية قيمة. ويذكرنا هذا بحكاية كايدارا حيث يظهر الرب دائما لحماذي في شكل رجل مسن ضئيل عموده الفقري معوج. وسيبارك حماذي لأنه لم يحتقر من يبدو لأول وهلة ذا مظهر منفر. يجب تعلم تقدير ما يوجد مخفيا خلف المظهر؛ ومن أجل ذلك يقال إن بإمكاننا أن نجد في بركة صغيرة جوهرة لا نستطيع العثور عليها في المحيط. (أو كما يقال عندنا: يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر) المترجم.

أن شرع يغادر حدوده مهددا بإغراق جزء من السهل. كان قد أغرق سلفا جزءا من جُرفيه العالين، متسببا في اقتلاع أشجار متعددة، وملتفا ما يقع على حدوده من نباتات. كان فيضانه العاتي قد التهم جزءا من غابات الجُزر الصغيرة التي ما عاد يظهر منها سوى النصف. وبفعل ضربات الأمواج المتكررة، بدا زيد أبيض على شفتي الوادي (*) شبيه بالذي نراه، أحيانا، على الشفتين الجافتين لرجل عطشان، تكلم لمدة طويلة.

والحق أن هذا النهر كان يختلف عن كل أنهار الدنيا: اسمه نهر غايوبلي، النهر السحري للفلولانيين (**). كان يصب في بحيرات شاسعة، وكانت به، في مواضع، أعماق كبيرة. كان كل جيب من جيوبه المائية يحتوي أنواعا لا تعد ولا تحصى من الأسماك، مختلفة الأشكال والأحجام. كانت الأسماك الكبيرة التي تعيش في المياه الأشد عمقا، تتغذى على الأسماك المتوسطة التي تقترب من أحجامها. وكانت هذه، بدورها، تأكل الأسماك الصغيرة التي تسبح فوقها؛ وهي أسماك سيووجي. كانت هذه

(*) شفتا النهر: الشاملتان.

غايوبلي (من غايو (هنا)، ومن بلي (بحيرات)؛ ويعني هذا الاسم أيضا النهر غامبي، الذي أطلق عليه فولانيو المنطقة اسم نهرهم الأسطوري... يعتبر المشوه جسديا، بشكل عام، مسكونا بالعفاريت وممهورا بقوة خفية. ويُعتقد أن التشوه الخُلقي يحدث بواسطة قوة سحرية.

سنلاحظ، دائما تقريبا، أن حيوانا مسنا أو مريضا أو مشوها، هو الذي يسلم لبنا - وامندي هدية قيمة. ويذكرنا هذا بحكاية كايديارا حيث يظهر الرب دائما لحماذي في شكل رجل مسن ضئيل عموده الفقري معوج. وسببارك حمادي لأنه لم يحتقر من يبدو، لأول وهلة، ذا مظهر منفر. يجب تعلم تقدير ما يوجد مخفيا خلف المظهر؛ ومن أجل ذلك يقال إن في إمكاننا أن نجد في بركة صغيرة جوهرة لا نستطيع العثور عليها في المحيط (أو كما يقال عندنا: يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر). المترجم.

(**) غايوبلي (من غايو: «هنا»، ومن بلي: «بحيرات»؛ ويعني هذا الاسم أيضا النهر غامبي، الذي أطلق عليه فولانيو المنطقة اسم نهرهم الأسطوري.

الأسماك الأخيرة، عندما يغيب القمر، أثناء فصل الشتاء، تغادر جيبها المائي وتصعد مع تيار النهر. كانت رحلتها تستمر إلى أن تدرك البحيرة المسماة بحيرة العُباب. وثمة، كانت تستغل فرصة صعود المياه وما ينتج عن ذلك من فيضانات، كي تنتشر في السهل، فتعرف كل سمكة منها، بدقة متناهية، المكان الذي تضع فيه بيضها. وكان انحسار الماء يصادف تفريخ البيض، فتجد السمكات الوليدة نفسها مَقُودَة إلى النهر، فتنزل مع مجراه منفصلة عن أمهاتها، ذاهبة كي تعيش حياتها الراشدة، ملتجئة كل واحدة منها إلى أحد جيوب الغايوبلي المائة والثلاثة عشر، مستقرة عند مستوى العمق الخاص بنوعها ٣٩ .

دخل با - وامندي النهر السحري، محاولا اجتيازه سباحة بصحبة خروفه. كان نجودا، التمساح ذو الذيل القصير ٤٠، القابع في مكان غير بعيد، قد لمح كوبو - نولو وسيده يسبحان في اتجاه الضفة المقابلة. ظن الزاحف الضخم، ذو الترس السميك، أن لديه الآن، قريبا من أسنانه، مؤونة أكل تكفيه لعدة أيام. ضغط فكيه بقوة، وجعل ما تبقى من ذيله ينتصب مستقيما، ثم ولج النهر. كان أنفه المنتصب على السطح يشق الماء كما يشق المقص الثوب. كان يَظْهَر شريطان أبيضان يَنْشَقَّان إثر مروره. تقدم بسرعة مصمما العزم على الإمساك بالخروف ذي العينين متعددتي الألوان، أو بمالكة الطائش، أو حتى، ولم لا، بهما معا. سبح با - وامندي وخروفه مطمئنين غير واعييين بالخطر المحقق بهما. وعندما أدركا الضفة المقابلة وشرعا يستعدان للخروج من الماء، التحق بهما الجارح المائي ذو الجلد الداكن

والأسنان التي في شكل منشار. فتح فمه على مصراعيه. وعلى الرغم من قصر ذيله، فقد قوسه وقذف به كي يأسر، بضربة واحدة، با - وامندي وخروفيه؛ فلا يبقى له بعد ذلك سوى جرهما إلى المياه العميقة كي يخنقهما ويفرقهما.

ولو كان التمساح نجودا قد تنبأ بما سيؤول إليه فعله لما كان قد قام به البتة بكل ذلك التسرع والتصميم. وبالفعل، فقد كان فرس النهر نجابو، يوجد قريبا من المكان. قذف التمساح بذيله بقوة، لكن بدلا من أن يقبض على با - وامندي وخروفيه، وجد نفسه، في الهواء، بين فكي نجابو القويين. أطبق الحيوان البرمائي ذو القوائم الأربع، دفعة واحدة، فكيه الكبيرين الضخمين القويين مثل مصراعين من حديد، واللذين يسندان أسنانه، ثم أطلق حممة رهيبة، وهو يمسك بفريسته، مسرعا في الوصول إلى اليابسة. كان التمساح المسكين معلقا في فم فرس النهر مثل فاكهة باوياب مبتذلة، فبدا ذيله متدليا مثل عنقود.

خرج با - وامندي من النهر مرتعش الجسد. لقد أفلت هو وخروفيه من موت محقق! أرجح نجابو، فرس النهر، التمساح ثم قذف به إلى أبعد مدى ممكن. كان نجودا المسكين مقذوفا في الهواء مثل حجر قذفه مقلع، عندما قطعت انقذافه شجرة باوياب كانت موجودة على بعد أمتار من المكان، فظل معلقا بين أغصانها. عندما سقط على الشجرة، كان قد ارتطم بفاكهة باوياب فسقطت على الأرض مصدية مثل جرس. آنذاك صاح نجابو فرس النهر:

أنت يا با - وامندي! خذ الفاكهة التي سقطت لتوها وافتحها!

سارع يا - وامندي إلى الفاكهة وفتحها بحجر. لم تكن الفاكهة تحوي، مثلما هو معتاد، خبز قرد، بل - يال لأعجوبة! - كانت بها جمجمة. نعم، جمجمة؛ هي الجمجمة نفسها التي كان بويتورينغ قد وضعها في خانة مركز النجم، والتي كانت قد حكّت وتنبأت ٤١. صاح نجابو: أنت يا با - وامندي السعيد! لو كانت فاكهة أخرى، غير البواباب، قد سقطت، لكان ذلك إشارة إلى موتك. خذ هذه الجمجمة وضعها في جرابك، فهي ستكون لك ذات نفع في يوم عويص. آنئذ اسألها وستكلمك كما سبق لها أن كلمت جدك بويتورينغ وابنه هيليري. سأل يا - وامندي: - ما الذي قمت به، حتى أستحق أن أفلت بهذه الطريقة من الخطر العظيم الذي كان محدقاً بي؟ فلولا تدخلك، يا نجابو، لما كانت قد أخطأتني الأسنان المدببة لضاري المياه ذي الجلد الداكن!

أجاب نجابو، الذي كان في الحقيقة فرس نهر أُم: ذات يوم - قالت - وكنتُ أُرضع وليداً صغيراً، حصل لي أن ذهبتُ أبحث عن الكلاً في حقل أرز يوجد بقريتك. كان صيادون يتربصون بي، مستعدين لقتلي، لكنك منعتهم، مذكراً إياهم بأن العرف يحظر قتل أنثى مُرضع، ونبّهتهم إلى أنني أنثى فرس نهر.

وقد رأيته قبل قليل تلج النهر صلبة خروفاً، وكنت أعلم أن الجشع ذا الذيل القصير يسعى إلى الفتك بك، فكمنت في المكان المناسب، مما مكنتني من أن أمسك بذيله قبل أن يمسك بك ويخروفاً.

شكربا - وامندي بحرارة نجابو، فرس النهر الأم، ثم أخذ
الجمجمة ووضعها في جرابه وواصل طريقه نحو ويلي -
ويلي.

بعد نصف يوم من المشي، ولج با - وامندي سهلا صخوريا
حيث سيري ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. كانت بيضات عنكبوت،
في هذا السهل، شائعة في سحق صخورا بمجرد أن تلمس بيضة
صخرة، كان تستحيل الصخرة مجرد غبار. شرع با - وامندي،
في قمة اندهاشه، يراقب هذه الظاهرة الغريبة. وبالفعل،
ما الذي عساه يكون أكثر غرابة من أن يكون بيض العنكبوت -
رمز الضعف والهشاشة - آخذا في سحق صخور (*)؟

قالت عنكبوت ضخمة سوداء ٤٢، معلقة إلى شجرة بخيط
غير مرئي من صنعها، للمسافر: أنت أيها الرجل، من أين أتيت
وما وجهتك؟

- قدمت من بلد هيلي ويويو، وأنا متوجه إلى ويلي - ويلي،
البلدة السحرية لنجدو ديوال.

- وما الذي تبحث عنه في ويلي - ويلي؟

- أنا أبحث عن سيري؛ الرجل الطويل، الأصم، الأخرس،
الأعور؛ أخ عبدو، الرجل القصير الأحدب، الأعور الأعرج،
الأصدف.

(*) هذا المثال الجديد لقلب الظواهر (انظر الهامش ٢٤ من الملحق) يدل على أن با - وامندي
قد ولج عالما لا يخضع للقوانين الطبيعية. نعثر في هذا العالم الآخر على نار لا تحرق، وعلى
ثلج يذفئ... إلخ. إنه عالم «التساكنات المتوازية» حيث تنعدم قواعد الطبيعة (انظر الالتماعه
ص ٥٣).

يدل المشهد أيضا على أن شيئا هشا يمكنه أحيانا أن يبدو أقوى من شيء صلب المظهر. ويقال:
«أمر ما تافه يحطم أحيانا مملكة».

- تزود من بيضي، قالت العنكبوت، وخذه معك. ذات يوم صعب، ستصلح لك قدراته لقضاء أمر ما. لم يتردد با - وامندي؛ أخذ مجموعة من البيض ولفها ثم وضعها في جرابه.

هو الآن يحمل في جرابه سبعة أشياء غريبة: فضلات جراد كان يرقص رقصته المألوفة؛ وقطعة من درع سلحفاة تحتوي بعض التراب الصلصالي؛ وبعض السائل الجاف المأخوذ من عيني كلب عجوز مريض مخلوط بكحل مر؛ وجوهرة معجزة غاثت بها ضفدعة؛ وحنة فاكهة فوجي صفراء ناضجة مهداة من قبل حيوان شيهم مشوه الجسد؛ وجمجمة هارية أخرجت من حبة فاكهة بابواب؛ وأخيرا بيضات مكسرة للصخور مهداة من قبل عنكبوت أم. أجل، تلك هي الأشياء السبعة المفارقة للعادة التي توجد في الجراب الضخم لبا - وامندي المعلق إلى كتفه.

واصل با - وامندي طريقه، فأفضى به المسير إلى سهل شبيه بغابة شاسعة؛ لكن بدلا من أن تكون هذه الغابة مملوءة بالأشجار، كانت تنبت فيها مسامير صخرية دقيقة ومسننة مثل إبر تبدو كأنها تريد أن تخترق السحاب. وعلى كل قمة، كان يثبت على ساق واحدة، طيرٌ بلشون وهو يتفحص الأفق متفكرا. كان لون بعض الطيور رماديا ولون بعضها الآخر أرجوانيا، في حين كان بعضها أبيض ناصعا. وكانت الريشات التي تزين رؤوسها ملساء مثل الحرير وتلمع مثل جواهر نفيسة. وكانت معلقة إلى كل زغبة من حوصلتها أو جانبها جوهرة تصلح لأن تكون مهر ملكة.

عندما رأت طيورُ البلشون ٤٣ با - وامندي شرعت تُحرك
أجنحتها وتصيح:

- أهلا يا با - وامندي! أهلا أهلا ثم أهلا با - وامندي، سائق
الخروف كوبو. لكن يا با - وامندي إلى أين أنت ذاهب هكذا؟
- أنت يا طيور البلشون، في قرية طيور البلشون! أجب با -
وامندي، أنا ذاهب إلى ويلي - ويلي، بلدة نجدو ديوال.
- أنت إذن، يا با - وامندي، قالت الطيور الأنيقة متعجبة،
متوجه إلى حتفك! فنجدو ديوال تحيا بدم الفتیان، وأنت الآن
لست بعيدا عن هدفك.

غير بعيد عن المكان، كانت بعض طيور اللقلق ٤٤، سوداء اللون،
بطونها بيضاء، واقفة على بعض المسامير الصخرية وهي تُلَقَم
أفاعي وفئراناً صغاراً ذات الزغب الشبيه بقذی قش. عندما
سمعت اللقالق با - وامندي يصرح بأنه متوجه إلى ويلي -
ويلي، صفقت بمناقيرها: ما الذي حصل لك، إذن، في حنجرتك
وجعلك تشتهي الموت؟ إن ذهابك عند نجدو ديوال الشريرة يعني
أنك ذاهب إلى حتفك المحقق!

اكتفى با - وامندي بأن أجابها: أنت يا طيور اللقلق، يا فال
الخير! دلني على مكان ويلي - ويلي؛ أما ما عدا ذلك، فلتكن
إرادة جينو!

- توجد ويلي - ويلي خلف جبل ليس ببعيد عن ها هنا،
أجابت الطيور ذات المناقير الطويلة؛ لكن ذلك الجبل الذي
تلامس قمته السحاب، هو جدار غير قابل للعبور. ثم، عندما
تصل إلى سفحه، ابحث في جرابك واستشر الجمجمة التي

سبق لأجدادك أن استشاروها. هي ستخبرك بما عليك القيام به كي تنتصر على ذلك الحاجز!

شكربا - وامندي بحرارة طيور اللقلق وواصل طريقه. وبعد سويعات من المشي السهل، وجد نفسه فجأة على قدم الجبل الجدار. آنذاك أخرج من جرابه الجمجمة المتكلمة ورجاها:

أنت أيتها الجمجمة، يا مستشارة أجدادي! أستحلفك باسم شجرة البواب التي التجأت إلى فاكهتها، خبريني بما علي القيام به كي أخترق هذا الجدار ذا الصخور السمكية.

- ابحث عن حطب شجرة الفوجي، أجابت الجمجمة، ثم أشعل فيه النار. وعندما تحصل على جمرات متقدة، ضعها في قطعة درع السلحفاة وصب فيها فضلات الجراد، ثم أحرق الكل، وسترى ما ستري!

انطلق با - وامندي باحثا عن حطب شجرة الفوجي. عثر بسرعة على بقية جذع من هذه الشجرة محاطا ببعض الغصون الجافة. كسرهما وجمعها ثم أضرم النار في الحطب الجاف. وفي وقت وجيز حصل على الجمرات الضرورية.

فتح جرابه وأخرج قطعة درع السلحفاة وفضلات الجراد. وضع الجمرات المتقدة في قطعة الدرع وقذف فيها بالفضلات الجافة التي سرعان ما التهمت. انبثق منها دخان مبيض صعد مستقيما في الجو، وشرع يتكثف ويضرب ويستدير من طرفيه مثل قضيب معدني.

شرع هذا القضيب العجيب يضرب بعنف الجدار الصخري. وبعد ضربات متكررة، فتحت في الجبل كوة على قدر من السعة

تكفي لمرور با - وامندي وخروفيه، فدلنا فيها على الفور. كان
الممر التحت - أرضي المفتوح، طويلا ومعتما، تطلب عبوره من
قبل المسافرين وقتا وجهدا.

عندما أدرك با - وامندي هدفه، وبمجرد خروجه من النفق،
رأى أمامه مدينة ويلي - ويلي تمتد من الشرق إلى الغرب. كانت
من الشساعة بحيث لم يستطع أن يلمح طرفيها، ولم يُدرك
كيف حُمل، في طرفة عين، إلى شارع كبير من البلدة!

ومن عجب أنه لم يرا أو يلمح، على الرغم من وجود المنازل
ذات الطابق، أي علامة على وجود حياة أو حضور إنساني. واصل
مشيه، من دون أن تكون له وجهة محددة. بعد أن تجول لمدة
طويلة، انتهى بأن وصل إلى ما بدا أنه ساحة سوق. لكن، بدلا
من أن يرى، كما هو طبيعي، جمعا من البائعين الشارين،
لم ير إلا حيوانات؛ وأكثر من ذلك، حيوانات تقوم بأشغال غريبة
تماما: كانت كلاب تعرض، في بهو كبير، ذرة بيضاء تحملها قرود؛
وفي مكان آخر، كانت إناث قرود تقدم حليب جاموس لخنازير؛
وتيوس نتنة تحدث بصوت مرتفع طيوراً عملاقة؛ وسلاحف
تحدث همسا فهودا.

وأبعد، كان حمار يقف في معمل حدادة وهو يصنع مجرفات
ومديات ومسامير وإبرا. وكان قنفذ ينفخ في الكير. كان الحمار،
الذي يستعمل فمه للإمساك بالأدوات التي يضرب بها الحديد
ساخنا وباردا، يطلق، قبل أية عملية نهيقا خاصا.

ظل با - وامندي مندهشا حائرا فيما عليه أن يفعله أمام كل
هذه الأمور التي يفوق بعضها بعضا غرابة. قال في نفسه:

من المؤكد، أن الأمر يتعلق هنا بكائنات متحولة مسحورة! حينئذ تذكر، فجأة، التحالف الموجود بين الفولانيين والحدادين؛ فتوجه رأساً إلى مشغل الحمار، وخاطبه قائلاً:

(نهارك سعيد أيها الحداد ذو الأذنين الطويلتين، والذي يحرك أدواته بفكيه!)

- نهارك سعيد، يا مُخْتَال الفولانيين! أجاب الحمار. أنا أراهن على أنك، بدلاً من أن تجد نفسك أنت مثيراً للسخرية، تعتقد أنني أنا المثير للسخرية. وفضلاً عن ذلك، ما الذي تفعله هنا أنت وخروفك؟

- هو ليس لك، أجاب با - وامندي. أنا ذاهب به إلى شخص يوجد هنا بهذه المدينة، لكنني لا أعرف مكانه على وجه التحديد. إن استطعت أن تقدم لي معلومات في هذا الشأن، ستكون أرواح أجدادي وأجدادك راضية عنك، لأن فعلك ذاك سيكون ربما ذا جدوى بالنسبة إليك وبالنسبة لكل هذه الكائنات التي أراها هنا متحولة بشكل غريب.

- إذن، أمسك نفسك جيداً؛ فأنا سأصدر ريحا ستحملك أنت وخروفك إلى مكان ستري فيه ما ستري.

أمسك با - وامندي بقوة بحبل خروفه. أصدر الحمار صوتاً عظيماً مُرْعِداً. كانت النفخة من القوة بحيث ارتفع رفيقانا وقُذِفَ بهما بعيداً. سقطا على كومة فلفل انسحقت حباته من وقع الارتطام، فارتفع غبار دقيق واجتاح با - وامندي فوخز عينيه وأنفه بشكل مؤلم. سألت دموعه بغزارة. أراد، مُعَمًى، أن يمسح عينيه بظهر كفه فأقلت منه حبل كوبو، وفر الخروف على

الفور مسارعا إلى طريق وهو يطلق غشاء عاليا.

عندما وصل با - وامندي إلى الطريق، لاحظ أن الخروف قد اختفى. وعندما سمع، بعيدا، غشاء الحيوان، انطلق يعدو في الطريق مرهفا السمع وهو ينظر يمينا وشمالا، متوقفا بين الفينة والأخرى كي يحدد وجهته بدقة. عندما أدرك تشعبا من طريقين، لم يعرف أيهما يسلك، لأنه ما عاد يسمع صوت الخروف. حينئذ ردد عبارة الفولانيين: «ديالينغا - ديالينغا» (*). دلته آخر كلمة على طريق اليمين، فانطلق فيها من دون تردد. بعد مسافة، عثر على الحيوان مشغولا تماما بحك جزته.

بالموازاة مع حك الحيوان لجزته الصوفية، كانت تنبعث شرارات وتحط على نوع من بهو معدني هو مدخل لبناية لا علم لأحد بوجودها. اقترب با - وامندي من الخروف. في تلك اللحظة مرق كائن غريب يعتمر رأسا آدميا على جذع شجرة كايلسدرا. وكانت تحمله قائمتان عظيمتان لنعامه. خاطب هذا الكائن الإنساني النباتي الحيواني ٤٦ با - وامندي:

أنت أيها الرجل، يا سييء الحظ! ما الذي قادك إلى هذا المكان المحظور على كل كائن حي، تحت طائلة موت عنيف؟ لو علمت نجدو ديوال بوجودك هنا لبعثت لك بجلادها كي يخصيك ويعلقك من ساقيك ويمزق لحمك إربا إربا، قبل أن يقطع رأسك! إن أردت أن تتجنب هذا المصير المشؤوم، سلمني خروفاك.

(*) كانت في الأصل صيغة سحرية يتم ترديدها للعثور على الطريق. فبمجرد نطق اللفظة الأخيرة نعرف أي طريق نسلك. أما اليوم فتستعمل الصيغة، بالخصوص، في لعب الأطفال.

ويدلا من أن ينفذ با - وامندي ما أمر به، سأل هذا الكائن الغريب عن اسم هذا المكان الذي يوجدان فيه وعن أية غرفة يقود إليها هذا البهو المعدني.

البهو، أجاب الكائن الهجين، يفضي إلى غرفة تحبس فيها نجدو ديوال أعداءها ومن يرفض أن يكون في خدمتها.

- أنا أشكرك على معلوماتك، أجاب با - وامندي. أما بالنسبة إلى الخروف الذي طلبته مني، فإنه لا يمكنني أن أسلمه لك لأنه ليس في ملكيتي. لقد كُلفت بأخذه إلى ويلي - ويلي كي أسلمه إلى سيري الأصم، الأعور، الأخرس، الذي يوجد محبوسا بها. والحال، أنك، على ما يبدو، بعيد كل البعد عن أن تكون هذا الرجل.

- بالفعل، أجاب الرجل - النباتي - الحيواني. فأنا لست لا سيري ولا عبدو الذي يصغره سنا، الرجل الأحذب، الأعور، الأعرج، الأصدف. وفجأة، ومن دون أن يضيف كلمة واحدة، اختفى.

أثناء ذلك، واصل الخروف حك جزته. وكانت الشرارات التي تنبعث منه تحط مجتمعة على باب البهو. انتهت بأن أذابت القفل، لكن المصراع ظل مغلقا. كان المصراع من الثقل بحيث لا تفلح ثلاثة فيلة في فتحه. ولكن، وعلى شاكلة كبش يستعد للنطح، تقهقر كوبو - نولو، ثم انقذف على المصراع الذي انفتح بشكل مُعجز، فولج الخروف البهو متبوعا ببا - وامندي.

كان البهو يفضي إلى ساحة مزروعة بمسامير مسننة تغطي الأرض بكثافة مثل شوك على ظهر قنفذ. صدر صوت:

يا ويل من فتح لتوه باب البهو لولوج الساحة المحظورة!

في اللحظة نفسها دوى صوت شبيه في قوته بهزيم رعد، فاصمّ با - وامندي. ثم اختفى خروفه وكأنه بفعل السحر. شعر من جديد بالضيق. ما العمل؟ ماذا يقول؟ إلى أين يتوجه؟ بمجرد وضعه للسؤال، أظلمت السماء فوقه. بزغ فيها وميض، متبوعا بهزيم رعد كان من القوة بحيث جعل الأرض تميد، فأغشي على با - وامندي.

أحس، وهو نصف فاقد لوعيه، أنهم يحملونه ويضعونه على الأرض. شيء ما لعق ذراعه. فتح عينه قليلا. كان كوبو - نولو، وقد بدا من جديد، بشكل معجز، وهو يوقظه بتلك الطريقة اللطيفة (*).

رأى أنه قد وُضع على مدخل عش حشرة أرضية ضخمة، مصنوع من طين أصفر فاقع، نحتت عليه تضاريس عملاقة تنتهي بنوع من القباب الشبيهة بتلك التي نراها على قمم منازل أو فوق بعض التلال. أدارت الملكة ظهرها لبا - وامندي، مبرزة له بطنها الضخم الشبيه بسلحفاة عملاقة من الوادي المالح. أما الملك، الذي كان رأسه أضخم من رأس فيل صغير، فقد وقف في وجه با - وامندي. وفي رمشة عين، ومن دون أن يعرف أحد كيف حصل ذلك، ازدرت الأرضتان العملاقتان الخروف كوبو - نولو، دون أن تتركا له أثرا. بعد ذلك تجشأتا، كما يفعل البعض بعد وجبة طيبة.

(*) أغشي على با - وامندي قبل أن يصل أمام عش الأرضة حيث سيعثر على سيري، وهو ما يمثل أول وأكبر مرحلة من بحثه. بمعنى آخر، فإنه يفقد الوعي الخاص بعالمه الاعتيادي. إنه عبور إلى مستوى آخر من الوعي؛ تغيير في المسار، أو هو موت صغير. أما الوعي، من جهته، فقد استعيد بحركة من الخروف المعجز، أي بواسطة عون من القوى العلوية المجسدة في هذا الحيوان المبارك.

خرجت الأرضات - العاملات، اللاتي يوازي حجم كل واحدة منها جسم تمساح ضخمة، من مسكنها مهتاجة، باحثة عن مكان تختبئ فيه. شرعت كل واحدة منها تحفر ثقباً في الأرض، على الرغم من صياح الملك والمملكة، وهما يأمرانها بالبقاء حيث هي. انتهت كل الأرضات بأن اختفت تحت الأرض.

انقذت المملكة، فجأة، على ذكرها والتهمته ثم عدت في اتجاه عش الأرضات للاحتماء به. لكن العش انهدم على نفسه كما لو كان بفعل سقوط مطر متواصل، فأنكشف سيري؛ الرجل الأصم، الأخرس، الأعور للعيان، واقفاً وسط العش. لاحظ با - وامندي أن سيري لم يكن أعور، أصم، أخرس فقط، بل كان أيضاً أحذب من خلف ومن أمام. كان عنقه مغلولاً وأطرافه مثقلة بسلاسل مربوطة إلى جذع شجرة كايلسدرا. وجسده مكسوا بحروق وجروح يقات منها دود.

اقتربت ملكة الأرضات من سيري. وقالت: سلامتي رهينة بك أنت؛ أنت وحدك. إن سيدتنا نجدو ديوال؛ الساحرة العظمى، ذات العينين الحمراءوين الشبيهتين بشمس المغيب، هي التي أمرتنا، زوجي ورفقائي وأنا، أن نثقلك بالحديد، وأن نبني مسكننا حول جسدك حتى لا يستطيع أحد تخليصك. بعد ذلك، عمدت إلى إحاطة عشنا بسور عالٍ وأملس، لا تستطيع حتى عظامه أن تتسلقه دون أن تنزلق وتسقط على الأرض. لم نجعل لهذا السور سوى مدخل واحد: بهو معدني مغلق بشكل سحري، بواسطة باب مصراعه من السمك والثقل بحيث لا يستطيع حتى صاعقة أن تخترقه.

سألها سيري - الذي تخلص من صممه وخرسه، وكأنه بفعل
السحر، منذ أن ولج الخروف كوبو - نولو داخل السور:
- لماذا تحبسني نجدو ديوال وتعاملني بكل هذا السوء ليلا
ونهارا بضربي بالسوط وبالحديد الأحمر؟
- أنت تملك سرا قاتلا بالنسبة إليها، أجابت الملكة. والحال
أنها لم تستطع لا أن تجردك منه ولا أن تجعلك تقبل أن تصبح
حليفها كي تساعد على تجويد عملها المتمثل في تخريب بلد
هيلي ويويو وإبادة سكانه عن طريق النار والماء والهواء والجفاف.
كل ما كانت تقدر عليه هو أن تحبسك كما فعلت.
إن حريتك تعني نهايتها. لقد فتح البهو بأعجوبة، ولا أدري
من فتحه. لقد أزفت ساعة سراحك؛ فمن المأثور أن سراحك
سيحصل عندما يختفي خدمي في الأرض وعندما ألتهم زوجي،
بعد أن نكون معا، هو وأنا، قد ازدردنا كوبو - نولو. أنا لا أعرف
من أدخل كوبو - نولو إلى مسكننا، ولا كيف تم ذلك. ومهما يكن
الأمر، فنحن نوجد الآن أمام واقع قائم. والآن، عليّ، كي أحافظ
على سلامتي، أن أعر على مخبأ آمن.
أشفق سيري على ملكة الأرضات. لم يكتف بأن سامحها، بل
نسي أيضا، في اللحظة نفسها، كل الآلام التي قاساها بسببها (*).

(*) لأبطال الحكاية: با - وامندي وسيري وباغوماويل، دائما، موافق نبل وكرم وتسامح وشفقة
تجاه كل المخلوقات الحية، حتى الشريرة منها؛ مما يكون مقابله، كأن الأمر يتعلق بجزء، أن
يحظوا دائما بعون غير منتظر في اللحظات الأكثر حرجا. ففي الموروث الفولاني، يحظى
التسامح بتقدير كبير؛ إذ تتم مسامحة حتى من يقترب أكبر أذية. أما الانتقام فيعتبر رد فعل
مؤسفا. ويقال بأن الرجل الذي يستطيع التحكم في نفسه لا ينتقم. لا يعتبر الانتقام في التعاليم
الأفريقية أمرا مرغوبا فيه ولا ذا قيمة. يترك للإنسان حق الانتقام إن تعرض لأذى، لكنه يكون
مستحسنا أن يصفح، وإن لم يسامح، فإنه، أيضا، لا يؤخذ بشيء.

ما الذي عليّ أن أفعله كي أجنيك انتقام نجدو ديوال؟ سألها.
- اضغط سبع مرات على بطني بالأصابع الثلاث الأولى
ليدك اليسرى، محتفظا بالأصبعين الآخرين مثنيتين. أجابت.
نفذ سيري من دون تردد. انفجر بطن الملكة على الفور، بفعل
ضغط أصابعه، مثل دمّل. خرجت منه سحابتان عظيمتان،
إحدهما داكنة وكثيفة مثل الليل، والأخرى منيرة وخفيفة مثل
النور. ارتفعتا معا في الفضاء. التحقت الأولى بالليل فضاعفت
عتمته والتحقت الثانية بالنهار فضاعفت وضوحه.

ذابت السلاسل والأغلال التي كانت تقيد سيري كما تذوب
الزبدة بفعل حرارة الشمس. في لمح البصر، تخلص ليس فقط
من قيوده، بل شفي أيضا بأعجوبة من جروحه وعاهاته. فهذه
الآخيرة لم تكن ناتجة، بالفعل، كما هو الشأن أيضا بالنسبة
إلى أخيه عبدو، إلا عن سحر نجدو ديوال، وقد بطل هذا السحر
الآن.

بمجرد أن استعاد سيري عافيته وشكله العادي، بدا رجلا
حسن الهيئة قويا مثل ثور.

عندما رأى با - وامندي أمامه، خاطبه قائلا:

- هيه يا با - وامندي! لقد انتظرتك سبع سنوات. عند كل
مشرق شمس، كنت أمل أن أراك قادما رفقة الخروف كوبو. وعند
نهاية كل يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، كنت أزداد فقدا للأمل. لكن،
أن يحصل الأمر متأخرا خير من ألا يحصل أبدا (*). أنت الآن هنا،
وهأنذا متحرر، ليس فقط من سجنني، بل أيضا من عاهاتي.

(*) مما يعني حرفيا: «أن يدوم ذلك زمنا طويلا أحسن من أن لا يحدث أبدا».

عندما تلفظ بتلك الكلمات انتفض بقوة وتمطى مثل رجل أفاق لتوه من نوم طويل وثقيل، ثم واصل قائلاً:
لنغادر هذا المكان فوراً، فنجدو ديوال لن تتأخر في معرفة ما حصل. والحال أن ما حصل يعتبر علامة شؤم بالنسبة إلى سلطتها.
مرحلة جديدة نحو المجهول.

غادر سيري وبا - وامندي المكان عدواً. وبمجرد خروجهما إلى الطريق، اقتلع سيري زغبتين من إبطيه الأيسر والأيمن، فeced أحدهما إلى الأخرى ونفخ فيهما، فتحولتا إلى أفعى يبلغ طولها أربع عشرة ذراعاً؛ ضخمة مثل جذع شجرة باوياب.

امتطى يا با - وامندي هذه الأفعى، واضرب جانبيها بعقبك. سينبت لها جناحان وستحلق في الهواء ٤٧ وستكون أسرع من البرق. لا يرهبنك الضجيج الذي ستسمعه خلفك ولا تلتفت، بأي حال من الأحوال، لترى ما يحدث من ورائك. وإن حصل أن لمسك شيء وبدا لك أنه على وشك الإمساك بك، لا تخف، وبالأخص، أكرر لك، لا تلتفت بأي حال من الأحوال! فلأمر علاقة بسلامتك!

امتطى با - وامندي الأفعى العظيمة ووخزها بعقبه كما يخز الفارس مطيته بالمهماز. وعلى الفور، حلقت الزاحفة الضخمة في الأجواء مثل طير، فابتعدت في السماء براكبها (*).

(*) أن يأخذ با - وامندي الأجواء، لأول مرة، وفوق ذلك، ممطياً حيواناً ذا درجة تلقينية عالية وذا قوى خفية كبرى، معناه أنه، هنا أيضاً، يكون قد غير مساره؛ بمعنى آخر، قد غير من مستوى وعيه؛ ومن ثمة أهمية النصيحة التي وجهت إليه بأن لا يستسلم أبداً للخوف وألا ينظر البتة «إلى الخلف»، وألا يعود إلى السقوط في ردود الأفعال التي تنتمي إلى مستواه الاعتيادي. فهذه مرحلة مهمة من بحثه، ويعتبر ذا دلالة أن تعرب نجدو ديوال عن ضيق، بالتحديد في هذه اللحظة وليس عندما أطلق سراح سيري.

في الآن نفسه، استولى ضيق رهيب على نجدو ديوال في مسكنها. بدا لها الجو ثقيلًا بشكل غير عاد، وصارت تتنفس بصعوبة وضاق صدرها. شرعت تتقلب في فراشها وهي تشعر بأن أمرا ما يحدث بالبهو المعدني. وكي تتأكد من إحساسها أرسلت جنيا من خدمها كي يتأكد إن كان كل شيء على ما يرام في عين المكان.

عندما وصل الجني الخادم إلى المكان، وجد باب البهو مواربا. دخل فلاحظ اختفاء عش الأرضة الأصفر الفاقع. وعندما رأى ما رأى، امتلأ بطنه بالرغبة في الإخبار^(*). أخذ طريق العودة مسرعا وهو يخاف أن يتمزق بطنه المترع^(**) وأن تفر المعلومات الموجودة به. لكن، وللأسف، على الرغم من الاحتياجات التي اتخذها، تمزق بطنه فانتشرت الأخبار على الأرض. جمعها بسرعة وأعادها إلى بطنه، ثم خاط التمزق. تمزق بطنه سبع مرات على الطريق التي تصل البهو المعدني بمسكن نجدو ديوال، وسبع مرات خاطها. عندما وصل أخيرا، ووقف أمام نجدو ديوال، شرع يتلعثم من الخوف: نج...نج... نجدو ديوال! لقد وجدت البهو مفتوحا. عش الأرضة اختفى وغاصت المسامير في الأرض مثل مخالب سنوري في حالة هدوء.

(*) يُستعمل، باستمرار، في الكلام الأفريقي، اسم «بطن» في مكان «رأس». لا يقال: «له هذا الأمر في رأسه» وإنما «له هذا الأمر في بطنه». يعتبر البطن نوعا من الذهن أو نوعا من مكان للقوى الأساسية. تعتبر تلك المفارة الأساسية الكبرى ملفزة إلى درجة أنها تحوي الأحشاء السبعة: البنكرياس والكبد والقلب والأمعاء والمعدة والكليتين والطحال.

(**) عبارة استعارية تشير إلى الخوف الذي يساور حامل الخبر من أن يسبقه آخر ويكشف السر.

عندما سمعت نجدو ديوال هذا الخبر، أطلقت سبع صرخات مدوية. اجتاحت حرارة مفاجئة كل جسدها. بلل عرق ساخن وجهها. لم تستطع البقاء حيث هي، فاعتملت وتلمملت، وبلغ بها الأمر أن لطخت ثيابها. وعندما عاودها بعض هدوئها، نادت سبعة عفاريات من خدمها الخدومين، وقالت لهم:

اذهبوا على الفور لتروا ما الذي يحدث بالبهو المعدني. إن عثرتُم بالمكان على سيرى الأصم الأبكم الأعور، أمسكوا به واقطعوا رأسه بهذا السيف. ثم سلمت رئيس العفاريات السبعة حساما صنعت شفرته من المزج بين سبعة معادن.

وقبل تصفية سيرى، أضافت، اذهبوا وافتحوا الفوهات السبع للجبال السبعة التي تحيط بويلي - ويلي. مُرُوا الجبال بأن تتقيأ النار من أحشائها، ولْيَلْتَهَمِ اللَّهَبُ سحب السماء ولتتحرق كل شيء على الأرض، بما في ذلك ذرات الرمل، وليستحل كل شيء رمادا! لتقض النار على كل مظهر من مظاهر الحياة وليُحبس كل تنفس، حتى لا يبقى شيء ثابتا على قاعدته ولا في حالته الطبيعية. هيا!

انطلق العفاريات مثل سهام، مستعدين لتنفيذ أوامر نجدو ديوال. وعندما أدركوا البهو المعدني، شرعوا يبحثون بعيونهم عن سيرى، لكنهم لم يعثروا عليه. (ربما يكون سيرى، خاطب العفاريات بعضهم بعضا، مختفيا في زاوية ما من البهو. هيا لتأكد من الأمر).

سار العفاريات مصطفىين واقتربوا، محاذرين، من البهو، مترددين في ولوجه على الرغم من أن المصراع كان مواربا.

كان العفاريت يتشاورون فيما بينهم عندما مرق سيري، فجأة، خلفهم. أمرهم سيري، في شكل تعزيم: ادخلوا البهو رغم أنفكم! تلك هي إرادة جينو (*).

شعر العفاريت السبعة بذواتهم تُجَلَّب كما لو كان بفعل مغناطيس. وعلى الرغم من مقاومتهم، وجدوا أنفسهم يسارعون إلى داخل البهو. التهبت القاعة على الفور فقضت العفاريت السبعة في النار. انغلق الباب الثقيل بأعجوبة واختفى البهو مع الأسوار تحت الأرض.

آنذاك، لم يكن با - وامندي ومطيته الطائرة، قد أصبحا سوى نقطة سوداء صغيرة على الأفق.

استشعرت نجدو ديوال ما حصل لتوه. انتفضت واقفة معتملة مثل نار أدغال عظيمة وتلفظت بسبع كلمات سحرية. احمرت السماء، على الفور، كأنها قد طليت بالدم، وتعمت الشمس وتخلت عن موقعها مقتربة من الأرض، صابة عليها حرارة جحيمية. استقدمت طيرا ضخما؛ قال البعض إنه طائر صائد طيور، يمتاز بقوة عظيمة أو عقاب صائد سمك. وقال آخرون إن الأمر يتعلق بعقاب أعالي الجبال الذي لا ينزل إلى السهل إلا في النادر. عملت نجدو ديوال على تثبيت كرسي على ظهر الطير العملاق، واقتعدته بشكل مريح.

أمرت حارسها ضارب الطبل بأن يقرع طبله المغشى بجلد آدمي. وبالموازاة مع انتشار صوت الطبل في الفضاء، كانت

(*) تدل هذه الكلمات على أن سيري، بدوره، ساحر كبير، لكنه، عكس نجدو ديوال، يتصرف باسم جينو، وفقط في الخير. وهذا يجعلنا نفهم أكثر لماذا أخذته نجدو ديوال أسيرا.

الحيوانات الأكثر افتراسا على الأرض تغادر أعشاشها أو جحورها كي تنطلق في تنفيذ مهمتها المتعلقة بملاحقة سيري وبا - وامندي. كانت نجدو ديوال قد علمت، بالفعل، أن الخروف كويو - نولو قد استقدم من طرف با - وامندي. قالت: عليكم أن تمسكوا بهذين الرجلين، مهما يكن الثمن، صرخت. وإلا فإن هذه نهاية حكمي!

وقبل أن تنطلق نجدو ديوال، حرصت على أن تستقر بناتها على أغصان كثيفة لشجرة كايسيدرا عملاقة، محاطة بأجمة من شجر السنط (*). بعد ذلك، أمرت طيرها أن ينطلق في الأجواء. كان سيري - بعد أن حضروفاة العفاريت السبعة وشاهد اختفاء الجدار والبهو تحت الأرض - قد تلفظ ببعض الكلمات السحرية. ومباشرة بعد ذلك، عاد كويو - نولو، الذي كان قد التهم، كما نتذكر، في رمشة عين، من طرف ملكة وملك حشرات الأرضة، للوجود، باديا أمام سيري، لكن في شكل أكبر من قبل. كان في حجم فرس أصيلة (**). امتطاها سيري وانطلقا في الاتجاه الذي أخذه با - وامندي، ممتطيا الأفعى المجنحة، وهو يقطع الأجواء.

انطلقت نجدو ديوال في ملاحقة با - وامندي. وبما أن مَرَكُوبَهَا كان ذا سرعة خارقة، فإنه سرعان ما لحق به. سعلت نجدو ديوال مرات متعددة، فخرج من خياشيمها على الفور،

(*) رمز للحماية الكاملة. فالكايلسيدرا هي بالفعل أشجار عملاقة وشجر السنط له أشواك تصبح موانع يستحيل تجاوزها.

(**) بعد موت كويو المؤقت، يعود إلى الانبعاث أكبر حجما. فباقتحام حالة المطية (وهي مرحلة جديدة)، يصبح الخروف المبارك مساعدا ثمينا لصديقه.

سرب دبابير ونحل. أمرتها أن تذهب وتخز الأفعى الطائرة إلى أن تؤدي التواءاتها إلى سقوط راكبها، ثم أن تنزل لتخز سيري الذي سيكون في مكان غير بعيد عن المكان الذي سيسقط فيه با - وامندي.

حلفت الحشرات في السماء مسلحة بشوكاتها. كانت من الكثرة بحيث حجبت الشمس وعمت السماء. طاردت با - وامندي، لكنه كان يختفي باستمرار خلف سحب شبيهة بجبال، بعضها أسود مثل الحديد وبعضها الآخر أبيض مثل حُرْم القطن.

كان طير نجدو ديوال يطفو على الأجواء مثلما يطفو مركب على الماء. وكان أحيانا يعلو إلى أن يبدو كأنه يلامس السحب، وأحياء أخرى ينزل أسفل فيبدو كأنه يريد أن يكنس الأرض. أما سيدته ذات العينين الحمراءوين، فكان شعرها أشعث مثل نبات متوحش، وأظافرها مسننة مثل رماح، وعقبها سميكين مثل مطرقتي حداد، وذراعاها قاطعين مثل سيفين، وفمها ضخما مثل مغارة، وأسنانها كبيرة مثل أسنان فرس نهر. أما ملابسها فكانت معدنية.

كانت الدبابير والنحل قد لحقت ببا - وامندي. أحاطت به متحفزة لوخزه هو ومطيته. تلا سيري، الذي كان يراقب المشهد عن بعد، بعض الكلمات السحرية. نتج عن كلماته دخان في شكل زويدة سرعان ما ارتفع في السماء. غشى الدخان الحشرات الطائرة، ثم تحول إلى نار ملتهبة أحرقت أجنحتها. عندما فقدت حاملات الشوكات هذه أجنحتها، أصبحت مثل

دودات ضخمة عديمة المهارة، فشرعت تسقط على الأرض مثل حبات برد مبتذلة.

عندما حصل اليقين لدى نجدو ديوال بأن جيش حشراتهما قد نجح في التنكيل ببا - وامندي، همزت طيرها منطلقة نحو الأرض لمهاجمة سيرى. لمحتة ممتطيا كوبو. فهمت على الفور، بغريزتها، أن سيرى قد أنقذ لتوه با - وامندي. انطلقت نحوه، لكن سيرى هرع نحو جبل في الأفق. عندما وصل إليه عزم عليه فانفتح والتجأ إليه مع مطيته. ظلت الفتحة موارية، فدلفت منها نجدو وطيرها. انغلقت ضفتا الفتحة على الفور فضغطتا على الطير. عَصَرَتْهُ بِقُوَّةٍ إِلَى أَنْ بَاضَ بِيضَةً. تكسرت البيضة فخرج منها جمعُ نملٍ، كل نملة منه مسلحة بأسنان حديدية قوية ماضية مثل مقص حدّاد (*). انطلق النمل نحو الجبل. في رمشة عين قرضه عن آخره. استحالت كومة الصخور الضخمة مجرد مسحوق حجر، فاندك إلى أن أصبح مثل سهل رملي.

كانت نجدو ديوال قد مكّنت النمل، بطريقة سحرية، من تحطيم الجبل الذي فتحه سيرى، هو الآخر، بطريقة لا تقل سحرية عن طريقة نجدو ديوال. وعندما لم تسمع نجدو أو تر شيئا يشير إلى وجود سيرى، اعتقدت أنه قد دفن تحت الرمال. امتطت طيرها الذي تخلص من ضغط الضفتين، فانطلقت لمطاردة با - وامندي، باحثة عن أثره بين السماء والأرض.

مسحت بعينيها كل الجهات، لكنها لم تر شيئا؛ لم تلمح ولو نقطة صغيرة في السماء؛ لم يبد لها أي أثر! صرخت بعنف،

(*) مقص حداد بسمك حديدي ينتهي بشفرة قاطعة قادرة على قطع المعدن.

غاضبة، معربة عن ألمها، زاعقة بخيبة أملها. والحال، أن صرخة نجدو ديوال كانت بقوة هزيم الرعد؛ كل الكائنات التي سمعت صرختها ظنت أن السماء تُدوي بقوة زلزلت الصخور وأمادت الأرض. وبالفعل، شرعت الأرض تهتز إلى أن اقتلعت جذور الأشجار. لا شيء ظل هادئاً. شرعت صحارى، ظلت إلى تلك اللحظة هادئة وصامتة مثل ليل بهيم، تغلي مثل ماء في أنية على نار. بدأت تفور مياه الوديان والبحيرات والأنهار، بل حتى مياه الآبار.

جف العشب والنبات الأخضر الواقع في المناطق الخصيبة. نفقت الحيوانات الموجودة بتلك المنطقة. لم يسلم من الكارثة حتى الحيوانات الصغيرة. كل الكائنات الحية أصبحت تحيا في رعب. شرعت تتصادم وتتداخل وتفقد ماء الحياة إلى أن تموت ببطء. كان القلق والعذاب من الشدة بحيث أصبح الكل يرى في الموت خلاصاً.

خلال ذلك، استمر با - وامندي يذرع الفضاء على صهوة أفعاه التي تخترق السحب مثل سهم مقذوف في الفضاء. وبالموازاة مع التواءات الأفقى واستقامتها، كانت المسافات تنتفي كما لو كانت تُبلع تباعاً. فجأة، شعرت الأفقى بأنها مطاردة. اضطرت فتحول ضراطها إلى زويدة قادرة على اجتياح كل ما يوجد خلفها.

رأت نجدو ديوال الإعصار المتأجج قادماً نحوها ففهمت من ذلك بأن با - وامندي يوجد من الجهة الأخرى. وجهت، نتيجة ذلك، طيرها، أمرة إياه أن يستعد، عندما تقترب الريح، للتحليق أعلى من الأفقى ومن با - وامندي. لكنها لم تكد تنهي كلامها

حتى تكاثف الإعصار بشكل كبير مشكلا ما يشبه جدارا يجمع بين السماء والأرض.

دخلت الأفقى مع المركوب المجنح لنجدو، في الفضاء، في صراع ثنائي عجيب؛ كانا يرتفعان عاليا إلى درجة أنهما كانا يلامسان عنان السماء حيث كانت تبدو النجوم كأنها ترعى مثل قطيع مطمئن، أو ينزلان إلى أدنى مستوى، بحيث يلامسان قمم التلال. كانا يبدوان كأنهما يلعبان لعبة الاختفاء عبر الفضاء، مقتربين من النجوم قصد الاختباء خلفها، ملامسين الصغيرة منها بأرجلها، دافعين المتوسطة، من دون أن يجدا نفسيهما في لحظة وجها لوجه، في أي مكان!

أخرجت نجدو ديوال ديكاً من صدرها. سفد الديك الطير فباض بيضة جديدة بين الأرض والسماء. أمسكت نجدو ديوال بالبيضة في الهواء ووضعتها في فمها كي تدفئها. عندما أصبحت البيضة حارقة قذفت بها في الإعصار. انكسرت البيضة على الإعصار فلطخته بسائلها اللزج. هدأت العاصفة على الفور كما لو بفعل السحر.

سعدت نجدو ديوال بذلك، فأمرت طيرها بالنزول. هوت من السماء نحو الأرض. انقذت في نزولها المدوخ بنجوم تصادم بعضها مع بعض مثل سمك جري مضطرب في ماء نهر. رسمت أذنان نجوم هاربة ممرات ضوئية كبيرة. نكست كل كائنات الأرض رؤوسها مخافة أن تصاب بالقذائف التي بدا أن السماء تمطرها بها.

كلما كانت نجدو ديوال تقترب من الأرض، كانت ترفع عينيها لتمسح امتداد السماء ببصرها، آملة أن تلمح با - وامندي

ولو في البعيد، أو أن تشعر بوجوده قريبا منها. عندما قطعت المرأة الشريرة هذا المضمار مرات متعددة من دون أن تكتشف شيئا، نزلت، غاضبة، من على طيرها. ضربت الأرض بعقبها وهي تعض سبابتها بعنف. وكل مرة كانت تعض فيها أصبعها، كان بصاق كثيف مثل فضلة دجاجة، ينتشر في الهواء.

أتى عقاب هرم من أعالي الجبال، مسرعا، مقودا بالرائحة، قاصدا الاستمتاع، فقالت له نجدو:

لن تستطيع تناول ما شممت رائحته إلا إن قبلت أن تكون في خدمتي وأن تنفذ أوامري حرفيا!
قبل العقاب.

إذن، فحلق. حلق عاليا، قالت، وابحث في الأفق كي تكتشف فيه آثار ابن آدم يمتطي أفعى طائرة. وبمجرد أن تلمحه اقلبه بالحبل ذي العقد الذي أسلمك إياه. إن ألصقته به، اسحب الحبل بقوة ثم ضع طرفه في نار متأججة.

- لكن، كيف سأصنع لأحصل على نار، بينما سأكون في الأجواء؟ سأل العقاب.

سلمته نجدو ديوال حجرين: أمسكهما بمخالبك. وعندما تكون في حاجة إلى نار، اقلدهما. ستنبعث شرارات وتلهب الحبل.

انطلق العقاب. ارتفع عاليا وولج السحاب ثم أسرع في الاتجاه الذي اعتقد أنه سيعثر فيه على با - وامندي. وبما أنه أسرع من الأفعى، فإنه لم يتأخر في رؤيتها. ضاعف سرعته. وعندما أصبح على بعد بضع أذرع، قذف في اتجاه با - وامندي

بالحبل الذي سلمته إياه نجدو ديوال. قطع الحبل، الذي كان أصلب من معدن، الفضاء محدثا صغيرا حادا. ونتيجة صوته الضّاج، علمت الأفعى أن قذيفة ما أُطلقت في اتجاهها فهوت نحو الأسفل بسرعة فاجأت العقاب. ارتطمت في طريقها بسحابة عظيمة ذهبت بدورها لترطم بسحابة أخرى. نتج عن ذلك صوت مدوّ مصمّ. أصبح الجو ملتهبا كأن النار قد أضرمت فيه. انبعث من السحب المرتطمة لسان لهب عظيم امتد إلى أن أصاب الأفعى. لم تستطع أن تتجنب اللسان الناري في الوقت المناسب فاحترق جناحاها وأصيب جسدها.

تراجعت ثم شرعت تسقط متدحرجة مثل صخر، منكفئة على نفسها، بينما ظل با - وامندي متشبثا بقوة بظهرها. بعد بضعة انقلابات هويا بطريقة مدوخة نحو الأرض، حيث لا شيء يمكن أن يحول دون انسحاقهما.

شاهد سيري، في آخر لحظة، سقوطها. نزل بسرعة خاطفة من على كوبو - نولو وأمره أن يطير كي يمسك ببا - وامندي ومطيته في سقوطهما المميت. نفذ كوبو على الفور. شرع يخرق مثل نسر صيادٍ ذكّر الأجواء بسرعة نيزك، فأمسك ببا - وامندي الجالس، بأعجوبة، على ظهر الأفعى، مفرجا ساقيه.

لكن ألسنة اللهب، للأسف، لم تكتف بحرق جناحي الأفعى بل أحرقت أيضا جسدها. انتهت، وقد تضحمت، بأن انتشرت في الفضاء.

نزل كوبو، راكبه متشبث بقوة بظهره، إلى الأرض وحط بروية أمام سيري وقال: لقد استطعت إنقاذ با - وامندي، لكنني لم

أفلح في إنقاذ الأفعى. لقد نفقت وتلاشى جسدها في الفضاء. امتطى سيرى كوبو وأردف با - وامندي خلفه (*) وبعد مدة من المشي، لحا في البعد جبلا شديدا الضخامة، يقطع عليهما الطريق. كان الجبل من العلو بحيث يستحيل على أي كان تسلقه، ومن الشساعة بحيث لا يستطيع أحد الالتفاف حوله، حتى لو خلال أشهر متعددة من السفر. لكن الهاريين لم يترددا، مع ذلك، في التقدم نحوه.

كانت نجدو ديوال قد شاهدت، عن بعد، السقوط المريع للأفعى وفارسها. وعندما أصبحت متأكدة من أنها قد انتهت من قضية با - وامندي، ظنت أنه لم يبق أمامها سوى البحث عن سيرى وكوبو، وقتلهما كما قتلت الأفعى. شعرت بسعادة كبيرة فانفجرت ضاحكة. كانت سعيدة مثل حمارة عطشى عثرت، بطريقة غير منتظرة، على بركة ماء، فشرعت تنهق إلى أن بح حلقتها. أه! قالت في سرها، في قمة السعادة، لقد أحرق جناحا الأفعى ورفضت الأرض حتى أن تستقبل رمادها. لا شك في أن با - وامندي قد قضى. والآن يا سيرى، لتكن المعركة بيننا نحن الاثنين!، ثم امتطت من جديد صهوة مطيتها الطائرة.

ارتفع الطائر عاليا حتى بدا كأنه يريد ملازمة عنان السماء. لمحت نجدو ديوال، بعيدا، الجبل الذي تعرف في الحقيقة كل أسرارها. كانت تعرف أن الخروف المعجز، إن استطاع بلوغه، سينكشف النفق السري الذي يسمح بعبوره، بمجرد أن

(*) مرحلة جديدة رمزية على طريق أصدقائنا نحو الوحدة.

يقع نظره متعدد الألوان على جداره؛ ذلك أن نظرة كوبو هي الوحيدة القادرة على إنجاز تلك المعجزة.

ما حقيقة هذا الجبل الممغز، إذن، والذي يتوجّه سيرى نحوه وتريد الساحرة الكبرى أن تمنعه بأي ثمن من بلوغه؟ إنه الحد الفاصل بين عالم الناس الظاهر والملموس والعالم الخفي الذي لا يسكنه إلا العفاريات^{٤٨}. كان هذا الجبل ذو الشكل المستدير يحيط ببحيرة ماء مالح يستحيل قياس شساعتها^(*). وسط البحيرة كانت تنتصب جزيرة، ووسط هذه الجزيرة كانت نجدو ديوال، كما نتذكر، قد أخفت تحت الأرض اليقطينة المعدنية التي تحوي تميمتها الكبرى التي تهبها قدرة الإتيان بمعجزاتها والتحكم في كائنات المملكات الثلاث لأرضنا: المملكة المعدنية والمملكة النباتية والمملكة الحيوانية.

تقدمت نجدو ديوال نحو الجبل، سابرة أفق كل الجهات؛ لكنها لم تلمح أثرا لا لسيري ولا لمطيته. آنذاك زفرت بعمق فصدر عن رئتيها شعاع ضوء قوي أنارت به الجدار الضخم كي تستطيع أن ترصد عليه أدنى حركة، من السفح وحتى القمة. بعد ذلك كلّفت أحد عفارياتها، وهو جلاد أعدائها ومصفّيهم، بأن يذهب ويستطلع بدقة كل جزء من أنحاء الجبل. سلحته بـ: «باليل» وهي عبارة عن جرّة مستديرة من يقطين، وقالت له: تحتوي هذه الجرّة «تايري - كامو»، أي الصاعقة^(**). اذهب إلى سفح الجبل وابحث عن سيري وهو يمتطي كوبو. بمجرد أن

(*) حول بركة الماء المالحة، انظر هامشا ذكر من قبل.

(**) حرفيا: «نار السماء».

تلمحه، اقترب منه حتى تصبح على بعد أربع وأربعين ذراعا، ثم
اقذفه بالبائل. لكن خذ حذرك، فبمستطاع سيرى أن يتحول
إلى أشكال متعددة. ثم، استهدف كل ما يتحرك أو يبدو لك
مريبا!

سيحطم هذا البائل، بحذق، جمجمة سيرى. وستشوي
الصاعقة التي يحتويها دماغه وتجمد الدماء في عروقه. سيدبل
جسده فيصبح مثل نبات جاف. ستقتلع أعصابه وتسحبها (*).
ستنفصل بسهولة عن لحمه، لأنها صلبة مثل حبال معدنية.
وسيخرج نخاعه من أنابيب عظامه؛ من أصابعه وبنان قدميه
وراحتيه وعقبه.

سأصاب بشر عظيم إن استطاع سيرى وخروفه الهروب منا.
ونتيجة لذلك، ستصاب أنت وكل خدامي بالشرنفسه. استنفر
إذن كل قواك حتى تفلح في مهمتك! هيا!

توجه الجنى، مُنارا بالشعاع الذي صدر عن نجدو ديوال، نحو
الجبل. وعندما اقترب منه لم يلمح على جداره ظل فارس واحد،
بل ظل فارسين يتقدمان على المطية نفسها: كان الأمر يتعلق
بخيالي سيرى وبا - وامندي وهما يمتطيان كوبو.

الويل! الويل! صاحت. خسارتنا بادية، لأن با - وامندي
وسيرى قد أدركا، لا شك، سفح الجبل. والحال، أن المعروف هو أن
يوم يقع نظر الخروف ذي العينين متعددتي الألوان، على جدار
الجبل، سيبدو المدخل الخفي للنفق واضحا للعيان.
همزت نجدو ديوال مطيتها فضاعفت سرعتها. عندما اقتربت

(*) الاسم «عصب» يعني أيضا العرق.

من الجبل، أمرت الطائر أن يحلق على أدنى مستوى ممكن حتى تستطيع استطلاع المكان بدقة.

فجأة، لمحت ذكر نعام يغازل أنثاه. كان ذكر النعام يطلق صرخات مشابهة لزئير الأسد، لكنه لم يكن يطلقها للإعراب عن الغضب، بل هي صرخات حنان ومداعبة؛ فتلك طريقة الطائر العملاق في تدليل رفيقته.

في تلك اللحظة صاحبت نجدو ديوال: أنت يا ذكر النعام! تقدم نحوي وأنت تعدو بكل سرعة قائمتيك الطويلتين! تظاهر الطائر الضخم بعدم السماع. واصل مداعبة عرف معشوقته بحنان، وهو يحرك جناحيه كأنه يريد أن يوفر لها هواء، ويوقف ريشات ذنبه مثل مروحة كي يفتنها.

أمام عناده، ترجلت نجدو ديوال من على طائرها وأمرته من جديد أن يأتي كي يكون في خدمتها. ومن جديد رفض العاشق ذو العنق الطويل. حينئذ تلفظت نجدو ديوال في حقه وحق سلالته بدعاء لعنة ما نزال حتى اليوم نرى آثاره: ليخسأ جناحك، يا نعامه السوء! ولا حلق، بعد اليوم، كما كنت تفعلين حتى هذه اللحظة!

وشوش أنثى النعام - معاندة مثل ذكرها - في أذن عشيقها: ما دما لن نستطيع التحليق بعد اليوم، فلنحاول أن نعدو قبل أن تلعن نجدو ديوال قوائمنا أيضا.

استرعى من جديد انتباه الساحرة العظمى الظل الذي بدا ثانية على جدران الجبل. استغل الطيران انشغالها فسارعا إلى سفح الجبل. وعندما انتبهت نجدو ديوال وجدتهما قد اختفيا.

كان الهاربان قد نجحا في الالتحاق بسيري وبا - وامندي،
فأخطراهما بوجود نجدو ديوال في المكان، ثم واصلا عدوهما.

أما الخادم الجني الذي كان عليه أن يقضي على سيري، فلم
يكن، من جهته، قد استطاع تحقيق هدفه. كان يتابع - الباليل
في يده - الخيال المتحرك على الجبل، ساعيا إلى كشف أصله.

لم تكن النعامتان، في عدوهما المجنون، تشكان في أنهما
تتجهان نحوه. لمح خطوهما فظن أن الأمر يتعلق بسيري
وبا - وامندي، فرفع ذراعه مستعدا لقذف الباليل. وعندما
أصبح الطيران العداءان على بعد بضع أذرع منه، صاح:

الويل لك يا سيري! الويل لك يا با - وامندي! إن أمكما لم
تلد سوى جثتين (*)!

- أنت أيها الجني! عقب ذكر النعام. إنك مخطئ، فنحن لسنا
لا سيري ولا با - وامندي. بل، بالعكس، نحن طيران في خدمة
نجدو ديوال. لقد أرسلتنا إليك كي نقودك إلى مدخل النفق
الذي يبحث عنه سيري. فهو لن يتأخر في اكتشافه، وعليك أن
تكون ثمة في انتظاره.

سقط الجني، بسذاجة، في الفخ. وعندما رآه ذكر النعام
صدق، أضاف: إن عنقي الطويل ورأسي المسطح لقاداران على
قذف الباليل أحسن مما تستطيعه يدك، كما أن قامتي العالية
تمكنني من رصد سيري وبا - وامندي أسرع مما تستطيعه أنت!
أحس الجني، كأنه مسحور، بأن الاقتراح مناسب. وضع الباليل
على رأس الطير الماكر، وانطلق في الاتجاه الذي دلّه عليه طائر

(*) عبارة تعني: يمكنكما اعتبار نفسيكما ميتين.

النعام، في حين أخذ الطائران ذوا القوائم الطويلة الطريق نحو سيري وبا - وامندي.

وبمجرد أن التحقا بهما، قال ذكر النعام لسيري: لقد استطعت تضليل الخادم الجني لنجدو ديوال. كان مكلفا بقذفكما بهذه الأداة، ويمكنك الآن أن تفعل بها، يا سيري، ما تشاء، لكن أسرع، فنجدو ديوال لن تتأخر في أن تعرف بتضليلنا لخادمها، وستكتشفنا جميعا. وأقل ما يمكن أن يحصل لنا، حينئذ، هو أن نؤسر، وسيكون مصيرنا حتما هو الموت.

قبل حتى أن ينهي ذكر النعام كلامه، سمع با - وامندي صراخا مخيفا أزعجه. كان رعبه من القوة بحيث اضطرب سيري حتى فقد، للحظة، قدراته وما عاد يعرف ما يفعله. عندما رآه ذكر النعام على تلك الحال، قال: لا تتحركا، حافظا على هدوئكما. سأقوم برقصتي السحرية وسأرسم حولكما جدولا، إن بقيتما وسطه ستحظيان بحماية خفية (*).

قام الساحر المجنح برقصته السحرية، فرسم، وهو ينتقل من اليسار إلى اليمين، جدولا، فقفز، وقائمتاه مجتمعتان، إلى الخانة المركزية حيث كان يوجد سلفا رفيقته وصديقه الجديدان.

الصرخات التي سمعها با - وامندي، كان قد أطلقها الطير العملاق لنجدو ديوال. كانت هذه الأخيرة تقترب بسرعة فائقة. وسرعان ما حلفت فوق سيري ورفقائه من دون أن تكتشفهم، لكونهم مقنعين بفضائل الجدول الخفية. وبينما هي مشغولة

(*) حول الجدول، انظر الهامش ٣ من الملحق.

بالبحث عن سيرى وبمحاولة العثور على جنيها المدمر، رفع
الخروف كوبو رأسه وتملأ الجبل بعينه ذي اللونين المختلفين،
فانهار شق من جداره مبديا مدخل ممر (*).

بسرعة ! بسرعة ! صاح ذكر النعام وأثاءه لسيرى وبا - وامندي.
ادخلا النفق قبل أن يغلق الباب!

امتطى سيرى وبا - وامندي على الفور كوبو الذي انطلق نحو
المدخل. لكن، وللأسف، أفلت البائليل الذي كان موجها لنجدو
ديوال، من يد سيرى فتدحرج إلى أن أدرك عتبة الممر المفتوح
ودلف فيه. بعد ذلك اصطدم بالجدار الداخلي وانفجر. انبعثت
ألسنة لهب انتشرت في الممر الذي أصبح بئرا نارية حقيقية،
تصدر دخانا كثيفا خائقا.

خرجت ألسنة اللهب من النفق وارتفعت مُحْرِقَةً الجبل كأنه
مجرد سقف من قش جاف. في رمشة عين أصبح جمرة ملتهبة.
كل الحيوانات الصغيرة مثل الضفادع والجردان والفئران
والعظايا والثعالب، حتى لا نذكر إلا هذه، شوتها النيران.

تملت نجدو ديوال، من بعيد، وبلذة، تلك المشواة العظيمة
وغير المنتظرة. وكي تتمتع بالمشهد أكثر، أمرت طيرها بأن يزداد
قربا. كانا يشكلان في السماء ما يشبه سحابة كبيرة سوداء
تزداد ضخامة بسرعة فائقة. كان با - وامندي هو أول من

(*) وحدهما نظرة الخروف المبارك أن تظهر الفتحة الخفية للجبل. فأحدى عينيه بيضاء،
بلون الحليب، رمز الطهر الكامل: يمكنه إذن أن يرى القطب الروحي أو الخفي للأشياء. والأخرى
داكنة أو حمراء، لون الأرض: يمكنه إذن أن يرى القطب المادي. بمعنى آخر: تغطي نظرتة كل
الألوان؛ والحال أن الألوان ترمز إلى مختلف مظهرات الحقيقة الفريدة: تلك التي لا لون لها. إن
نظرة كوبو، مثل نظرة الملحن، تجعل الوهم ينقش والحقيقة السرية المخفية خلف المظاهر تظهر
(وهي هنا الفتحة السرية للجبل).

رأها. آه يا سيري! صاح. إننا على حافة الهلاك؛ فتلک السحابة الضخمة التي تتقدم نحونا لا يمكنها أن تكون إلا نجدو ديوال وطائرها المشؤوم. والحال، أن من المستحيل أن نلتجئ إلى النفق المحترق. ماذا سنفعل؟

لم يكذب ينهي كلامه حتى كانت المشؤومة فوقهما. أطلقت ضحكة عدوانية عالية، ثم تلفظت بكلمات سحرية تستهدف إبطال السحر الذي كان ما يزال يحميهما.

الويل لكما، صاحت، لأنني سأقذفكما ببائيل آخر، ما دام الأول إنما أحرق الجبل. حينئذ أخرجت وزغة عظيمة مثل تمساح، وحمراء مثل جمرة، رأسها من اللهب ٤٩. فتحت فمها الشاسع وقالت:

أنتما، يا من تطاردهما نجدو ديوال! ادخلا فمي، سأقطع بكما النفق دون أن تتعرضا لسوء، ولن تستطيع كبيرة الساحرات أن تفعل شيئا حيالكما.

- ما تكون، أنت أيها الحيوان الذي أرسلته العناية الربانية؟
سأل سيري.

- لي أسماء متعددة، أجاب الحيوان، لكن الأكثر تداولاً هو الوزغة. إن جنس العظايا التي أنتمي إليه يحيا في المناطق الحارة. لقد جعل لنا جينورا أسا مسطوحا وعريضا، وأصابع لاصقة تمكّننا من أن نعدو على طول الجدران وحتى على السقوف. ورغم ذكائنا، فإن الناس لا يحبوننا. هم يعتبروننا كائنات ليلية مذمومة.

إن رفيقك يا سيري، أضافت، هو صديق الحيوانات. واعترافا

مني بجميله، سأجعلكما تصلان إلى الجهة الأخرى من الجبل.
ومن دون إضاعة للوقت، انقذف سيرري ويا - وامندي وكوبو
في الضم الشاسع الملتهب للوزغة.

بمجرد أن انغلق فكاً الوزغة على الرفقاء الثلاثة، حط طير
نجدو ديوال أمام مدخل النفق. ترجلت نجدو حاملة الباليل في
يدها. قذفته على الجبل. انبثقت منه السنة لهب عالية زادت
الجبل احتراقاً. عندما أصبحت متأكدة من أن الهارين يوجدان
بالداخل، عملت على أن تُحيل الجبل ومن بداخله مجرد رماد.
لكن هيهات! فللجبل قدرة عالية على المقاومة.

عندما اقتربت نجدو ديوال من مدخل الممر، لمحت الوزغة،
لكنها لم تستطع تمييزها بسبب شساعتها، وبالأخص بسبب
ضخامة بطنها.

ما تكون، أنت أيها الحيوان السابح في اللهب كما تسبح سمكة
في الماء؟ إلى أي نوع تنتمي؟ أنا لا أعرفك. لم يسبق لي أبداً
أن رأيت زاحفة تشبهك. رأسك وأرجلك وذنبك تشبه رأس وأرجل
وذنب وزغة المغارات، لكن اتساعك وحجمك وبطنك؛ كل ذلك
يجعلك تختلف عن الوزغات العادية. كيف ولماذا أنت هنا بمدخل
النفق؟ ماذا تفعل هنا؟ وعن أي شيء تبحث؟

- أنت التي يجب أن تخبريني لماذا أنت هنا وعمّ تبحثين.
- أنا أبحث عن ثلاثة أشرار، أجابت نجدو: رجلان وخروف
سحري يمكنه أن يمشي على الأرض كما يمكنه أن يحلق في
السماء بسرعة البرق. يسمى الرجلان سيرري ويا - وامندي، واسم
مطيتهما كوبو. أنا نجدو ديوال، مالكة الجزيرة السحرية التي

تقع وسط البحيرة العظمى المالحة التي يحيط بها هذا الجبل. لقد دفنت في هذه الجزيرة يقطينة معدنية تحوي سرا قاتلا. وسيري يطمح لأن يحصل على هذه اليقطينة. يوم يستطيع العثور عليها وفتحها، ستندثر الجزيرة والبحيرة والجبل. أنا أطلب منك أيتها الوزغة أن تتعاوني معي للحيلولة دون عبور أعدائي الثلاثة للجبل وولوجهم الجزيرة! وكمقابل لتعاونك، سأسلمك عمامة الملك وسيمكنك أن تحكمي كل كائنات الجبل. - هيه يا نجدو ديوال، قالت الوزغة، أنا أعترف بقوتك! وإن كنت ترين بطني منتفخا إلى هذه الدرجة، فلأنه مترع بالبيض الذي أنا شارعة في وضعه. ابتعدي قليلا عن المدخل. اجلسي وانتظري أن أنهى وضع البيض الذي يحوي نسلي. بعد ذلك سأصبح خادمك المطيعة، ولن أترك أي كائن حي يمر.

وربطا للقول بالعمل، رفعت الوزغة ذيلها وشرعت تنن كأنها تعاني، بالفعل، من آلام الولادة.

ابتعدت نجدو ديوال مطمئنة.

باضت الوزغة، بالفعل، أمرا ما؛ كان هذا الأمر هو أصدقاءنا الثلاثة الذين غادروا بطنها. عندما حطوا بالخارج، أنعشهم الهواء البحري المنبعث عليلا من الجهة الأخرى للنفق. في تلك اللحظة نفسها انطفأت نيران الجبل. وأمام الدهشة العظيمة لنجدو ديوال، اختفت الوزغة كما انسد مدخل النفق بإحكام لأنه لم يسبق له أبدا أن وجد.

عندما رأت نجدو ديوال ألسنة اللهب تنطفئ، علمت أنها قد خسرت الجولة. لكن كل ذلك لم يكن كافيا ليُفترمة الساحرة

العظمى. تقهقرت بضع أذرع عن المكان الذي كانت واقفة فيه، وأطلقت صرخة شبيهة بصوت بومة. دوت صرختها، وقد ضاعفها رجع الصدى، مثل هزيم رعد قادم من بعيد. حينئذ نادى المشؤومة على طيرها فامتطته وأمرته أن يخترق جدار الحجارة. انطلق الطير في رمشة عين وارتفع عاليا فأدرك قمة الجبل. مر من الجهة المقابلة فنزل ووضع سيدته على مدخل السهل الممتد إلى غاية شاطئ البحيرة العظمى.

كان سيري وبا - وامندي وكوبو قد سبقوا نجدو ديوال، فأدركوا الشاطئ. شاهدوا سلحفاة بحر عظيمة تسبح على سطح الماء. كانت منهكة وهي تمشي وتجيء بين ضفتي البحيرة وشاطئ الجزيرة، باحثة على ما يبدو عما تقعات به. أخرج با - وامندي من جرابه فاكهة الفوجي التي سلمه إياها الشيهم فقذف بها إلى السلحفاة. سارعت هذه إلى الفاكهة والتهمت منها إلى أن شبع. بعد ذلك سبحت، فرحانة مثل عروس، في اتجاه با - وامندي، ضاربة الماء بأرجلها، مبتهجة، قائلة: هيه يا با - وامندي!، عل جينو يجازيك خير الجزاء! لقد وجدتني في جوع شديد، أنابيب بطني وأمعائي متشابكة مثل روعي. لقد بقي بطني ملتصقا طيلة ثمانية أيام، لم يدخله شيء ولم يخرج منه شيء. وقد أتيتني بهذه الفاكهة فأكلت منها حتى شبع. والآن، وقد استعدت قوتي ونشاطي، أخبرني إن كنت أنت ورفيقك تحتاجان لشيء. سأحاول أن أكون ذا جدوى بالنسبة إليكما، مقابل صنيعكما.

- أنت يا سلحفاة الخير! أجب با - وامندي، أطال جينو

أيامك وجعلها بكثرة تلك الرمال التي المحها هناك وسط البحيرة! بإمكانك فعلا أن تساعدنا . نريد، رفيقي وأنا، أن نصل إلى تلك الجزيرة والنزول بها . عليّ أن أقود إليها الخروف كوبو هذا كي يرعى ثمة ويشبع من عشبها الغزير. إنني أحب كثيرا خروفي هذا وأنا مستعد أن أذهب إلى أي مكان يوجد به عشب طبيعي للرعي.

صديقي هذا اسمه سيري، أضاف. تجمع بيننا رابطة أشد قدسية من رابطة القرابة أو حليب الأمومة ٥٠. نحن متضامنان في السراء وفي الضراء. نذهب إلى أي مكان معا ولا نريد أن نفترق (*).

- هيه يا با - وامندي، صاحت السلحفاة، خذ حذرك! احذر الذهاب إلى تلك الجزيرة حيث تسقط أظافر وأسنان الزوار مثل فاكهة ناضجة. أجل أيها الرجل الخير، إن الجزيرة مسكونة بديدان عظيمة زغبها غليظ مثل زغب الخنزير البري المنتصب كالشوك، هذه الديدان تقرض وتفتك بكل ما يوجد قريبا من فمها.

لقد أخبرتكما بما يكفي عما ينتظركما على تلك الجزيرة. لم أخف عنكما شيئا، أي شيء. لكن، إن كنتما تصران على الذهاب إليها، برغم هذا التحذير، فإن بإمكانني أن أقودكما وأن أكون لكما مركبا.

ويعد أن وافق با - وامندي، واصلت:

أنصحكما، مع ذلك، بأن تتركاني أنزلكما في مكان اختاره أنا.

(*) يعتبر الرباط المعرفي والروحي أقوى من الروابط الطبيعية المتمثلة في الدم وفي الحليب.

فأنا على علم، بالفعل، بمكان من الجزيرة لا يقع تحت سيطرة نجدو ديوال (*). إن من لا يتوجه إلى مكان الرسو هذا، يذهب رأساً إلى الموت المحقق. اتركاني إذن أقودكما إليه. وأنا أحذركما من أن المكان موبوء بالذباب وبالجراثيم، كما أن به أيضاً عُش نحل وعقربا أنثى هي ملكة المكان. بمجرد أن تصلا هناك، اذهبا واطلبا منها أن تكونا ضيفيها.

امتطى سيري وبا - وامندي وكوبو ظهر السلحفاة. جلس الرجلان مريعين، وبا - وامندي يمسك بقوة بحبل خروفيه. أصدرت السلحفاة توجيهاًتها:

ستثور أمواج عاتية، قالت، ستمتد طويلاً وستعلو ألسنتها مثل جبال. ومهما يكن ظلاً قاعدين كما أنتما الآن ولا تخشياً شيئاً (**)، وليكنم سيري فم كوبو ليمنعه من الثغاء طيلة مدة العبور.

لم تكن السلحفاة قد أنهت كلامها بعد عندما رأى المسافرين أمواجاً عاتية ترتفع كما لو بفعل عاصفة، وتوجه نحوهم، متدحرجة جارية بعنف. كانت كل موجة منها تشبه

(*) ذلك، كي يتم التخصيص على أن القدرة المطلقة مستحيلة، وليست في ملك أحد غير جينو. القدرة على فعل الخير، مثل القدرة على فعل الشر، ليست مطلقة. ثمرة دائماً بذرة خير في الشر، وبذرة شر في الخير، ثمرة دائماً جزء من الليل في النهار وجزء من النهار في الليل. (**). نمثر هنا من جديد على النصيحة التي سبق أن قدمت لها - وامندي عندما امتطى الأفعى: ألا يشعر بالخوف وأن يبقى ثابتاً؛ خصوصاً ألا يلتفت. ثمرة دائماً في التلقين الأفريقي، امتحان للشجاعة. هو بمنزلة تمرين للإرادة وإعداد ومقاومة للذات. التلقين بحاجة إلى شجاعة، لأن اليأس أو الخوف يحدان من فعالية أفعال الإنسان ويزعجانه.

الإيمان والثقة أساسيان: إن كان ثمرة شعور بالخوف فإنهما لا يثبتان. وفضلاً عن ذلك، فإن الخوف يؤدي إلى الوهم، يخلق صوراً للأشياء غير موجودة. الخوف هو أحد أسباب الإقصاء في التلقين الأفريقي. على الإنسان أن يمتلك شجاعة وإرادة مواجهة كل شيء، حتى ما يكون شديد الغرابة أو غير منظر.

جبلا متحركا من المفروض أن ينكسر فوقهم ويحطمهم. لكن السلحفاة كانت تتسلق جنبات الأمواج، الواحدة تلو الأخرى، بمهارة قرْد متسلّق. كان عبورا مضطربا مشكلا من عمليات صعود كأداء ونزول مدوخ (*).

بعد نصف يوم مُضْن من السفر، أدركت السلحفاة مكان الرّسو الذي أشارت إليه. أنزلت به المسافرين الثلاثة. وقبل أن تودّعهم قدمت لهم نصائحها الأخيرة قائلة: كي تلجوا الجزيرة، توجهوا قدما أمامكم من دون أن تحيدوا عن الطريق الأولى التي ستعثرون عليها. إنّها طريق مستقيمة ستقودكم رأسا إلى الجحر الذي تثوي به العقرب الملكة. بمجرد أن تصلوا أمام باب مسكنها، قولوا لها إنكم غرباء أتيتم تطلبون ضيافتها. في البداية، ستطلب منكم بعدوانية أن تنصرفوا وأن تذهبوا لتقطنوا مكانا آخر. وليكن جوابكم أن تجلسوا على الأرض وتقولوا لها: «نحن هنا بموجب التقاليد ومزاجك العكر لن يصرفنا البتة».

(*) بعد أن عبر أصدقاؤنا، بمساعدة الوزغة، محنة النار، أصبح عليهم الآن مواجهة بحر متلاطم الأمواج. والبحر، عندما يكون عاتيا، يكون صورة للشغف وللانفعالات التي ترج عالمنا الداخلي، الذي يجب أن نتعلم كيف نعرفه أولا، ثم كيف نتحكم فيه بعد ذلك. وترمز أمواجه أيضا إلى الأوهام وحالات السراب التي تتخذ، في العالم الوسيط، أشكالا جذابة، لكنها مؤقتة. إنه عالم الصعود الصعب المتبوع بالهبوط المدوخ. فعندما نفتقر إلى دليل أو وسيلة مضمونة للعبور، نعرض أنفسنا لمخاطر معدقة. حالات الصعود والهبوط هي أيضا رمز للتعاقب الدوري لأزمنة الإجهاد وأزمنة السهولة.

يُنَاط، هنا دور الدليل بالسلحفاة، الحيوان الذي تُضَاعَفُ خاصية التلقين عنده، هنا، بأن أصبح سابحا، مما يعني أنه يتحكم، في الآن نفسه، في عنصر الأرض وعنصر الماء. السلحفاة ترمز إلى القدم وإلى الحماية كما ترمز إلى الحذر. هي لا تسرع أبدا، وهو ما يعد ذا أهمية بالغة في التلقين (انظر الهامش ١٨ من الملحق).

الواقع أن كل هذه العوائق التي يجب تجاوزها هي مراحل داخلية، وانتصارات يجب تحقيقها على الذات.

آنذاك سينتابها غضب شديد؛ لكن لا تخشوا شيئا؛
لن يكون ذلك منها إلا ادعاء. ستهددكم بأنها ستجعل دودة
أرضية تبتلعكم. أجيبوها بأن لديكم بالفعل رغبة في زيارة
الأنبوب الهضمي لدودة، لأنكم تريدون أن تعرفوا طبيعته.
حينئذ ستسارع نحوكم دودة أرضية وستفتح فمها وستبتدئ
بابتلاع كويو. بعد ذلك ستقول لكم: «عودا من حيث أتيتما أو
ستلقيان مصير خروفكما نفسه» أجيباها بأنكما تستعجلان
بالأحرى الالتحاق بمطيتكما البيضاء في أحشاء الدودة.
لحظتئذ ستبتلعكما الدودة العظيمة معا وستريان ما سترياهن.
عندما تلفظت السلحفاة بذلك، غادرت رفقاءنا وأخذت اتجاه
الشاطئ، ثم غطست مخفية في أعماق المياه.

أخذ با - وامندي وسيري - تنفيذنا حرفيا لتعليماتها -
الطريق متوجهين قدما أمامهما. سلكا أول طريق بدا أمامهما؛
وهو الطريق الذي سيقودهما، كما سبق، رأسا إلى عش العقرب
الملكة. وجداها قاعدة على مدخل باب جحرها؛ كأنها تريد، في
الآن نفسه، أن تستدفئ بالشمس وأن تستمتع بالهواء. وبمجرد أن
لمحت سيري ورفيقه حتى لوت ذنبها مخرجة ما بين ملقطيها،
آخذة وضعية المواجهة.

من أين أتيتما؟ صاحت فيهما. ومن تكونان؟ وعمّ تبحثان؟
يجب أن تكونا أكبر الجهال وأكبر سيئي الحظ، من بين كل
الكائنات، حتى تغامرا بالمجيء إلى هذا المكان كأنكما قادمان
إلى مكان احتفال. سيلقي عليكم موت محقق حجره وستموتون
كما يموت كل من يجرؤ على ولوج جزيرة نجدو ديوال، الساحرة

العظمى. هيا؛ اذهبا وضيعا في أعماق مياه البحيرة وموتا هناك،
فذلك أجدى لكما من أن تظلا هنا!

- لا، لن نذهب لأي مكان! أجاب با - وامندي، وزايد سييري:
نحن ضيوفك وسنظل كذلك. لتحل الكارثة التي تهددنا بها،
ولتتحرق لحمنا وتكسر عظامنا وتحيلها مجرد غبار أدق من
الطحين، ولتنتثري بعد ذلك غبارنا في الهواء. نحن هنا، وسنظل
هنا!

صاح با - وامندي: ها أنت ترين أيتها الملكة العظيمة؛
فلا نية لنا البتة في التراجع. نحن في بيتك ولن نغادره. خزيناً
بشوكتك لتسمميننا أو انهالي علينا بضربات من قضيب حديدي
إن طاوعك قلبك. ونحن، بدلا من أن نغادر هذا المكان، سنتحمل
بقلب مطمئن أي عقاب تنزليته بنا. لا تضيعي وقتك إذن، أيتها
الملكة ذات السهم القوي، لأنه لا شيء سيجعلنا نغير رأيانا.

أصبحت الملكة العقرب، أمام إصرارهما (*)، أكثر لطفاً:
يقرفني، قالت، أن أستضيف في بيتي كوبو وسييري، لأن نجدو
ستخوض حربا شعواء ضد من يجروا على إيواء سجينها
القديم. والحال أن لا رغبة لدي في مواجهة الساحرة العظمى
ذات العينين الحمراء وأحياناً وشديدي السواد أحياناً أخرى.

(*) قيل كل شيء من أجل تثبيط عزيمة المسافرين حتى لا يواصلوا رحلتهما. ويتم، في التلقين، القيام بالشئ نفسه؛ إذ تُحَن لحظات يحدث خلالها أن يعمل المعلم على تخويف المريد حتى يتأكد مما إذا كان قد استطاع أن «يتحكم في قلبه»؛ فالجادة شرط أساس للمرور إلى الموالي. فإذا ما استولى اليأس والخوف، مثلاً، على المريد في اللحظة التي يكون على وشك اجتياز مرحلة ما، فإنه يتقهقر. والحال أن كل تقهقر يعد فشلاً. وكثير من المريدين لا يستطيعون تجاوز تقهقرهم، فيتوقف تعليمهم في منتصف الطريق. ويصرون «متعلمين فاشلين» (انظر الحكاية: بودويل الصغير). ويُخشى دائماً من أن يصبح متعلّم فاشل دجلاً، لأن الذين لا يستطيعون قطع إلا نصف الطريق، يكون لديهم نزوع لأن يلعبوا أي دور وبأي ثمن.

- أيتها العقرب الملكة! واصل با - وامندي، أطل جينو أيامك!
كل ما تقولينه عن نجدو صحيح، لكننا نعلم، من جهتنا، أن
لا سلطان لها عليك وأن مسكنك مُؤمّن ولن تجرؤ أبداً على
مداهمته. هي تخشى، فعلاً، أن يخزها سهمك وأن يخرق
صدرها من الطرف إلى الطرف. وما أتينا كي نحتمي بحماك
إلا لأننا نعرف هذا السر. إن نجدو ديوال لا تستطيع أن تصيب
بسوء من تحميه أنت.

أرخت الملكة، على الفور، ذيلها (*) ولمّت ملقطيها ثم سألت
الرفيقين:

- ما الذي تبحثان عنه في هذه الجزيرة الملعونة؟

- نحن نبحث، أجاب سيري، عن يقطينة معدنية وضعت فيها
نجدو ديوال تيممتها الكبرى، ثم دفنت ذلك كله في مكان سري من
الجزيرة. والحال، أنها بفضل القوة السحرية لهذه التميمة، تستطيع
أن تخضع لسلطتها كائنات مملكات الطبيعة الثلاث وتحويلها إلى
أي شكل تشاء. وهكذا، فإن الساحرة العظمية تستطيع أن تزرع الموت
والحزن في كل مكان، لأن جينو سمح لها بذلك.

- اذهباً وفيئاً إلى ظل النخلة التي تريانها هناك، قالت الملكة.
استريحا هناك واصبرا، وبالاخصوص، لا تخافا مما ستريانه
ولا مما سيحصل لكما.

توجه الصديقان، رفقة الخروف، نحو النخلة التي أشارت
الملكة عليهما بها. وبمجرد أن فاء إلى ظل النخلة، تحولت

(*) ثمة دائماً كلمات تستطيع أن تجرد شخصاً، على الفور، من سلاحه: إذ يمكن لشخص في
ثمة ثورة غضب أن يهدّد بكلمة واحدة. لكننا، وللأسف، لا نعرف هذه الكلمة أو لا نعرث عليها
في الوقت المناسب.

إلى دودة أرضية عظيمة شبيهة بالتي وصفتها لهما السلحفاة. فتحت الدودة فمها الضخم وابتلعت كوبو، دفعة واحدة. بعد ذلك خاطبت الرجلين: لقد حذرتكما ملكة المكان من الأخطار المحدقة بكما على هذه الجزيرة. لقد ابتلعت الخروف كإشارة تحذير، لأعطيكما صورة عن المصير الذي ينتظركما إن عاندتما في البقاء هنا.

وعلى الرغم من أن خوفا مبررا استولى على با - وامندي وسيري، فإنهما قالا بصوت واحد: نحن نستعجل، أيها الدودة، أن تبتلعينا كي نلتحق بخروفنا.

شعربا - وامندي على الفور بأنه مُمسك من قدميه. سيري، يا سيري!، صاح، أمسك بذراعي واسحبني، فالدودة شائعة في التهامي (*)! أمسك سيري بيدي با - وامندي وسحب بكل قواه، لكن، وفي رمشة عين، ابتلعت الدودة با - وامندي، واختفا ذراعا سيري في فمها. وسرعان ما ابتلعت بقية جسده أيضا.

لم تكد الدودة العظيمة تنتهي من ابتلاع الخروف وفارسيه، حتى وصلت نجدو ديوال إلى شاطئ الجهة الأخرى من البحيرة، حيث كان با - وامندي وسيري، مع خروفهما، من قبل، قد استقلا ظهر السلحفاة. شرعت تبحث في كل مكان عن أثر للهاربين، لكن سدى. شرعت تبحث عن الوزغة، في قمة غضبها، لكن سدى أيضا. بحثت لمدة طويلة حتى تعبت فاستولى عليها القلق من هذا البحث المضني وغير المجدي. كانت قد أصبحت من التعب

(*) يقال إن الخوف، مهما تكن درجته، لا يمكن أن ينمحي بشكل كامل من قلب الإنسان: إن صبر الإنسان هو الذي ينتصر على خوفه. يقول المثل: «لو أن الجبان عرف كيف يصبر، لراى الشجاع يعدو أمامه».

بحيث لم تعد تستطيع أن تمشي إلا ترنحاً. بدأت تتمايل على ساقبيها وقلبها مترع هماً وهي تتوجه نحو مكان الرسو. شرعت أمعاؤها تتلوى وتقرقر في بطنها. سال سائل كثيف من أنفها (*) وتدحرجت دموع حرى مرةً من عينيها.

عبرت البحيرة، اعتماداً على وسائلها الخاصة، ونزلت على الجزيرة. عدت، فوراً، نحو المكان الخفي الذي دفنت فيه اليقطينة المعدنية. لاحظت، بارتياح كامل، أن المكان لا يعكس آثاراً زيارة غير مرغوب فيها. غير أنها، مع ذلك، وكى تتأكد من أن أعداءها لم ينزلوا على الجزيرة، شرعت تبحث في كل مكان مستطلعة أدنى أثر، بل أدنى رائحة غنمية أو آدمية. لكنها لم تلمح، مع ذلك، أي شيء.

وبالفعل، فإن الدودة، بعد أن ابتلعت سيري ويا- ومندي وكوبو، كانت قد وضعتهم في أحضان الأرض قبل أن تأخذ شكلها الأصلي بوصفها نخلة.

بعد أن شعرت نجدو ديوال ببعض الاطمئنان، أعربت عن رغبة في استرجاع قواها. وعندما لمحت النخلة ذهبية لتستريح تحت ظلها. شعرت، وهي تحتها، برغبة في النوم لا تقاوم. أرادت أن تقاوم نومها مخافة أن يفاجئها أعداؤها، لكنها فشلت. انسدت عيونها ونامت.

رأت في نومها شيئاً، لم تميز طبيعته، يحفر الأرض في اتجاه المكان الذي دفنت فيه اليقطينة المعدنية.

(*) ينضح دائماً من المشعوذين، في الحكايات، أمر ما منتن؛ إذ لهم علاقة بكل ما هو منفّر ومنتن ومشوّه ومحرّض وما له علاقة باستحضار الأشباح. ذلك أن للشعوذة علاقة بأجواء استحضار الأشباح.

أفاقت منتفضة. وعندما لاحظت أن ريقا كثيفا قد اندلق من فمها ولطخ جيدها وصدرها، جرت في اتجاه الشاطئ كي تنظف نفسها.

الرؤية التي رأتها نجدو ديوال في منامها لم تكن حلما عاديا. كانت تجليا؛ رؤية حقيقية لما كان شارعا يحدث تحت الأرض. وبالفعل، فبا - وامندي وسيري كانا قد عثرا، في الثقب تحت الأرضي الذي وضعتهما فيه الدودة العجيبة، على آكل نمل ذكر، هو حفار أرض دؤوب. كان آكل النمل هذا قد قال لهما؛ لقد تلقيت الأمر بأن أخدمكما (*) عن طريق حفر ممر سيقودكما إلى غاية يقطينة نجدو ديوال. لكن الساحرة العظمى أحالت عيني، بسحرها، حسيرتي البصر إلى درجة أنني، كي أميز شيئا ما، يكون علي أن ألمسه بأنفي. وكي أبطل السحر الذي يعتم علي حياتي، من اللازم علي أن أحصل على سائل جاف من عين كلب هرم مخلوط ببعض الكحل محلول في الماء. آنذاك، وبمجرد أن أغسل وجهي، سأستعيد نظري العادي.

ونحن نتذكر، من دون شك، أن با - وامندي يملك في جرابه كل ما يلزم لعلاج انحسار بصر آكل النمل. أعد الحل المشار إليه وقدمه إليه. بمجرد أن مرره آكل النمل على عينيه استعاد رؤيته كاملة. وعلى الفور شرع يشتغل.

كانت نجدو ديوال، خلال ذلك، وقد أضحت على يقين من أن الهاريين لا يوجدان على الجزيرة، قد عبرت البحيرة وشرعت تبحث في كل تجاويف الجبل حيث كانت تظن أنهما يختبئان.

(*) مما يعني ضمنا: لقد تلقيت هذا الأمر من الملكة العقرب؛ سيدة هذا الجزء من الجزيرة.

اشتغل آكل النمل بهمة وبفعالية. كان الممر يتقدم باستمرار، لكنه توقف، للأسف، فجأة، بسبب جدار صخري قوي البنيان، يبدو أنه لا سبيل لاختراقه. التفت نحو با - وامندي وسيري وقال لهما: لا شك أن اليقطينة المعدنية لنجدو ديوال توجد خلف هذا الجدار، لكن مخالبي لا تستطيع اختراق بناء مثل هذا. فما العمل؟ تذكر با - وامندي الجمجمة التي كان قد عثر عليها في فاكهة البواباب، والتي كان جده الأول يستشيرها كلما وجد نفسه أمام عائق شديد الصعوبة. سطر جدولا على الأرض ووضع الجمجمة في مركزه وعزم: يا جمجمة عجيبة لرجل لا أعرفه، لكنه، بكل تأكيد، شخصية فريدة غنية ومتفوقة في كل شيء. أستحلفك أن تقول لي لنا ما الذي علينا أن نفعله! فتكلمت الجمجمة: انبعث منها صوت بهيم أغن، وهو يتلفظ بهذه الكلمات: أنت يا با - وامندي! أخرج من جرابك الجوهرة التي غشت بها الضفدعة وألق بها على الجدار وسترى ما سترى. بحث با - وامندي في جرابه، فأخرج منه الجوهرة وقذف بها العائق. سقط شق كبير من الجدار، فبدأت اليقطينة المعدنية المستديرة. لكن بقي أمامهما فتحها. فجأة ظهر جيش من حشرة الجلالة الضخام، نافدا من ممر؛ فقال زعيمها:

تنحيا جانبا، يا با - وامندي ويا سيري! لقد تلقينا الأمر بدحرجة اليقطينة المعدنية لنجدو ديوال إلى غاية مسكن العقرب الملكية. وقد يسر لنا آكل النمل المهمة بحفره لهذا الممر. أما أنتما، ففتحا عيونكما؛ فتحاها جيدا كي تريانا نشغل! ثم شرعت الحشرات

تدفع اليقطينة وتدحرجها كما علّمتها الطبيعة أن تفعل. اكتفى
با - وامندي وسيري بالسير في أثرها. وعندما وصلوا إلى مسكن
العقرب (*)، سلمتهم اليقطينة قائلة: عليكما أنتما الآن أن تعثرا
على وسيلة لفتحها قصد استخراج التميمة التي توجد بداخلها.
سطر با - وامندي من جديد جدولا على الأرض ووضع في
مركزه الجمجمة المتكلمة: أيتها الجمجمة العجيبة، كيف العمل
لفتح يقطينة نجدو ديوال هذه؟ كوني طيبة وقدمي لنا نصيحة!
تكلمت الجمجمة من جديد: ليقف كوبو - نولو على بعد سبع
أذرع من اليقطينة، وليركز عينيه على الزر الذي يوجد وسطها.
جعل با - وامندي كوبو يتقهقر سبع أذرع، فوجه الخروف
بصره نحو الجهة المقصودة من اليقطينة. خرجت من عينيه
سبعة أشعة من ضوء بألوان مختلفة (**)، فحطت مجتمعة على

(*) بعد أن اجتاز صديقنا امتحان النار في الجبل، ثم امتحان الماء والهواء (المحيط والعاصفة) يُتِمَّن رحلتها تحت الأرض، أولا للوصول إلى اليقطينة العجيبة، ثم لأخذها إلى مكان آمن في مسكن الملكة العقرب. وبذلك تتم دائرة العناصر الأربعة.

في منطق الحكاية: مادامت الجزيرة تقع تحت مراقبة نجدو ديوال، باستثناء جزء الملكة العقرب، فإن على أصدقائنا أن يرحلوا تحت الأرض حتى لا يتم الالتفات إليهما. وبالفعل، فإنه كلما كان ثمة سفر تحت الأرض، تكون هناك مرحلة خفية يجب اجتيازها. يرمز العالم التخت - أرضي، دائما، إلى العالم الخفي، عالم المعجائب والدلالات الباطنية. السفر تحت الأرض، في حكاية كايدارا، سفر باطني، والسفر على سطح الأرض سفر ظاهر. ترمز الأرض أيضا إلى الحماية. يوجد با - وامندي وسيري في مأمن تام وهما في أحشائها.

ويمثل هذا الذهاب والإياب تحت الأرض، أيضا، ضرورة التحلي بالكتمان. فعندما استولى با - وامندي وسيري على اليقطينة المعدنية، يكونان قد حققا انتصارا كبيرا على المستوى الخفي. ومن الضروري عدم جهرهما بهذا الانتصار؛ لأنهما كلما لم يظهر لهما أثر ولم يعرفهما أحد، يكون ذلك أكثر فائدة لهما.

(**) تظهر هنا بوضوح كامل الأشعة السبعة ذات الألوان المختلفة الكامنة في النظر ذي اللونين لكوبو - نولو. فتحت هذه النظرة، التي تعد رمزا للوحدة والمعرفة الكاملة، لا يمكن للفوضى إلا أن تصبح نظاما: يختفي الوهم وتذوب التماثل كما تذوب الزبدة المعرضة للشمس. وفضلا عن ذلك، فإن نجدو ديوال، مادامت قد استعملت قواتها الشريرة السبع لإشباع نهم الإله كومباسارا الأسير في اليقطينة، فإن من الضروري وجود سبعة أشعة مضادة كي يتم إبطال المفعول.

الزر، فانفتحت اليقطينة كما تتفتح الوردة بفعل الشمس. خرج منها جراب من جلد قَطْ أسود يحتوي على جُني متكلم، وسقط على الأرض.

بمجرد اتصال الجراب بالهواء، صاح الجني الذي يوجد بداخله، وهو يعتقد أنه في حضرة نجدو ديوال:

أحييك أيتها السيدة! سأنفذ طوعا كل أوامرك، لكن اسمحي لي، قبل ذلك، أن أطلب منك ما عليك أن تقدميه لي من شراب(*)، فأنا عطشان، ويمنعني عطشي من أن أكشف لك أسرار الكون ٥١؛ أسرار السماء وأسرار الأرض المتأملة في النجوم؛ أسرار الأرض أمُّ المملكات الطبيعية التي تهيئ النباتات وتضمن عيش الحيوانات، سواء أكانت تتغذى على العشب أم على الفاكهة أو اللحم؛ وأخيرا أسرار القمر حليفها، مالك أسرار الماء والنار والهواء ٥٢.

كي أتكلم، أيتها السيدة، عليّ أن أشرب حتى أرتوي؛ فأنا عندما أروي عطشي، تصبح عيناى قادرتين على إدراك ما حدث بالأمس وأتنبأ بما سيحدث غدا. أنا عندما أرتوي، أستطيع كشف سر الجنين، والحبّ النابت في أحشاء الأرض والمعادن النفيسة النائمة في أحضان الصخر. أجل، فأنا عندما أشبع أشاهد الجواهر الثمينة في أحضان المحار الساكن في أحشاء البحر؛ لا يبقى أي سر مجهول عندي، وإن كان مدفونا في أعماق الأرض!

سحب با - وامندي، بلطف، سيري من جبته وقال له بصوت

خفيض:

(*) ما ستقدمينه لي «من شراب»، يعني ما ستضعين به من أجلي، ما ستقدمينه لي قربانا.

أجبهه وأسأله ما الذي يريد أن يشربه؛ فالبطن المملوء يتحدث أحسن من البطن الفارغ؛ ونحن في حاجة إلى هذه التميمة مادامت تخلط بيننا وبين سيدتها نجدو ديوال.

نفذ سيري نصيحته مخاطباً الجنى: أنت، يا خادما مطيعا!، قل لي ما الذي تريد أن تشربه آتيك به في اللحظة والحين. سترتوي وستجدد بين يدي أداء قسم الطاعة.

أجاب الجنى المتكلم: أشتهي كبد سمكة مهروسا مع الصمغ، ومخ ضفدعة ومعيّ عظاية. يُجفّف كل ذلك ويُدقّ بعناية بعد أن يُفلّفل، فيُفرغ في قصعة مملوءة بماء غسيل الذرة. بعد ذلك أبلّل في هذا الماء طيلة ليلة بأكملها. آنذاك، ومع أول صرخة ديك، سأتلفظ تنبئي بعد أن أجدد قسم الطاعة بين يديك.

الحكاية لا تتحدث عن كيفية حصول با - وامندي وسيري على المكونات التي طلبها الجنى المتكلم، لكن كل شيء يوحى بأن للعقرب الملكة دخلا في ذلك. عندما أقبل الليل، كان ماء غسل الذرة قد أُعد. ملأ سيري جفنة منه، وأغطس فيه الجراب الأسود الذي يحتوي الجنى، ثم ذهب ليأخذ قسطا من الراحة هو ومرافقاه.

وصباح اليوم التالي، مع أول صرخة ديك، عدا في اتجاه الجفنة. لاحظ أن الجنى المتكلم الكامن في الجراب، لم يكتف بشرب كل ماء الجفنة، بل شرع أيضا يقضمها. كان قد تحول إلى أفعى ضخمة وطويلة منكفئة على نفسها مثل كومة حبل. عندما اقترب سيري متبوعا ببا - وامندي، رفعت الأفعى رأسها وقالت:

أنت يا سيري، كنت أعتبرك نجدو ديوال، سيدتي الأولى التي شغلّنتني ولم تستعملني إلا في أفعال الشر. أنا أحييكمما أنتما وقد خلصتmani. أنا (كومباسارا)، أحد الآلهة الثمانية والعشرين للفلولانيين الرعويين ٥٣. لقد حبست من قبل الشريرة العظمى داخل هذه اليقطينة المشكلة من خليط سبعة معادن مختلفة.

وقد حظرت عليّ بشدة أن ألتقي بخروف كوبو - نولو؛ لكنني أعرف أنكما، أنت ويا - وامندي استطعتما، برغم الصعوبات، ولوج الجزيرة السحرية واستقدام الخروف كوبو. أنا أطلب منكما أن تسمحا لي بتقلي هذا الخروف المبارك، لأن نظرتة وحدها تستطيع تخليصي بشكل نهائي من السلطة الشريرة لنجدو. وعندما سأتخلص منها سأكون لكما ك्लीة وسأصبح خديمكما، آملا في أن أنجز معكما من أفعال الخير بقدر ما فعلته مع نجدو من شرور.

طلب با - وامندي من سيري أن يستقدم كوبو حتى يتمكن الجني - الأفعى من رؤيته. عندما أصبح الخروف أمام الأفعى، رفعت عينيها ونظرت بنهم في كل أجزاء جسد الحيوان. وعندما أصبح عدد عيونهما أربعة (*)، تحولت الأفعى الضخمة إلى نسرٍ جبالٍ ضخمة الجثة، فخاطب الرجلين قائلاً:

كنتما محظوظين أن آوتكما وحمتكما العقربُ الملكة. لولا ذلك لكنت، وإن بالرغم مني، مزقتكما إريا إريا. والآن اذهبا

(*) تعني العبارة « أصبح عدد عيونهما أربعة » أن نظرتيهما التقتا. هنا أيضا يبرز الدور المركزي لنظرة كوبو بوصفها قوة مُخلصة.

بسرعة كي تشكرا الملكة، ثم عودا خفافا كي تمتطيا ظهري حتى نحلق بعيدا عن هذا المكان، فنجدو ديوال لن تتأخر في أن تعلم أنني قد تحررت. وبمجرد أن ينتهي إليها الخبر ستغرق الجزيرة في البحيرة، باستثناء مسكن العقرب الملكة.

شكرا - وامندي وسيري، بحرارة، العقرب الملكة التي يدينان لها بالكثير، ثم عادا بسرعة إلى النسر. قفزا إلى ظهره، معهما كوبو.

حلق الطير الضخم على الفور عاليا حتى تاه في السحاب. حلق فوق البحيرة العظمى وقطعها إلى أن أدرك السهل حيث كانت نجدو ديوال ما تزال تضيع وقتها سدى في البحث عن با - وامندي وسيري. كانت قد تعبت فجلست. فجأة شرعت أذنانها تطن كما لو كانت قد سمعت هزيم رعد بعيد، لكنه قوي. إنه الضجيج الذي يحدثه النسر. أرادت أن تنتصب واقفة غير أنها لم تستطع. فهمت على الفور أن أمرا ما سيئ بالنسبة إليها قد حدث في الجزيرة. استنفرت كل قواها كي تقف، لكنها عجزت. كان وركاها ملتصقين بالأرض.

وعندما فهمت أن الجني الذي استعبده قد تحرر، استنفرت كل إمكانياتها الشخصية. نفخت تسع مرات في كل سُلَامَى من أصابعها. أصبحت أظافرها مثل جرافات فشرعت تحفر الأرض حولها. لاحظت أن أعصاب جسدها قد استطالت مثل جذور، وأنها أخذت تتعمق في الأرض حيث شرعت تتقاطع مع صخور وجذور، فنسجت ما يشبه حصيرا. علمت نجدو أنها قد رُبطت إلى الأرض بفعل سحر أقوى من السحر الذي اعتادت أن تصيب به ضحاياها.

تلفظت الساحرة الكبرى بتعزيم. نفخت على يمينها
ثم نفخت على شمالها. تحولت أظافرها التي على شاكلة
جرافات إلى إبر. استعملتها في خياطة أعصابها عصبا.
استطاعت أخيرا أن تتخلص وأن تنهض. عدت نحو الشاطئ
فقطعت البحيرة. عندما أدركت الجزيرة، سارعت إلى المكان
الذي دفنت فيه يقطينتها الثمينة. لكنها لم تعثر إلا على حفرة
مملوءة بجمر متقد. فهمت أن كنزها قد اكتشف وأنها فقدت كل
سلطان على من كان، إلى حدود تلك اللحظة، مساعدتها الأعظم
وخادمها المطيع: الإله كومباسارا.

عندما رفعت رأسها لمحت في الأفق نسرا عظيم الهيئة،
اختفى في تلك اللحظة نفسها خلف الجبل العظيم الذي
يحيط بالبحيرة ويحول دون ولوج الجزيرة. عندما وعت مقدار
خسارتها، أطلقت صيحة خيبة وأبدت غضبا كان من القوة بحيث
غثت بمِرَّتْهَا كلها. عندئذ تلفظت بدعاء لعنة رهيب، فغاصت
الجزيرة برمتها، باستثناء مسكن العقرب الملكة، في البحيرة
وذابت كما تذوب قطعة الملح المغطوسة في الماء.

حولت نجدو أطرافها الأربعة إلى أجنحة فردتها حولها
وحلقت، حانقة، فتقدمت مجدفة في الهواء بطريقة لم يسبق
لطيران جدف بمثلها. انطلقت في ملاحقة النسر، خديهما
القديم؛ لكن دهشتها كانت عظيمة بأن لاحظت أنها غير قادرة
على اللحاق به برغم السرعة المدوخة التي تطير بها. دامت
الملاحقة المضنية عدة أيام. ذهب النسرمع راكبيه، أخيرا، كي
يحط في قرية با - وامندي، مختفين عن بصر نجدو ديوال.

عندما أضحت عاجزة عن تحديد مكان وجود النسر، بسبب انتفاء أي أثر، اضطرت، محطمة، إلى أن تعود إلى إقامتها بويلي ويلي.

شكربا - وامندي وسيري الطير الإله بحرارة؛ فخاطبهما قائلاً: إن شئتما أن أستجيب من الآن فصاعداً، لندائكما، سلماي مؤونة من بيض العناكب.

آنذاك فهم با - وامندي أن كل هبة قدمت له من قبل مختلف الحيوانات في طريقه، كان لها هدف محدد. بحث في جرابه وأخرج منه العلبة التي تحوي البيض الذي سلمته إياه الأم العنكبوت فسلمها إلى منقذه. أخذها الطير بسعادة، ثم حلق واختفى في الفضاء.

ودع سيري با - وامندي والتحق بأخيه الذي وجده قد تعافى بأعجوبة، هو أيضاً، من كل تشوهاتة.

باغوماويل

الطفل المبشّر به.

التضحية بكوبو.

هل كان الهدوء الظاهري الناتج عن انسحاب نجدو هدوءاً نهائياً؟ البتة. لم يكن يعني أبداً نهاية العداء بين المشؤومة العظمى والشعب الفولاني.

قدربا - وامندي أن من المناسب الاستشارة من جديد مع الجمجمة المتكلمة، مانعا نفسه من أن تنخدع بالسلم الظاهري الذي يسود البلد. وضعها كالعادة في مركز الجدول الذي خطه على الأرض، ثم استحلفها بأن تدله على الوسيلة

الفعالة للاحتماء من الشرور التي لن تتخلف نجدو عن رميهم بها ثانية. سمع، من جديد، الصوت الغريب: اذبح كوبو، قال الصوت. خذ منه قلبه ومخه؛ واطبخهما ثم أطعمهما زوجتك. ويجب أن تقترن ليلةً تناولها لهما بنهاية عاداتها الشهرية. اعمل أنت من جهتك على حلق رأسك. وعندما تتناول هي طعامها، اقذف بشعرك في مجمر مملوء بجمرات متقدة. بعد ذلك اطلب من زوجتك أن تبخر: تقف مُفرجة ساقيها فوق المجرم حتى يرتفع الدخان الناتج عن شعرك المحترق هه ويلجها. في تلك الليلة نفسها افعل معها ما يفعله الزوج مع زوجته ثلاث مرات متواليات. وبعد كل مرة تعمل زوجتك على أن تلحق سبع مرات الأطراف الخمسة لجسدك التي لا ينبت فيها شعر أبدا: راحتا ديك وأخمصا قدميك ولسانك.

ذهب با - وامندي، محزوننا من فكرة ذبح خروفه، كي يبحث عن كوبو ويشرح له المصير الذي ينتظره. بدأ كلامه، لكن الخروف قاطعه: با - وامندي، قم بسرعة بما طالتك به الجمجمة. هذا مصيري، وهذا يوم طالما انتظرته بفارغ الصبر. لا تشفق على حالي، لأن في وفاتي إنقاذا لحياة عدد كبير من الناس. أسرع إذن بتنفيذ مطالب الجمجمة.

أؤكد لك، أضاف، أن زوجتك، بعد أن تلد سبعة أطفال ذكور، ستضع فتاة. لا أحد من أطفالك سيكون له خلف، أما ابنتك فستلد طفلا معجزا، طفلا سيصبح غصة حقيقية في حلق نجدو ديوال المشؤومة.

ستسمي حفيدك باغوماويل وستلقبه جاييل - فالو، جَدْع المنطقة الخصيية٥٦. والآن، قم بواجبك (*) .

شدّت هذه الكلمات من أزر با - وامندي، فذبح كوبو، ثم طبع قلبه ومخه وجعل زوجته تأكلهما في اللحظة المناسبة. عندما تمت العودة إلى ويلي - ويلي.

ما الذي حل بنجدو ديوال أثناء ذلك؟ كانت قد فقدت كل سلطان، باستثناء قدرة فك السحر عن ويلي - ويلي (**)، وهو ما شرعت فيه بمجرد عودتها إلى الجزيرة حيث خسرت لتوها معركتها ضد سيري وبا - وامندي.

أضحت ويلي - ويلي من جديد البلدة العجيبة كما كانت من قبل. كان كل شيء فيها وافرا كما كان الأمر من قبل. وكانت، بفضل موقعها في ملتقى سبعة وديان، مملوءة بالسماك ذي اللحم اللذيذ وبمختلف المنتجات البحرية الأخرى. وحدهن النساء كن نادرات مثل ندرة المياه في الصحراء. النساء القليلات اللاتي يقطنها كن رائعات الجمال، لا يستطيع أي رجل يشاهدهن أن لا يندهش من حسنهن، لكن بنات نجدو ديوال السبع كن، بلا جدال، الأجمل من بين كل هؤلاء النسوة. كن بارعات الجمال، بحيث لا تستطيع حتى العيون الأكثر درية

(*) قبل كوبو موته: تلك هي ذروة سبيل التلقين. المتعلم يقبل أن يموت من أجل الآخرين. وهو ربما أبرز وجه من أوجه البر؛ وفي جميع الأحوال فهو مثال نموذجي.

على الإنسان، أحيانا، أن يعرف كيف يقلد البذرة التي تقبل أن تموت من أجل أن تثبت النبتة. يقدم كوبو هنا مثال المتعلم الممتاز. إن وفاته ستساعد على الميلاد المقبل لباغوماويل. وسيبقى حاضرا لغز طبيعة هذا الخروف المعجز وعلاقته بباغوماويل.

(**) كانت نجدو ديوال قد غيرت مظهر قريتها عندما دخلها با - وامندي، حتى لا يعثر فيها إلا على طرق خالية وحيوانات غريبة. وهي تعيد إليها الآن مظهرها الخلاب، لكن علينا ألا ننسى أن كل مخلوقات نجدو ديوال تقوم، بالضرورة، على الوهم.

أن تكتشف فيهن أدنى عيب. كان أي رجل، بمجرد أن يكون في حضرة إحداهن، تستولي عليه الرغبة في امتلاكها وتُثمله حتى ليأخذ في الهذيان ويصبح أشبه بشيطان^(*). كان العطر الذي ينبعث من أجساد بنات نجدو ديوال يلهب الرجل الأكثر رزانة. وكانت كلماتهن أكثر إسكاراً من نبيذ العسل، وكن، كما نعلم، عذارى على الدوام، يسترجعن عذريتهن بعد كل زواج.

كن رشيقات كلهن، وذوات عيون لوزية كبيرة، وشعر أملس مثل الحرير، غزير مثل عشب نضر. وكانت قدودهن الرقيقة، مثل عمل هندسي بديع. أما مفاصلهن، فكانت دقيقة، وأذرعهن وسيقانهن في منتهى الرشاقة. وأخيراً، كان فيهن ثلاثة أمور شديدة البياض: الأسنان والبشرة^(**) وبياض العينين.

أسكنت نجدو ديوال بناتها مساكن هي جنات حقيقية على الأرض. عادت إلى عاداتها القديمة، فأرسلت في ربوع البلد عملاء مكلفين بحث الشباب على الالتحاق بويلي - ويلي، حيث تعيش سبع فتيات بالغات سن الزواج، هن جميعاً رائعات الجمال.

انتشرت دعاية نجدو ديوال إلى درجة أن ويلي - ويلي لم تخل يوماً من سبعة غرياء يأتون طالبين يد الشابات السبع. طفقوا يلقون المصير نفسه الذي لقيه من سبقهم، من دون أن يخامر أحدا شك؛ كان يقال للقادمين الجدد بأن القدامى رُفضوا فغادروا المدينة من مدخل آخر.

(*) يقارن الرجل، عند الفولانيين، بالشيطان، عندما لا يستطيع السيطرة على غرائزه، ويسقط في المجون؛ ذلك أن الشيطان، كما يقال، لا يخجل من شيء، إذ هو أصلاً متفسخ الأخلاق. وبعد ذلك نقيضاً كلياً للتحكم في النفس الذي يعطى له شأن عظيم في التقاليد والتعاليم الأفريقية.

(**) «بياض» البشرة هو إحدى مميزات الجمال الفولاني. ويتعلق الأمر بلون فاتح جداً.

كانت نجدو ديوال، أكثر من أي وقت مضى، في حاجة إلى الدم الذكورى الشاب كي تسترجع قوتها السحرية التي فقدتها في الآن نفسه الذي فقدت فيه يقطينتها المعدنية.

وضعت ويلوري، كما تنبأ بذلك كوبو، سبعة أطفال ذكور سماهم أبوهم حمادي وسامبا وديمبا ويرو وباطي ونجوبو وديلوو٥٧، ثم وضعت فتاة سميت وامندي (المحظوظة).

عندما ترعرع هؤلاء الأبناء السبعة وأصبحوا شبابا وسيمين، سمعوا ما يقال عن فتيات سبع يردن الزواج؛ وأنهن في غاية الجمال وأميرات، من بلد رائع تحكمه ملكة عظيمة؛ فطلبوا من أبيهم الإذن بالتوجه إلى البلدة البعيدة ليجربوا حظهم.

وافق با - وامندي وسمح لأبنائه بالسفر وباركهم، وهو لا يشك للحظة في أن الملكة المعنية هي نجدو ديوال، وأن البلدة الرائعة ليست إلا ويلي - ويلي الغربية والمنفرة كما عرفها.

زار الإخوة السبعة، وهم في غاية الفرح، أختهم الشابة وامندي، كي يعلموها بما هم مقبلون عليه ويودعوها. في تلك الأثناء، كانت حاملا بالطفل المبشّر به، الذي كان با - وامندي، أبوها، ينتظره. أعريت المرأة الشابة، جراء إحساس راودها، عن تخوف من فكرة هذا السفر، فأخطرت إختها بقلقها قائلة:

أنا أصغركم سنا، لكن صُغرى إختها، إن لم يكن لها الحق في تقديم نصيحة، فإن لها الحق، على الأقل، في التعبير عن رأيها. أنتم، بالتأكيد، حصلتم على إذن من أبينا، ولكنني، مع ذلك، يراودني خوف، ربما لا سند له، من أن أراكم هكذا تقتحمون

المغامرة في بلد لا تعرفونه، وبالخصوص من أنكم ذاهبون لتطلبوا يد أميرات! ألم يحذر جدنا الأول، بويتورينغ، بقوة، من ثلاثة أمور: أولاً، من أميرة تُزوّج غريباً عادياً، ثم من تقديم هبة لغريب هي عبارة عن حقل يقع، تحديداً، خلف القرية، وأخيراً، من عجلة قد يكون فولانيون أهملوها في مضرب من مضارب خيامهم؟

هذه الأمور الثلاثة الثمينة جداً، إن تم تسليمها بهذه الطريقة، فإنها لن تكون سوى نذير شؤم. والحال أنكم، بالنسبة إلى هذه المملكة البعيدة، لستم سوى أغراب مبتدلين. إن صدقتموني، يا إخواني، الغوا هذه الرحلة وابحثوا لكم عن مرافقات على القدر نفسه من مستوانا. ستعثرون عليهن بالتأكد في بلدنا.

ضحك الشباب في وجهها، معقبين أن المرء، كي ينال شهرة كبيرة، عليه أن يجرؤ على اقتحام أخطار عظمى. أجل، صحيح أننا لسنا سوى أغراب عاديين، لكننا سنجرب، مع ذلك، حظنا. وصدقينا، أنك بعد بضعة أشهر، ستكونين أخت أزواج سبع أميرات فائنات. كل ما نطلبه منك هو أن تصلي من أجلنا وأن تفكري فينا دائماً.

- بما أنكم ترفضون الأخذ بنصائحي، أجابت الأخت، فإنه ليس لي، بالفعل، أية حيلة أخرى غير أن أصلي من أجلكم. لكنني كنت سأقوم بذلك حتى لو كنتم لم تطلبوه مني.

حينئذ، غادرها الشباب السبعة. وصباح اليوم التالي، عند انبلاج يوم جديد، أخذوا، في منتهى الابتهاج، طريق بلدة العذارى السبع.

قضت وامندي ليلها وصباحها تصلي وتدعو. ذرفت دموعا غزيرة، وخلال اليوم الثاني استيقظت فجرا وطفقت تبكي من جديد. عندما أدركت الشمس في السماء علو ما يعادل أطوال سبعة جوال؛ الرمح الفولاني العظيم، سمعت صوتا يخاطبها:

جففي دمعك يا وامندي، سأحرص على ألا يصيب إخوتك أي مكروه.

صاحت وامندي مدهوشة وخائفة بعض الشيء: ما مصدرك، أنت يا صوت الخير؟ أين يوجد صاحبك؟

أجاب الصوت: يوجد صاحبي في بطنك. أنا صوت الطفل الذي يوجد في أحشائك. ثم أضاف الصوت: لديني فورا حتى أستطيع التحليق ونجدة أخوالي. لديني بأسرع وقت، لأن أي تأخر سيفسد كل شيء!

- أنت يا صبيا معجزا! صاحت وامندي. إن طفلا في بطن أمه ويعرف أن يقول: «أمي لديني»، لهو قادر بالتأكيد على أن يولد من تلقاء نفسه!

- ليكن، عقب الطفل العجيب. تماسكي، سأخرج!
- أخذت وامندي وضعية المرأة الواضعة، منقادة مثل تلميذ مطيع. انبجس الطفل من جسدها، كأنه مقذوف بنابض، وسقط في جفنة كبيرة مملوءة ماء، كانت موضوعة بالقرب منها، فاغتسل منتفضا ثم قال، وهو يخرج من الماء:
- أماه! علي أن أنصرف. تمنى لي سفرا سعيدا، لكن قبل ذلك أطلقني عليّ اسما.

- اسمك هو باغوماويل، قالت وامندي، ولقبك هو جاييل -
فالو، جَذَع المناطق الخصيبة. ثم تمنى له سفرا سعيدا وباركته.
انصرف باغوماويل. وقبل أن يلحق بأخواله، كان قد امتلك
قائمة طفل ذي سبعة أعوام. وعندما لح المسافرين السبعة،
صاح:

أنتم يا أخوالي! أنتم! انتظروني. أنا باغوماويل ابن أختكم
وامندي.

التفت الشباب مشدوهين كي يروا جيدا هذا الطفل الذي
يدعي أنه ابن أختهم، وخاطبوه قائلين: نحن لا نعرفك. فنحن
لا نستطيع، إذن، أن نكون أخوالك.

- لا ضير أن لا تعرفوني، قال الطفل. اسمي باغوماويل،
جاييل - فالو، وأنا الطفل الذي ولدته أختكم وامندي هذا
الصباح. وقد أتيت كي أرافقكم وكي أجنبكم الموت الذي تتجهون
نحوه مبتهجين، لا يخامركم شك!

- ابتعد عنا! قال الإخوة السبعة. انصرف! لا يمكنك أن تكون
إلا تجسيدا لابن عفريت، لا ابن أختنا وامندي! وحتى لو كانت
أختنا قد ولدت طفلا هذا الصباح، فإنه ليس بإمكانه أن يصبح
بهذه القائمة. اغرب إذن عن أبصارنا وإلا انهلنا عليك ضربا، كل
من جانبه، حتى تلقى حتفك!

رفض باغوماويل أن يعود على أعقابيه. أمسك به حمادي، أسن
الإخوة، وصفعه صفقة قوية. عندما هم بصفعه ثانية، انفلت
منه باغوماويل واختفى كما لو بفعل السحر. عندما اعتقد
المسافرون السبعة أنهم قد تخلصوا منه، واصلوا طريقهم.

بعد أن قطعوا مسافة، لمح حمادي، فجأة، على قارعة الطريق «تينغاد»: طاقية الفولانيين المصنوعة من القش والمطرزة بجلد متعدد الألوان، فصاح: يا لحظي! لقد وجدت ما أضعه على رأسي كي أتزين وأمشي باعتزاز بالنفس؛ مما سيبهر، بالتأكيد، أسن الأميرات السبع، قال ذلك وأمسك بالطاقية ووضعها على رأسه، ثم واصل الطريق رفقة إخوته.

فجأة سمع صوتا كأنه صادر عن الطاقية: أنت يا خالي! قال الصوت. إن لم تكن أنت قد تعبت من حمل طاقية بهذا الثقل، فإنني أنا قد تعبت من أن أحمل كأنني طاقية! نزع حمادي - الذي تعرف صوت الطفل، والمتأكد من أنه أمام جنّي خبيث - ما يضعه على رأسه وقذف به بعيدا خارج الطريق.

شعر الإخوة السبعة بالخوف، فشرعوا يعدون للابتعاد في أسرع وقت ممكن عن الطاقية المسحورة. لم يعوا، في اضطرابهم، أنهم قد غادروا الطريق ودلفوا في دغل كثيف. فجأة، شرعت أغصان الشجر التي تحيط بهم تتصادم بعنف. سمعوا أصواتا تشبه الصّيرير الناتج عن ضغط الحيوانات المفترسة لأسنانها. كانت هذه الأصوات الغريبة، الممزوجة بزقزقة العصافير، ناتجة عن ريح تهب بقوة، طاوية باسطة كل ما تصادفه في طريقها، من أقل قذاة عشب إلى أقوى الأغصان.

لمح حمادي وإخوته شجرة باواب ضخمة، فعدوا في اتجاهها للالتجاء إليها. وكي يقاوموا العاصفة، التصقوا بظهورهم إلى جذعها ملتحمين بعضهم ببعض.

لا تبدو لي هذه الريح عادية، قال حمادي. لا شك في أن

الجنى المتحول إلى طاقية هو الذي أرسلها علينا . ما كان عليّ أن أقذف به، قال، بل كان عليّ أن أحرقه!

آه يا أخي حمادي! قال سامبا، الابن الثاني، متباكيا؛ كيف سنفعل الآن للعثور من جديد على طريق بلدة العذارى السبع؟ لم يكد سامبا ينهي كلامه حتى رأى الإخوة السبعة سرب نحل يقترب منهم محلقا طائفاً. كان هذا النحل، الذي عاد بعد أن تزود من رحيق الورد، يقيم مسكنه في تجويف بين أغصان شجرة الباوياب، عملاقة الدغل. بمجرد اقترابها لاحظت الوجود غير المرغوب فيه لأبناء آدم. هم بالتأكيد سارقو عسل؛ فشرعت تستعد لمهاجمة الإخوة السبعة لحماية المادة النفيسة التي قضت في إعدادها أشهراً عدة.

كان سرب النحل من الكثافة، فوق رؤوس الشباب، بحيث لم يعودوا يستطيعون تمييز أوراق الشجرة فوقهم.

في اللحظة التي كان النحل يستعد لمهاجمتهم، ظهر فجأة، بين الأرض والسماء، ومن حيث لا يدري أحد، مجموعة طائفة من العظاياات المجنحة، فهوت على النحل وازدردته في رمشة عين، عن آخره (*).

تحيير الإخوة السبعة، لأن المعروف أن ما حصل يناقض كل ما نعرفه عن العظاياات. لنهرب بأسرع ما يمكن، يا حمادي، قال سامبا، وإلا فإن العظاياات التي ابتلعت النحل ستنتهي بأن تبتلعنا نحن أيضاً!

(*) عند هذا الحد من الحكاية، سيكون من البديهي أن تُعتبر أي ظاهرة تأتي لمساعدة الإخوة السبعة، مظهرها لباغوماويل.

عدا الشبان بين الأشجار إلى أن عثروا، في النهاية، على الطريق. هل تلك هي الطريق التي تؤدي إلى البلدة العجيبة؟ الواقع أنهم، الآن، لا يهتمون بشيء: منتهى رغبتهم هو أن يبتعدوا عن البواب ومغادرة الدغل. بما أننا قد عثرنا على الطريق، لنسترجع أنفاسنا. قال حمادي.

استراحوا، إذن، لبعض الوقت، ثم أخذوا الطريق قُدمًا. بعد ذلك بقليل، رأى سامبا عمامة لامعة مرمية على قارعة الطريق. يا لحظي، حظي العظيم! صاح. أنا أول من رأى هذه العمامة؛ ويمكنني أن أمتلكها، لأن أول من رأى شيئًا يصبح ملكه تمامًا كما يصبح أول من يحتل مكانًا صاحبه. ستمكنني هذه العمامة من استكمال زبي، ولا شك في أن الأميرة الثانية، التي ستكون بالتأكيد زوجتي لأنني الابن الثاني، عندما ستراني أتزيا بها، ستجذني جميلًا.

قال ذلك وعدا لأخذ العمامة وأدارها باعتزاز حول رأسه، ثم شجع إخوته، نشيطًا: هيا، لننتقدم! فالطريق تؤدي دائمًا إلى وجهة ما.

واصل الإخوة السبعة طريقهم. وبعد بضع لحظات، سمع سامبا صوتًا يوشوش في أذنه: أنت يا خالي! إن كنت أنت لم تتعب من حمل عمامة لامعة، فأنا قد تعبت من أن أكون عمامة لامعة يُتَزَيَا بها! نزع سامبا، معتملاً، بسرعة عمامته وقذف بها، كما فعل أخوه حمادي، بعيداً في الدغل. عد إلى أمك، محمولاً على ظهر الريح، أيها الجني الإبليسي! صاح بغضب.

واصل المسافرون تقدمهم. رأوا، فجأة، على يمينهم، مجموعة

من القروء معلقة إلى شجرة. قردات تحمل صغارها معلقة مثل قريات تحت بطونها وهي تقفز من غصن إلى غصن. وعلى الرغم من سرعة وطول قفزاتها، فإن الصغار المتشبثين بها لم يسقطوا. وكانت قردة أخرى معلقة إلى غصن بيد، وهي تتأرجح بلا مبالاة وتطلق صيحات صغيرة، وملوحة باليد الأخرى للمسافرين، كأنها تحييهم وتدعوهم للالتحاق بها. وبعضها الآخر، كان يكتفي بالجلوس على الأغصان، الأرجل ممدودة وهي تحك خفية خصرها، كأنها تريد أن تظهر احتقارها للشباب السبعة الذين تقودهم غريزة الحب نحو موت محقق.

لم يترك رفقاؤنا السبعة فرجة القروء هذه تستأثر بهم (*)، فواصلوا طريقهم. لكن ها ديمبا، الابن الثالث، يصيح بدوره: يا لحظي، حظي العظيم! يا حمادي! ويا سيمبا، أنا أكثر حظا منكما، لأن ثمة جبة هناك تنتظرني! وبالفعل، فقد كان لمح لتوه، على الأرض، جبة رائعة مطرزة لا يراها إخوته. عدا وتناولها فشرع يمشي، بعد أن ارتداها، بخيلاء. لا شك البتة، قال، في أن الأميرة الثالثة التي ستكون ملكي وفق ترتيب الأعمار، ستجدني رائعا بهذا اللباس. ستصنفي مع الأغنياء وستسلمني نفسها دون صعوبة.

واصلوا تقدمهم. ولم يكد ديمبا ينتهي من الحديث عن جبته، وإخوته من الإطراء عليه، حتى سُمع صوتٌ من جديد: أنت يا خالي! إن كنت لم تعجب من ارتداء جبة مطرزة، فأنا قد تعبت من

(*) تتجند كل الأشياء، في أثناء مرحلة التعلم، كي تحول اهتمام المتعلم وتشغله عن هدفه. تمثل القروء هنا الانغماس في أطايب الحياة، بل تمثل البهيمية. من المهم أن يظل الانتباه مركزا على الهدف ولا يتزحزح التصميم.

أن أكون جبة تُلْبَس! نزع ديمبا، مثل أخويه، جبته بسرعة خاطفة وقذف بها بعيدا، وهو يكيل السباب للجنى.

واصل المسافرون السبعة، متفكرين، التقدم. فجأة تكوّن إعصار قُدَّامهم، وشرع يتقدم بسرعة شديدة. كان ما يدور أمامهم خارقا للعادة، خصوصا أن الفصل لم يكن مناسبا لظاهرة مثل هذه. وفجأة، اجتاحتهم الإعصار وحملهم مثل أوراق ذابلة فأنزلهم، بشكل معجز، ومن دون عناء، على الطريق المؤدية إلى ويلي - ويلي. أما الطريق التي كانوا يقطعونها من قبل، فكانت تؤدي من دون شك، إلى غابة مأهولة بالضواري الكاسرة.

ظلوا للحظة صامتين مدهوشين محيرين من كل هذه الظواهر الخارجة عن المعقول. قال ييرو، الابن الرابع، وسط صمت الاخوة: أعتقدون، يا إخوتي، أن القروء التي عرّضت بنا، والإعصار الذي حملنا لتوه أمور عادية؟ أنا، من جهتي، لا أصدق ذلك أبدا. ألا ترون أن علينا أن نعيد النظر في موقفنا من الطفل الذي اعتبرناه جنيا وهو يدعي أنه ابن أختنا وامندي الوحيد؟ عقب ديمبا، الابن الثالث: أغلق، يا ييرو، فمك الشبيه بفك بغل؛ فالفم البشري الذي لا ينطق إلا بترهات، ليس البتة سوى فك بغل (*). صمت ييرو، لأن التقاليد لا تسمح له بالتعقيب على من هو أسن منه. أطارق رأسه متفكرا، لكنه عندما عاد، بعد لحظات إلى رفع بصره، لمح بعيدا سروالا منتفخا مطرزا بحريز متعدد الألوان. إن جزاء أخ صغير يحترم أخاه الأكبر، لا يتأخر أبدا! صاح. هأنذا ألمح هناك، على طريقنا، سروالا رائعا. إنه حظي، حظي

(*) Ganache: كلمة تعني، في الآن نفسه، فك البغل وشخصا لا حظ له من الذكاء.

العظيم يهيني إياه لأنني أول من رآه. ثم سارع إلى أخذ السروال فلبسه. أه! قال، ستجدي الأميرة الرابعة، التي ستكون دون شك من حظي، الرجل الأكثر حشمة في الدنيا كلها لأنني أصبحت أملك لباسا غاليا كي أستر عورتني عن عيون البشر الفانين.

ثم واصل ييرو وإخوته طريقهم، وهم يتحدثون فيما بينهم عن كل الظواهر المذهلة التي طرأت لهم، إلى أن تم العثور على السروال. فجأة، قطع صوت مناقشتهم: أنت يا خالي ييرو، قال الصوت، إن كنت أنت لم تتعب من ارتداء سروال منتفخ مطرز، فإنني من جهتي، قد تعبت من أن أكون سروالا منتفخا! في رمشة عين، نزع ييرو السروال وقذف به بدوره في الدغل وهو يصيح: أن تذهب أيها الجني وتلتحق بأمك وتعمل على أن ترضع منها، خير لك من كل ما فعلته حتى الآن (*)! ثم ابتعد الشباب وعدوا مهمومين بالخوف من الجني الذي لم يكف عن تحديهم بمكر. كان باطي، الابن الخامس، أسرعهم في العدو. وعندما وصل إلى انعراجة على الطريق، رأى على القارعة زوج نعل ظاهر الجودة فصاح: إخوتي! إنني ألمح أمامي زوج نعل رائع. إنه حظي! حظي العظيم، لأنه سيمكنني من أن أبدو ذا قيمة في عين الأميرة التي ستكون، بالتأكيد، زوجتي. وفي انتظار ذلك، سيساعدني على أن أمشي براحة! ثم ارتدى النعل مزهوا.

(*) الموقف غير المنطقي ل ييرو هو نموذج للاتجانس وللانطق الطبيعة البشرية نفسها. يتصرف الإخوة السبعة (مثلنا تماما) ناسين، في الحين، ما قالوه من قبل، متجاهلين، بالتوازي مع تقدمهم، ثمرة التجربة الماضية، مرتكبين، باستمرار، الأخطاء نفسها. يعتقد كل واحد منهم أن المحنة محنة الأخين وليسست محنته... وهكذا، يكون من الصعب، في الحياة، الاستفادة من تجارب الآخرين. على كل واحد أن يكتسب تجربته الخاصة، بل غالبا ما يكون عليه أن يكرر التجربة نفسها مرارا قبل أن يفهم دلالتها.

واصل المسافرون، من جديد، طريقهم. ومن جديد ارتفع صوت فتى: أنت يا خالي باطي، يا خامس ابن لجدي با - وامندي! إن كنت أنت لم تتعب من ارتداء حذاء، فإنني من جهتي، قد تعب من أن أكون حذاء. سارع باطي، الذي فوجئ، كما فوجئ إخوته الأربعة الأسن، بنزع الحذاء وبالقذف به بعيدا. أيها الجني الصغير! صاح، اذهب إلى أمك واطلب منها أن تهديك وأن تغني لك حتى تنام، وكف عن العودة للوسوسة لأبناء آدم!

تعب الإخوة السبعة من المشي والعدو. شعروا بالجوع والصهد والعطش. لمحوا، أخيرا، في البعيد، نابتة في شكل مثلث مضغوط، أشجار الدغل الثلاث: شجرة بابواب وشجرة كايلسيدرا وشجرة جبن ٥٨. كانت أوراق الشجرات الثلاث كثيفة وأغصانها متداخلة، مما شكل قبة مخضرة يمتد تحتها ظل رائع. سارعوا نحو هذا الملجأ الرياني وتهالكوا على الأرض، آملين استعادة قواهم. والحال، أن عند قدم البابواب، كانت توجد آنية مملوءة بالماء العذب؛ وعلى ثلاثة أثافٍ، عند جذور شجرة الجبن، كانت توجد طنجرة، وتحت الكايلسيدرا، كانت توجد عدة سلال تحوي لحما طريا وزروعا وبهارات.

كان نجوبو، الابن السادس، هو من انتبه إلى وجود الجرة والطنجرة والسلال. وشوش لأخيه باطي: هل ترى ما أراه أنا في هذه اللحظة عند أسفل الشجرات الثلاث؟

- لا، أجب باطي.

- إذن، فأنا أسحب كلامي. لم أقل شيئا.

تمدد الشباب السبعة بفعل التعب، وسرعان ما ناموا مثل

أطفال صغار. لكن، هل يمكن لبطن فارغ أن ينام لمدة طويلة؟ بالتأكيد لا. لم يظلوا نائمين إلا لمدة استرجاع قواهم. فر النوم من أعينهم فاستيقظوا، كل واحد منهم يضغط حبل سرواله أكثر على بطنه كي يخاتل جوعه ويُخرج لسانه تحت تأثير عطش شديد. كان نظرهم من الاضطراب بحيث لم يستطيعوا أن يروا، على مقربة منهم، قصعة كبيرة مترعة طعاما لذيذا أعد بطريقة معجزة، وقرعة تحتوي ما يكفي من ماء بارد لإرواء عطشهم. غير أن بخار الطعام داعب خياشيمهم وفتح عيونهم. بمجرد أن اكتشفوا القصعة الكبيرة اللذيذة، لم يكلف أحد منهم نفسه دعوة الآخرين للاقتراب من الأكل، كما تقتضي العادة. أغطسوا أيديهم كلهم، دفعة واحدة، وشرعوا يأكلون، ثم أنهاوا بأن شربوا من الماء.

عندما شبعوا، وقف نجوبو كي يذهب ويضع القصعة أبعد قليلا (*). آنذاك رأى خاتما رائعا يلمع، مطعما بحجر كريم ثمين أصبح من إشعاعه شبيها بمصباح. صاح: يا لحظي، يا لحظي العظيم! آه يا إخوتي الكبار، لقد عثرت على جوهرة ثمينة سأحظى بفضلها، بالتأكيد، بتقدير كبير من زوجتي وستعتبرها دليلا على ثروتي؛ فالخاتم الذي سأقدمه لها ليس جديرا إلا بملك. ثم وضع نجوبو، مبتهجا، الخاتم في أصبعه. بعد أن تناول الإخوة الطعام واستراحوا، واصلوا رحلتهم بمزيد من الشجاعة والتحمل. مشوا خلال جزء مهم من المساء. وفي لحظة، سمعوا من جديد الصوت الذي أصبحوا يعرفونه

(*) الأصغر، حسب ما تقتضيه التقاليد، هو الذي يقوم بالمهام الصغيرة لمصلحة من هم أسن منه.

جيذا: أنت، يا خالي نجوبو، يا سادس أبناء جدي با - وامندي!
إن كنت أنت لم تتعب من حمل خاتم في أصبعك، فأنا، من
جهتي، تعبت من أن أحمل بوصفي خاتما! نزع نجوبو - كما فعل
بقية إخوته - الخاتم من أصبعه وقذف به بعيدا في الدغل وهو
يصيح:

أيها العفريت اللعين! اذهب إلى أمك الجنية واطلب منها أن
تحملك على ظهرها حتى تكبر، وكفّ عن خداع الناس الطيبين!
واصلوا المسير. اختفت الشمس على الأفق الغربي. لفت
ظلمة كثيفة الطبيعة بمعطفها الكبير الداكن. عندما لم يعد
المسافرون يرون شيئا أمامهم، قرّروا التوقف. لكن ها ديلو، سابع
وأخر أبناء با - وامندي، يلوح على بعد خطوات حزاما معجزا
يشتل وينطفئ مثل دودة منيرة. صاح: يا لحظي! يا لحظي
العظيم! ابتهجوا يا إخوتي، فها جينو قد وضع ملك يميننا ما
ننير به طريقنا، فأنا أرى، بالفعل، حزاما منيرا هو ملك لي. وهذا
الحزام لن ينير لنا الطريق ويمكننا من مواصلة مشينا، فقط،
بل سيقنع أيضا الأميرة السابعة بالاقتران بي، إذ سيقدم لها
فكرة عن حجم ونوعية ثروتي. عندئذ ذهب ديلو ليأخذ الحزام
الجلدي المعجز وشده على وسطه. أصبحت الأشعة المضيئة التي
تنبعث منه تنير الطريق مثل مشعل.

استغل الإخوة السبعة رطوبة الليل كي يقلصوا المسافة التي
مازالت تفصلهم عن بلدة العذارى السبع. كانوا يمشون من دون
تعب ومن دون أن يقلقهم شيء إلى أن سمعوا أول صياح للدّيك.
آنذاك فقط قرّروا أن يستريحوا. حادوا عن الطريق وذهبوا كي

يستريحوا تحت شجرة باوياب قريبة. وبمجرد أن جلسوا ارتفع من جديد الصوت الصغير: أنت يا خالي ديلو، يا سابع إخوة أمني وامندي! إن كنت أنت لم تتعب من حمل حزام، فأنا، من جهتي، قد تعبت من أن أحمل بوصفي حزاما! تناظر الإخوة السبعة. قال حمادي، الأخ البكر لديلو الأخ الأصغر: هات ذاك الحزام، يجب أن نضع حدا لهذا العفريت الذي لا يكف عن خداعنا. نزع ديلو حزامه وسلمه لحمادي. وضعه هذا الأخير أمامه وقال له: أيها الحزام! أخبرنا بحقيقتك ولماذا تتعقبا.

تحول الحزام، على الفور، إلى طفل ذي عشر أو اثنتي عشرة سنة، فقال:

أنتم يا أخوالي! صدقوا أو لا تصدقوا، فأنا ابن أختكم الصغرى وامندي. لكنني لست طفلا عاديا: أنا طفل مُرْسَل؛ ومهمتي هي أن أقاوم شرور نجدو ديوال، الساحرة العظمى، وأن أجردها من قدراتها العدوانية حتى يستعيد بلد هيلي ويويو ازدهاره القديم ويعيش من جديد في سلم وسعادة. الحقيقة هي أن البلدة الأعجوبة التي أنتم متوجهون إليها، ليست أي بلدة أخرى غير بلدة ويلي - ويلي، البلدة السحرية التي تعتبر نجدو ديوال سيدتها، أما الأميرات السبع، طالبات الزواج، فلسن إلا بناتها.

اقبلوا أن أرافقكم إلى ويلي - ويلي، لأنكم إن ذهبتم من دوني لن تعودوا منها أحياء. ستمتص نجدو ديوال دمكم وسترمي بلحمكم للعقبان التي تعيش على قمم الجبال السبعة التي تحيط بالبلدة.

التفت سامبا وديمبا نحو أخيهما الأكبر وقالوا: لنقبل يا حمادي بابن اختنا، لنجعل منه رفيقا لنا؛ فعلى الرغم من خداعه لنا، لم ينلنا من فعله أي سوء، بل بالعكس، فقد أنقذنا كل مرة وجَدنا فيها في مأزق. وكي نبلور اتفاقنا، يقطع كل منا قطعة من ثيابه ثم نستجمع القطع السبع لنصنع منها جبة نخلعها على ابن اختنا.

اتفق الإخوة السبعة، فقبلوا ابن اختهم وصنعوا له جبة مأخوذة من ملابسهم الشخصية ثم استعدوا لمواصلة الطريق بعد أن خاطبوه قائلين: يا جاييل - فالو، أيها الجَدْع، أنت لن تكون حامينا فقط، بل ستكون دليلنا أيضا. صحيح أننا أخوالك وأنتك ابن اختنا، لكننا نضع فيك ثقتنا. فنحن معك مستعدون للذهاب لمواجهة نجدو ديوال نفسها.

- يا أخوالي، عَقَب باغوماويل، سأتحول الآن إلى سحابة عظيمة. سأخلق فوق رؤوسكم كي أسبر الأفق وأرى كيف هي الأحوال، لأن لدي انطبعا بأننا قد ولجنا سلفا دغل ويلي - ويلي (*).

تحول باغوماويل، بالفعل، إلى سحابة عظيمة ارتفعت عاليا في السماء. صاح، من علوه، تجاه أخواله. أرى في البعد بحيرة عظيمة سيكون علينا أن نقطعها قبل أن نصل إلى ويلي - ويلي. سأسبقكم وستجدونني على الشاطئ.

قال ذلك وتوجه رأسا إلى البحيرة فأدركها فيما لا يُذكر من الزمن. عندما نزل على الأرض واستعاد شكله العادي؛ طفلا

(*) يقصد منطقة أو ضواحي ويلي - ويلي. فلكل قرية أو بلدة «دغلا»؛ يعني ضواحيها؛ ريف ضاحيتها. بعده تأتي «أعالي الدغل» التي تكون نهايتها بداية أعالي دغل قرية أخرى.

ذا اثنتي عشرة سنة، فحص بدقة كل أجزاء البحيرة وضواحيها،
ثم جلس منتظرا وصول أخواله.

وصل هؤلاء بعد مسيرة طويلة. وبما أنهم وصلوا عطاشا
منهكين من الحر، كان أول ما قاموا به هو أن نزعوا ملابسهم كي
يغطسوا في البحيرة ويشربوا من مائها، لكن باغوماويل منعهم
قائلا:

- احذروا يا أخوالي أن تغتسلوا من هذه البحيرة وأن تشربوا
من مائها. فهي ملوثة جراء إهراق بول نجدو ديوال فيها. كل
إنسان يغتسل منها أو يشرب من مائها، ولو جرعة واحدة، يثمل
ويصبح مخبولا قليل العقل، ويصير غبيا وأبلد البلاء، وسينفذ،
من دون تردد، كل ما تطلبه منه بنات نجدو ديوال.

ارتعب أخوال باغوماويل ونفذوا نصيحته. احتفظوا
بملابسهم وقطعوا البحيرة محاذرين. وصلوا قرب ويلي - ويلي،
لحظات قبل مغيب الشمس. كانت الأبقار، لحظتئذ، عائدة من
المراعي وهي تخور كأنها تنادي على صغارها؛ وكانت الطيور،
من مختلف الأحجام، متعبة من تحليق يوم كامل، تتجمع
على أغصان الأشجار مزقزقة بهمة كأنها تحكي ما عاشته من
أحداث طويلة يومها. وكانت العجول تخور بكل قوتها كأنها تجيب
نداءات أمهاتها. أما الحمير فكانت تطلق نهيقا حنيئا كأنها
تبكي اختفاء الشمس وسط عتمة الليل. ديك - مزينة رؤوسها
بتيجان مزخرفة مثل واجهات قصر ملكي، أو كثيفة ومضفورة
مثل شعر ملكة - تطلق صيحات نصر تجيب عنها صيحات
أطفال يحتاجون على حمام مسائي أو يطالبون بالرضاع.

وجد الإخوة السبعة، على مدخل المدينة، حارسا، هو بواب البلدة. كانت تنحصر مهمته في استقبال وإيواء الشبان الذين يأتون طالبين يد بنات نجدو. لا أحد غيره كان يملك لا الحق ولا الجراءة للتوجه بالحديث للغرباء الذين يأتون لويلى - ويلي. استقبل بوذ باغوماويل وأخواله وقادهم إلى المكان الذي شيدت به إقامات فاخرة. كانت جدران الإقامات عالية مستقيمة، حيطانها ملساء ومتماسكة إلى درجة أنه كان بالإمكان شحذ شفرات مدى عليها. كانت مكسوة برسومات جميلة تمثل كل كائنات الطبيعة بدقة متناهية، تجعلك تعتقد أنها حيوانات حية قادرة على القفز. كانت هذه الرسومات بكل الألوان، لكن اللون الأخضر، لسبب غير معروف، كان هو اللون المهيمن. أما مصاريع الأبواب فكانت من فضة مخلوطة بالذهب.

أدخل البواب المسافرين إلى غرف ذات تهوية جيدة، هواؤها منعش لا يمكن للمرء أن يصاب فيه بمرض. وكانت الأفرشة المرتفعة مغطاة بألحفة مزركشة. لا شيء كان ينقص فيها، لا بالنسبة إلى التغذية ولا بالنسبة إلى الترفيه.

بعد أن استقر الشبان، خاطبهم البواب قائلا:

مرحبا بكم! لقد وصلتكم إلى المكان المناسب كي تكونوا على سجيبتكم. من الآن فصاعدا، لن تعرفوا هماً أو مرضاً، ولن تكونوا بحاجة إلى أحد. لكن العادة جرت - فتلك هي رغبة سيدتي - أن أسأل الغرباء الذين يلجون المدينة عن سبب رحلتهم وعن نيتهم الخفية. حرّروا إذن ألسنتكم ودعوها تعبّر مباشرة عن رغباتكم. تخلصوا من الشعور بالخوف وبالخجل، وتجنبوا بالخصوص

المواربة. فثمة، بالفعل، ظروف يجعل الخجل^(*)، خلالها، المرء يُضيع ما أتى للبحث عنه وما يعتقد أن تحقيقه بعيد المنال.

شكر حمادي الحارس بحرارة، ثم قال:

إن ما قادنا إلى هنا، يستحق بالفعل أن نقوم من أجله برحلة طويلة. فعلى كل رجل، عندما يبلغ سن الرشد، أن يبني أسرة إن أراد أن يعتبره الناس إنسانا جديا (**). نحن سبعة إخوة، من الأم نفسها ومن الأب نفسه (***)، أتينا نطلب بنات ملكة البلاد للزواج. قال حمادي ذلك وصمت.

تفحص الحارس كل شاب من قدميه إلى أعلى رأسه. جعلهم يدورون ويستديرون، وجس كل جسدهم تقريبا مثلما يجس جزائر خروفا أو ثورا، ثم سأل: والطفل الذي يرافقكم، لماذا أتى؟ وعمَّ يبحث؟

أجاب حمادي بوصفه البكر:

إنه ابن أختنا الوحيد. والحال أنه لا يقبل أحدا غيرنا، ولا حتى أمه. لا يمكنه أن يبقى بدوننا، كما لا نستطيع نحن أيضا فراقه. فهو لا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا بعد أن يرانا ويحظى منا بلمسة حنان أو ببضع كلمات طيبات.

- لقد أوضحتم المسألة! قال الحارس. استريحوا إذن. سأذهب

(*) في أفريقيا، لا تسحب هذه الكلمة، فقط، على ما نفهمه من الكلمة الفرنسية «Honte - خجل»، ولكنها تعني أيضا الحشمة والتحفظ والحياء؛ وهي صفات تعتبر تجليا لنبل الخصال، خصوصا لدى الفولانيين.

(**) كان الأعزب يعتبر، في المجتمعات التقليدية، بمنزلة قاصر.

(***) من الأم نفسها ومن الأب نفسه (ترجمة حرفية): هذه العبارة التي غالبا ما تدهش الأوروبيين، ليست عبارة زائدة بأفريقيا، لأن اللفظة «أخ» لا تشمل كل الإخوة من الأم أو الأب فقط، وهم كثيرون في الأسر متعددة الزوجات، وإنما تشمل أيضا أبناء العم من جهة الأب، خصوصا لدى الفولانيين.

الآن كي أخبر سيدتي بوصولكم وبالغرض الذي قدمتم من أجله، ثم ذهب على الفور عند نجدو ديوال وقدم لها تقريراً مفصلاً ونزيتها عن كل ما جرى لتوه. ابتهجت الشريرة! فقد حصلت أخيراً على بغيتها: استدراج أبناء با - وامندي لبلدتها حتى تشبع غريزة انتقامها!

قالت للحارس:

عد إليهم. أخبرهم أنهم مُرْحَبٌ بهم هنا على الرحب والسعة، وأننا نخصهم باستقبال حار. ثم أضف أنني غدا بعد تناول وجبة الفطور، سأستقبل ضيوفاً السبعة، وربما أصهاري في المستقبل. انقل إليهم هذا عني وخذ كل الاحتياطات الضرورية حتى يمر كل شيء وفق ما أشتهي.

قُدِّمَ الإخوان السبعة، صباح اليوم التالي، مرفوقين بآبن اختهم، لنجدو ديوال التي بدت، للمناسبة، بمظهر رائع ومطمئن. تملتهم للحظة ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت: استريحوا حتى أعود. غابت للحظات ثم عادت مصحوبة ببناتها السبع وقد أزيّن كأنهن قادمات إلى بيت الزوجية، فقدمتهم للإخوة السبعة.

هؤلاء هن بناتي، قالت. إن اخترنكم من تلقاء أنفسهن كرفقاء، سيصبحن ملكاً لكم وسترون آنذاك يدي البيضاء. أنا أذن لكم، منذ الآن، أن تذهبوا للتسلي معهن، فكما أن كل فارس يجب أن يتعرف على مطيته، فإن كل زوج يرنو أيضاً إلى تعرف زوجته المستقبلية. لي تحذير واحد فقط: بناتي صعبات المراس! عليكم أن تكونوا صبورين وذوي مهارة معهن. عليكم أن

تعرفوا كيف تجعلونهن يحبينكم. وعندما سيأتين ويخبرنني بأنهن يقبلنكم أزواجا لهن، سأمنح موافقتي وستقيمون أعراسكم. سيعتزل كل واحد منكم في غرفة مع إحداهن. أما بالنسبة إلى مصاريف الخطوبة والزواج، فأنا أعفيكم منها منذ الآن.

شعر الشباب باغتياب شديد جراء هذا الاستقبال، فتخلوا عن حذرهم (*)، خصوصا وقد تلفظت أمامهم بكل تلك الكلمات الرقيقة.

مريوم شهري، في تقابل ثنائي حنون، بين الإخوة السبعة والبنات السبع.

عند المغيب، ومن باب اللياقة (**)، وربما أيضا دلالة، كي تترجاهم الأميرات، طلب الخطابُ من عشيقاتهم أن يتركنهم ينصرفون إلى صباح اليوم التالي. أجابت الفتيات السبع: ليست هذه عادتنا. على الخطاب أن يبقوا معنا سبعة أيام كاملة، حتى يتعرف بعضنا على بعض بعمق. ومن لا يقبل هذه الشروط يُرفض على الفور.

(*) يضيف الإخوة إلى اللامنطق والعناد، السذاجة، التي لها علاقة بنسيانهم لتحذيرات باغوماويل. فهم أشبه ما يكونون بالمتومين؛ يفتقرون إلى أي خط موجه داخلي. خطهم الموجه خارجي دائما: إما مصادفة الأحداث أو إرادة وعمل باغوماويل. والواقع أن باستثناء باغوماويل، المنشأ به والملقن، لا أحد يستطيع أن يحتفظ بتيقظه ويعقله نابها أمام نجدو ديوال، بسبب سلطتها على كل البلد.

علينا، هنا أيضا، أن نلمح خاصية من خصائص الإنسان الفولاني: يمكن لحذره، حتى بعد كثير من خيبات الأمل، أن يعي على الفور، بسبب بعض الكلمات الطيبة، تماما كما يمكنه، في لحظة واحدة، أن يفقد ثقته. إن حب الإنسان الفولاني يكون من القوة بحيث تجرحه كلمة واحدة، كما يمكن لكلمة واحدة أن تهدئ من روعه.

(**) اللياقة، مثل الحشمة، تشكل جزءا من معادلة الفولانيين المرتبطة بمعرفة العيش ضمن نسق العلاقات الاجتماعية.

من السهل تخمين بأية سرعة قبل الإخوة السبعة هذا التقابل الثنائي الليلي، الذي كانوا يتمنونه سرًا من دون أن يجروا على تصديقه.

نادت الفتيات السبع الحارس. أمرنه أن يذهب إلى أمهن ليخبرها بأنهن قد قررن أن يحتفظن بخطابهن طيلة الأسبوع حتى يَكُنَّ معهم ليلا ونهارا، متجانسين، مثل فطيرٍ من طحين الذرة مدهون بعسل.

وقبل أن يلتحق الحارس بنجدو ديوال، أخذ معه باغوماويل: نظرا لحداثة سنك، قال، فإن جدتك الملكة هي التي ستكفل بك في بيتها. فالتقاليد تجعل من «الحفيد» (العريس الصغير) المثالي لجدته. فبينما سيتسلى أخوالك مع من سيكُنُّ زوجاتهم في المستقبل، ستتسلى، أنت أيضا، مع «زوجتك» ٥٩. بهذه الشاكلة، سيكون الكل مبتهجا مثل ابتهاج العصافير نفسها وهي تزقزق سعيدة في أعشاشها!

آنذاك أمسك بكفه اليمنى كفَّ باغوماويل اليسرى وقاده إلى غرفة نجدو ديوال. وبمجرد أن التقت نظرتها بنظرة الطفل، وأصبحت العيون أربعا، شعرت بصدمة غير مفسرة. هل تكون شعرت في أعماقها بكل الأخطار التي ستعرض لها بسبب هذا الصبي غير العادي؟ ربما. وكيفما كان الحال، فإنها قد تحاشت أن يظهر أي شيء من اضطرابها واحتفظت بوجه هادئ لامرأة مسنة طيبة مهيبة وخيرة. أمسكت باغوماويل من كفيه وخاطبته قائلة: ستقضي أيامك ولياليك معي، في حين سيكون أخوالك ومن سيكُنُّ زوجات أخوالك يتعودون على بعضهم البعض. فعلى

اتفاقهم يتوقف بناء العلاقات التي ستجمعنا ربما لاحقا، والتي ستجعل مني جدة حقيقية لك.

عمل باغوماويل، خلال تلك المحادثة، وينظرة خفية سريعة، على سبر مسكن نجدو ديوال، فاكتشف الوسيلة البارعة التي كانت تتزود بفضلها بدم الشباب الذين يقذف بهم حظهم العاثر على فراش بناتها.

ظل إذن مع المرأة العجوز، بينما كان أخواله يتسلّون مع رفيقاتهم. بعد العشاء، وعندما صمتت آخر أصدااء الرقصات والأغاني التي تسبق لحظة نوم شعب الفولانيين الصغير، ساد المدينة هدوءٌ كامل. دخلت نجدو ديوال فراشها كي تنام ودعت الطفل لأن يحذو حذوها، إذ كان فراشٌ قد أعد من أجله قرب سريرها.

أخوال باغوماويل، من جهتهم، كانوا ينتشون بجمال الأخوات السبع ويبعثرهن السائغ المنبعث من أجسادهن وملابسهن ومن كل شخصهن. كانت أصواتهن من الرقة بحيث تخالهن ينشدن أغنية مهددة؛ وكانت أيديهن الملساء مثل الحرير، خبيرة بالمداعبات مثل أيادي نساء اعتدن على بيع أجسادهن لمن يدفع أكثر.

عندما سرى الليل أراد الشبان السبعة أن يتقربوا من خطيباتهم، لكن هؤلاء أخبرنهم بالمقابل الذي يطلبونه لتسليم أنفسهن إليهم. فقد شرحن لهم، بكلام معسول مدغدغ، ومن خلال وعود مسكرة، بأن عليهم أن يقدموا قليلا من دمهم لأُمهن التي لا تستطيع أن تنام إلا إن شربت هذا الدم. قبل أخوال

باغوماويل - وهم من الافتتان بحيث خبا لديهم كل تعقل - عن طيب خاطر أن يقدموا من دمهم قبل أن يصلوا محبوباتهم. حينئذ ألصقت كل فتاة بجسد رفيقها قرن الغزالة القميئة الذي يصلح لتمرير الدم عبر المعى الطويل إلى فم نجدو ديوال. ولم تكن هذه تنتظر سوى إشارة كي تشرع في المص على الطرف الآخر، كما يمص مدخن غليونه المترع.

ظننت نجدو ديوال أن باغوماويل نائم، فانتصبت واقفة لتقوم بفعلها المقيت. سعلت قليلا كي تتأكد من أنه غارق في نومه. لم يتحرك الطفل، فأمسكت بالأنايب ووضعتها في فمها. ما أن لامستها بشفتيها حتى صاح باغوماويل:

ما الذي تفعلينه، يا جدتي المحبوبة؟ لماذا تتحركين؟ ولماذا لا تنامين؟ أيكون ذباب قد وخرك، أم لعل براغيث تمص دمك؟ أراحت نجدو ديوال بسرعة الأنايب من فمها وصاحت:

ما الذي يمنعك من أن تنام، يا صبيا عيناه قاسيتان مثل الحجر (*)؟

عقب باغوماويل:

ما يمنعني من النوم، يا جدتي المسنة ذات الفم المفتوح مثل حجر، هو أن أُمي اعتادت على أن تقدم لي، قبل نومي، طبقا من الذباب المشوي. إن لم أتناول هذا الطبق، خلال اليوم الأول من الأسبوع (**)، لا أستطيع أن أنام، والذي يقاسمني غرفتي

(*) عَيْنَانِ قَاسِيَتَانِ مِثْلَ الْحَجَرِ: من الصعب جعلهما تنامان. يقال: «عيناى اليوم مثل الحجر»، أو «صَلَبَتْ عَيْنَاى، هذه الليلة».

(**) لِنَذْكُرْ أَنَّ اللَّيْلَ، بِأَفْرِيْقِيَا كَمَا فِي الشَّرْقِ، يَسْبِقُ النَّهَارَ. الْيَوْمَ الْجَدِيدُ يَبْتَدِئُ إِذْنَ مَسَاءٍ وَلَيْسَ صَبَاحًا كَمَا هُوَ الشَّانُ فِي أَوْرُوبَا.

لا يستطيع أن يحقق أي شيء من نواياه، سواء أكانت نوايا طيبة أم سيئة. إذن، فابعدي هذه الأنابيب عن فمك، وحاولي أن تصطادي ما يلزم من ذباب كي تعدي لي هذا الطبق قبل بزوغ النهار. وإلا فإنك لن تستطعي، لا خلال هذه الليلة ولا خلال يوم غد، أن تقومي بأي شيء، وستشعرين بأنك لست على أحسن حال، لا في بدنك ولا في ذهنك!

نهضت نجدو ديوال، وقضت بقية ليلها في اصطياد الذباب (*)، لكن كل حشرة كانت تصطادها، كانت تنسحق بين أصابعها، إلى درجة أن الشمس أشرقت من دون أن تكون قد جمعت ما يكفي لتهيئ الطبق الذي يطلبه باغوماويل. كانت متعبة، وفي حالة يرثى لها، وعند كل زفرة، كانت تعرب عن صعوبة بالغة في تجديد هواء رئتيها.

تركت الشابات الإخوة يصلونهن، عند الفجر، وهن يجهلن أن أمهن لم تستطع شرب دمهم. وكما جرت العادة بذلك، استعدن بعد ذلك عذريتهن وتوجهن إلى أمهن ليحييئنها. وجدنها لاهثة ممددة على الأرض غير قادرة على الوقوف. سألن قلقات: ماذا حصل لأمنا حتى تبقى نائمة إلى هذا الوقت؟ ما بك يا أماه؟ لماذا تأخرت هكذا في الاستيقاظ؟ سألت البكر.

- لقد قضينا، باغوماويل وأنا، ليلة بيضاء، نحاول أن نصطاد الذباب.

كانت شفتاها وجفناها متورمة وعيناها تذرغان دموعا ساخنة. سال مخاط من منخاريها. لم تكن لها القوة كي

(*) نجدو ديوال، بدورها، يقهرها باغوماويل لأن قواه السحرية أقوى من قواها هي. وهي تفقد أمامه كل قدرة على التفكير أو الحكم الصائب.

تتمخط. عادت الفتيات إلى بيوتهن محيرات. مراليوم رهيبا بالنسبة إلى نجدو ديوال.

أقبلت الليلة الثانية. وعندما انصرم من الليل نصفه، ظنّت نجدو ديوال أن الطفل ينام بعمق، فنهضت كي تمتص أخيرا دم الشبان الذين كانوا لحظتها يقاسمون، للمرة الثانية، الفتيات فراشهن. عندما وضعت أطراف الأنابيب في فمها، شرع باغومويل الشقي يسعل كي يخطرأ بأنه لايزال مستيقظا، صاحت:

يا طفلا عيناه مثل ذرات الماء، ألا تكف عن الدوران! لماذا لا تنام؟ - أيتها الساحرة العجوز، عقب، لا يمكنني أن أنام لأن أُمي كانت قد اعتادت أن تجعلني أشرب، خلال الليلة الثانية من الأسبوع، جرعة ماء مستقى بواسطة خيط. ومادمت لم تسقني جرعة الماء هذه، سأظل مستيقظا ولن تستطعي تحقيق أي شيء من نواياك، لا خلال هذه الليلة ولا خلال يوم غد. لكنني بمجرد أن أشرب تلك الجرعة، يطير عقلي عن جسدي ويثقل جفناي فأغلقهما بالرغم مني وأنام مثل سمكة تسبّت في إناء ماء.

توجهت نجدو المسكينة إلى بئرأ وقضت بقية ليلها تحاول تجميع جرعة ماء بواسطة خيط. وعندما بزغ النهار، لم تكن، طبعا، قد حصلت على أدنى قطرة ماء. عادت إلى غرفتها في غاية التعب فسقطت على الأرض وشرعت تحشرج مثل دابة مذبوحة.

خلال تلك الليلة، كانت الفتيات قد سمحن لعشاقهن بوصلهن، وهن يشرحن لهم بأنه لا شيء يمنعهن من أن يعدن

عذارى كل صباح. ذهبن صباحا ليسلمن على أمهن فوجدنها في حالة أدعى للشفقة من حالتها الليلة السابقة. سألت صُغراهُن متعجبة:

ماذا دهى أمنا، كي تظل نائمة إلى هذه الساعة بدلا من أن تنهض لأشغالها كالمعتاد؟

- لقد قضيت الليل كله على حافة البئر - شرحت نجدو بصوت متعب - أحاول أن أستقي بواسطة خيط جرعة ماء طلبها مني باغوماويل قبل أن ينام.

عندما سمعت الفتيات كلام أمهن، شرع شك يخامرهن في عقلها، هي المعروفة، مع ذلك، بذكائها وفطنتها، فقلن: استقاء ماء بواسطة خيط؟ لا بد أن تكون أمنا مسحورة كي تقوم بعمل مجنون مثل هذا!

تضاعف تعب نجدو ديوال خلال اليوم التالي.

أخضت الفتيات قلقهن، وبدأن الاستعداد للعودة إلى عشاقهن. كان استعدادهن هذه المرة أحسن، فتدللن وتعطرن بروائح اختارها أكبر الخبراء في المجال. وعندما أصبحن في حضرة الشباب، ضاعض مقدار الغواية وقلن:

نحن على استعداد للإعراب لكم عن حبنا مثلما فعلنا خلال الليلتين الماضيتين. وكي نقيم لكم الدليل على مقدار رغبتنا فيكم والطاعة التي نبديها لكم، سنقدم أنفسنا لكم عرايا (*).

(*) قد يبدو غريبا أن تكون الفتيات قاضين ليلتين حميمتين مع رفقاءهن، من دون أن يكن قد أبدین عريهن. غير أن ذلك ليس مثار دهشة عند الفولانيين. ففي تقاليد هذه البلاد، حيث يسود الحياء المطلق، يمكن لامرأة أن تقضي حياتها كاملة إلى جانب زوجها، من دون أن تبدي له جسدها تحت الضوء الكاشف.

أقبلت الليلة الثالثة. تشاورت الفتيات فقررن أن يخاطبن عشاقهن بالخطاب نفسه. وكان الكلام الرقيق ينتهي دائما بهذا الطلب: إن كنت تحبني بالفعل؛ إن لم يكن حبك فقط على لسانك (*)؛ إن كنت مستعدا لأن تسلم نفسك لي كما أسلم نفسي لك، اقبل أن تضحي ببعض دمك من أجل أُمي التي شرعت تحتضر منذ يومين.

أجاب كل شاب رفيقته، كأنهم قد تشاوروا فيما بينهم، هم أيضا: ليس قلبي من صخر حتى تنزلق عليه كلماتك الرقيقة دون أن تلجه. خذي مني ما تشائين من دم لتعالجي عذاب أمك. أليست عودتك إليّ للمرة الثالثة دليلا على إخلاصك؟ ألا يستحق إخلاصك هذا القليل من الدم الذي تطلبينه مني؟ هيا، أسرع! ضعي القرن في شرياني وقولي لأملك أن تمتص حتى ترتوي (**). نهضت نجدو ديوال في منتصف الليل، وقد أخطرتها بناتها. وضعت الأنابيب في فمها، وهي متأكدة من أن الظاهرة الصغيرة قد نام أخيرا، بعد ليلتين بيضاوين. كانت تستعد للمص، عندما شرع باغوماويل، أمام اندهالها، يتثاءب بصوت مرتفع، وشرع يتقلب على سريرهِ، ثم جلس وقال:

أي مشهد ستنخرطين فيه الليلة، يا جدتي التي انشغلت روحها وجحظت عيناها؟
- لماذا لا تنام يا طفلا جنيا، مقلتاه أصلب من صخر (***)؟

(*) يعني: «إن لم تكن مجرد كلمات».

(**) قبل الإخوة، عن طيب خاطر، إعطاء دمهم، لأنهم لا يشعرون بأي تعب.

(***) حرفيا «حبات العين». تسمى المقلة «حبة» بسبب شكلها الدائري، وأيضا لأنها تأوي إلى تجويف، كما تكون الحبة مخبئة في ثمرة أو في الأرض.

- أنا لا أنام لأن أُمي اعتادت عقب عشاء اليوم الثالث من الأسبوع أن تنزع لي من المجرة نجما ألعب به لعبة تيلي (*). لا يغشاني النوم إلا بعد أن أسجل عدة أهداف بواسطة النجم. بعد ذلك أنام! وإن كنت تريدني أن أنام، فقومي من أجلي بما كانت تقوم به أُمي.

خرجت نجدو ديوال، مسحورة دائما من قبل باغوماويل، وصعدت إلى السطح. صنعت لنفسها أداة من خلال ربط عدد كبير من العصي أطراف بعضها إلى بعض، وقضت بقية ليلها محاولة إسقاط نجم كي تسكت أخيرا من كانت تسميه حفيدها الممسوس!

وكما كان منتظرا، لم يحصل أي تحسن، خلال هذه الليلة الثالثة والنهار بعدها، على الحالة البدنية والذهنية لنجدو ديوال.

لا ينتظر أن تكون الليلة الرابعة أسعد من سابقتها، على الرغم من كل المجهودات التي بذلتها الفتيات لغواية مرافقيهن وجعلهم يقبلون أن يعطوا من دمهم. انساق الفتیان - الذين لم يكونوا يشكون بعد في شيء، ولم يكونوا يشعرون بأي إنهاك - مع لعبة العذرية الدائمة لهؤلاء الفتيات اللائي يرقصن في مشيتهن كما ترقص الأغصان المتهادية للشجر بفعل رياح الشمال.

للمرة الرابعة أرحى الليل سدوله.

(*) تيلي: تشبه بعض الشيء لعبة الغولف، التي تلعب بفريقين. يتم قذف كرة بواسطة عصا لجعلها تصل، ليس إلى ثقب، وإنما إلى هدف. وكل فريق يعمل على أن يمنع الفريق الآخر من تسجيل نقط.

تعشى باغوماويل حتى شبع. أما نجدو ديوال، من جهتها، فكانت تكاد تموت جوعاً. أي ذريعة عليها أن تخترعها كي تفلت من هذا الطفل العفريت الذي يزداد أرقاً كل ليلة؟ كيف العمل، تساءلت، لشد سمع هذا الجني وجعله يغط في نوم من رصاص، فتمكن، هي نجدو ديوال، من استرجاع قواها بمص دم الشباب؟ لم يسبق أبداً، أضافت بصوت خافت، أن استطاع كائن بشري أو جني الوقوف في وجه رقيتي أو تحاشي الأخطار الرهيبة التي أجعل كل من يقف في طريقي يواجهها. هل علي أن أتوجه اليوم عند الضبعة ذات الزغب الأسود، الأميرة وارثة الذهب الأسود، دياترو، السيدة العظمى ٦٠ لكل الضواري والقرود الصارخة، كي أسألها عن أي خانات ضرب الرمل الست عشرة علي أن أستعمل كي أسحر باغوماويل وأكنسه مثل قذاة قش من طريقي وتحبيده أخيراً؟

لم يكن لهذه التأملات أن تفيدها في شيء، لأنها عندما وقفت، مرة ثانية، في قلب الليل، كي تضع في فمها أطراف الأنابيب الرقيقة السبعة، انتصب باغوماويل وجلس على سريريه، فقال: أي خيبة أمل هي خيبتك، يا جدتي العجوز، فأنا لم أنم بعد، ومادمت مستيقظاً فلن يمكنك أن تُقدمي على شيء!

صاحت نجدو ديوال، هذه المرة، محتدة: إن قضيت الليلة كلها مستيقظاً، سأقضيها أنا كلها في ضريك! ثم أمسكت باغوماويل، فأثنته إلى الأمام وحبسته بين فخذيهما حتى يصبح ظهره في متناول ضرباتها. ضربته ضربة أولى على رأسه بكفها مبسوطة، ثم مرة ثانية على ظهره، ورفعت كفها لتُكيل له ضربة جديدة،

لكن، بمجرد أن لمست كفها ظهر باغوماويل، أرسل، مثل سمكة كهربائية، شحنة قوية تجمدت منها أطراف الشريرة وشعرت على إثرها بثقل يعادل ثقل حمل حمار يحط على عنقها. صاحت: ماذا قلت وماذا فعلت، أيها المتشيطان يا ابن الجنّة! لماذا لا تنام كما ينام كل الأطفال الذين هم في سنك، في ساعة متأخرة من الليل مثل هذه؟

- لن أنام، أجب باغوماويل، وستبقى أطرافك متجمدة إن لم تقدمي لي ما كانت أمي اعتادت أن تقدمه لي خلال اليوم الرابع من كل أسبوع.

- أيها الطفل اللعين! قل لي ما كانت أمك اعتادت أن تقدمه لك، كي تنام، خلال اليوم الرابع من الأسبوع!

- كل يوم رابع، كانت أمي تقدم لي، بعد العشاء، حبة دباء بحليب جاموسة ولدت لأول مرة.

- أضرف التجمد عن أطرافي، صاحت المشعوذة العاجزة، وقبل أن يرفع الديك عقيرته بالصياح، سأتيك بحبة دباء مملوءة بحليب الجاموسة!

انطلقت نجدو ديوال، بعد أن حررها باغوماويل، إلى الدغل باحثة عن قطيع جاموس. ليس صعبا، بالتأكيد، العثور على قطيع جاموس، لكن ليس من السهل على أحد العثور على جاموسة ولدت لتوها لأول مرة، قصد حلبها؛ ليس ذلك سهلا حتى بالنسبة إلى نجدو ديوال، سيدة المشعوذات والساحرة المتأصلة. قضت الشقية، من جديد، ليلتها تعدو خلف جاموسات، لكن لا جاموسة كانت ترضع لأول مرة.

عندما ظهر قرص الشمس الأصفر على الأفق، قفل قطيع الجاموس عائداً إلى أعالي الدغل، فعادت نجدو ديوال إلى مسكنها خائبة، رأسها منكس أكثر من أي وقت مضى.

وكما هي العادة كل صباح، أقبلت الفتيات لتسلمن عليها. كانت من الإنهاك بحيث لم تستطع حتى أن تجيب كما يجب، على سلامهن. عادت الفتيات، حائرات، عند عشاقهن لتواصلن معهم مداعباتهن المعتادة، ما دام الهدف الذي رسمته أمهن لم يتحقق بعد.

بينما كانت الفتيات السبع والفتيان السبعة يواصلون مداعباتهم، ظلت نجدو ديوال، مشدوهة مندهشة، جالسة. كانت عيناها مفتوحتين، فاغرة فاها، ولعابها يسيل مثل كلب مريض، تندلق من عينيها دموع مثلما يسيل ماء من عين جارية. أضحى عطشها غير محتمل، وأصبح جوعها عذاباً. قضت يوماً شبيهاً بيوم امرأة هالكة. ويمكن القول حتى إن امرأة محكوماً عليها بالذهاب إلى الجحيم، لم تكن تعاني مثلما كانت تعاني هي!

أقبل المساء الخامس في موكب من المفاجآت الخاصة به. أمّلت نجدو ديوال في أن ينتهي باغوماويل، هذه الليلة، بأن ينهار تحت ثقل نوم مازال ممكناً بالنسبة إلى طفل في سنه.

مالت الشمس إلى المغيب، ككل يوم، فأهرقت على الطبيعة ضوءاً أصفر كالذهب، قبل أن يأتي الليل كي يدثرها بمعطفه المُرَقَّ، مرغماً الكائنات النهارية على الالتحاق بمساكنها كي تترك مكانها للكائنات الليلية التي تغادر جحورها بحثاً عن طعام.

امتد الليل بزرقته الداكنة، فوق الأرض. لم يبق أي نجم مختبئا. كل النجوم تلمع مثل لمعان حجر كريم، ملتزمة بموعدها كأنها ذاهبة إلى حفل زفاف.

انتظرت نجدو ديوال أن ينصرم من الليل ثلثاء. آنئذ انتصبت واقفة، وهي مقتنعة بأن باغوماويل يغط في نوم عميق، ووضعت أنابيبها، كما هو معتاد، في فمها وهيأت نفسها بشهية كي تمتص بكل قواها. سدى! ما كان بدا لها مستحيلا، بعد خمس ليال من اليقظة، تكرر مع ذلك. انتصب باغوماويل فجأة على سريريه وصاح: عودي إلى النوم يا جدتي! انزعي من فمك تلك الأنابيب التي تمتد من هنا لتتوجه إلى حيث لا أدري. فأنا لم أنم بعد لأنك لم تقدمي لي ما كانت أُمي تقدمه لي عادة، خلال اليوم الخامس من الأسبوع.

- أنت أيها الجني الصغير! قالت نجدو ديوال، وقد خاب رجاءها. قل لي بسرعة ما كانت أُمك اعتادت على تقديمه لك خلال اليوم الخامس من الأسبوع، وسأفعل مثلها كي تنام أخيرا من دون أن تنبس ببنت شفة ومن دون تردد!

- اعتادت أُمي أن تجعلني أشرب مسحوق حجر مُذاب في حليب خفافش، أجاب باغوماويل بهدوء.

أمسكت نجدو ديوال، متنهدة، بالجراب الذي يحوي ترسانتها السحرية، وتوجهت إلى مغارة الخفافيش الواقعة على قدم أحد جبال البلدة السبعة. أفلحت في حلب إناث خفافيش وسحق بعض الحصيات التي جمعتها، لكن أن تذيب هذا الدقيق الحجري في حليب الخفافيش، فتلك قضية أخرى!

أشرفت الشمس من دون أن تستطيع القيام بذلك.

عادت إلى مسكنها وهي تشعر بخيبة أمل تفوق خيبة صياد غير محظوظ، ويخجل يفوق خجل ملك لم يخسر معركة فقط، بل ترك حيث دارت الحرب - وهو في قمة الشعور بالإهانة - عمامته ودرعه (*). عندما أدركت غرفتها، ارتمت على الأرض. ولما أقبلت الفتيات كي يحييها، وجدنها منهكة مفككة الأوصال كأنها قد قضت ليلتها مربوطة بطريقة قاسية. عندما فهمن أن أمهن قد فشلت للمرة الخامسة، عدن إلى بيوتهن وخاطبن رفقاءهن بهذه الكلمات:

نحن لا نستطيع أن نخفي عليكم الحالة الخطيرة لأمننا. نحن نعود إليكم كي نواصل ما بدأناه، حتى نستطيع أن تشفى. فإذا أقبل اليوم السابع، أي بعد غد، ولم تستطع أن تحصل منكم على ما تشتهي، فإنها، آنذاك، ستمسككم بعنف وتخنقكم بقسوة وتقتلكم شر قتلة! ولن يستطيع حمايتكم، لا دونفون - بفالي ولا فونفون - بفالي ولا ولوكونو - سيبو (**). سيمسك بكم أقوى ذوي الأربع من الضواري؛ السيد الأسد برأسه الكبير ويعرفه العريض والذي نناديه بين - تين - تين، والذي يحدث عند دخوله «بادياج» وعند خروجه «سايبانكون» (***) . سيلوي عنقكم ويشرب من دمكم ويأكل من لحمكم ويزدرد من نخاع عظامكم. بعد ذلك سيخص كل واحد منكم بقبر، خارج المدينة.

(*) تعتبر العمامة، مثل التاج، شعار الزعامة. يمكننا أن نخسر معركة، لكن فُقدان العمامة والدرع يعتبر قمة العار. في مثل هذه الحالة، وبصفة عامة، ينتحر الملك (أو الزعيم).

(**) دونفون - بفالي وفونفون - بفالي ولوكونو - سيبو، ينتمون إلى الآلهة الثمانية والعشرين التي تشكل المشهد الديني الفولاني.

(***) بين - تين - تين: أحد أسماء الأسد. بادياج وسايبانكون محاكاتان صوتيتان.

ها أنتم قد أنذرتهم، ولكم أن تحذروا ابن أختكم الصبي الوقح حتى يكف عن النفخ في نايه القبيح الصغير الذي يرغب أماً على العدو كل ليلة خلف ما لا يُدرَك.

فسواء أكان ابن أختكم على علم بذلك أم لا، فما هو إلا مدع صغير. هو يقوم بكل ما يستطيع حتى يجعل أماً في مواقف مثيرة للسخرية، لكن عندما سيكون الدور عليها، ستتشابك كل عروق وأعصاب ابن أختكم كي تنسج ما يشبه كويرات صلبة. لن يستطيع أي علاج تخليصه من الندوب القاسية التي ستظهر على جسده. ستكون هذه الندوب في البداية غير مؤلمة، لكنها ستشوي في الأخير لحمه، وستكون نتنة بحيث لا تستطيع أية حاسة شم، وإن كانت حاسة أكل جيف، أن تتحمل الرائحة التي ستنبعث منه. ها أنتم قد أنذرتهم كي تحذروا ابن أختكم. لكن هذا التحذير، كونوا متيقنين من ذلك، لن يعكس صفو مداعباتنا. أقبلت الليلة السادسة كما أقبلت سابقتها. هل كان جاييل - فالو، الجدع الصغير، قد أخطر من قبل أخواله بأن يظل هادئاً وأن يترك الساحرة العجوز تفعل ما تشاء؟ كانت المظاهر تشي بذلك، لأنه، بدلاً من أن يبقى نائماً حيث كان ينام دائماً، ذهب وتمدد على عرض الباب كي ينام ثمة، أو على الأقل كي يتظاهر بذلك. كان حتى يشخر بين اللحظة والأخرى كي يُطمئن نجدو ديوال. انقضى الجزء الأول من الليل هكذا هادئاً.

كان الطفل يستريح بهدوء، مثل نائم بريء.

عندما حان الوقت، استنفرت الشريرة، مُنْهَكَةً، كل ما تبقى لها من قوة كي تقف وتضع في فمها، مثل كل ليلة، الأنابيب التي نعرفها.

قفز باغوماويل، على الفور، كأن برغوثاً وخزّه أو بقاً غمزّه، فانتصب على فراشه. طفق يبحث في ملابسه ويحرك غطاءه بقوة وهو يقول بعصبية:

لولا هذا البرغوث والبق لما كنت استيقظت كي أنتبه إلى أنك، أنت يا نجدو ديوال، تعاودين محاولة مص دم أخوالي (*). إذن، فإن الأمر يا جدتي العزيزة، لن يحصل خلال هذه الليلة؛ ذلك أن نومي، لحسن الحظ، قد انقطع بذلك البرغوث والبق. لم تكن الحشرة الواخزة ولا الحشرة الماصة مشؤومتين بالنسبة إليّ. أما الآن فأنا أعلمك بأنني لن أنام خلال ما تبقى من الليل إن لم تقدمي لي ما كانت أمي قد اعتادت أن تقدمه لي خلال اليوم السادس من الأسبوع.

صاحت نجدو ديوال، محموقة غاضبة: هلكت أمك وهلك أبوك! ملعونٌ يوم حملت بك أمك! شائن يوم تسميتك! ولتخنق أخطر الأويئة أبويك! قل إذن ما كانت أمك التي ولدت شرا لن يستطيع أحد وضع حد له، تقدمه إليك خلال اليوم السادس من كل أسبوع؟

انفجر باغوماويل ضاحكا: اعتادت أمي، عقّب بمكر، أن تقدم لي وجبة ساخنة مطبوخة في عمق جيب مائي.

أمسكت نجدو ديوال، كما أصبحت الآن معتادة على ذلك، بجراب رقيقاتها وقذفت به على كتفها ثم توجهت بصعوبة بالغة نحو النهر، إلى مكان حيث كان يوجد جيب مائي تسكنه

(*) بما أن المسألة تقترب من نهايتها، فإن باغوماويل يشعر بأنه قوي بما يكفي كي يظهر لنجدو ديوال أن أخواله إن كانوا أغبياء، فإنه، هو، ليس مثلهم. هو يرهق نجدو ديوال بهذا التصريح قبل أن يوجه لها، خلال الامتحان المقبل، الضربة القاضية.

وحدات من فرس النهر. عندما أدركت الشاطئ، جلست وعزمت على الجيب المائي، أمرة وحدات فرس النهر والتماسيح وخرفان النهر التي كانت تعيش به أن تأتي لنجدها حتى تساعدنا على تحقيق رغبة باغوماويل العفريت.

أن يتم إشعال النار في عمق الماء وطهي وجبة ساخنة فتللك، بكل تأكيد، مهمة لم تستطع بعد أية ساحرة تحقيقها، منذ أن شرعت الشمس تشرق من الشرق وتغرب من الغرب. قضت نبدو ديوال، مرة ثانية، بقية ليلها وهي تحاول سدى أن تحقق المستحيل. أخذت، كما كانت تفعل كل صباح، طريق العودة، مُدُنْدَنَة، لكنها، هذه المرة، كانت تبدو غارقة في خيبة عظيمة. كانت تتكلم بصوت مرتفع لكن من دون أن تُبين، وهي تتحدث للكائنات المتحركة أو الساكنة التي تلاقيها في طريقها.

واصلت دندنتها، وقد وصلت إلى غرفتها، كأنها تهذي في كابوس. عندما عادت إلى رشدها قالت مخاطبة نفسها بصوت خافت دائما: كوني شجاعة يا نبدو، لا تتركي همتك تفترأ سيكون يوم غد، اليوم السابع، هو اليوم الحاسم بالنسبة إلى باغوماويل؛ فأنا قد استطعت أن أنتشل منه الطلسم الصغير المعلق بحبل جلدي والذي كان يلبسه تحت ثيابه. سينام هذه الليلة بالرغم منه، وهذه الليلة لن أقوم فقط بمص كل دم أخواله، بل سأذبحهم أيضا وسأصُفُّ رؤوسهم على العتبة حتى تكون أول ما يراه باغوماويل عندما يستيقظ!

سقطت نبدو ديوال، وقد اطمأنت بعض الشيء لهذه الفكرة، على الأرض ونامت بعمق.

انتصب باغوماويل، الذي ظل نائماً لا يتحرك، فوقف من دون ضجيج. تملأ الساحرة العجوز وهي ممددة هامدة مثل جثة، ثم ذهب كي يختفي في زاوية من الكوخ لأن بنات نجدو ديوال لن يتأخرن في الوصول كي يقدمن تحية الصباح، ولم يكن يريد أن يرينه.

دخلت الفتيات السبع، ككل صباح، إلى الغرفة. وجدن أمهن غارقة في نوم عميق، قبضتها مغلقتان بقوة كأنها تريد بذلك أن تمنع النوم من أن يفر من جسدها. تركنها تنام وعدن إلى جانب عشاقهن كي يواصلن معهم مداعباتهن المعتادة.

عندما كان الشبان والشابات منخرطين في لعبتهم غير عابئين بنجدو، وبالأحرى بباغوماويل، قام هذا الأخير بجعل الساحرة تستنشق، أثناء نومها، منوماً قويا حتى يطمئن إلى أنها لن تستيقظ قبل مدة طويلة. بعد ذلك خطا فوقها وخرج من الغرفة ثم التحق - خارج المدينة - بالغابة المقدسة لويلي - ويلي. جمع منها نباتات ذات فوائد منومة قوية، إضافة إلى كثير من أنواع الصمغ. عندما جمع كل ذلك، عاد حوالى منتصف النهار. كانت نجدو ديوال لاتزال مستغرقة في نومها وقبضتها مغلقتان بإحكام.

أفلح باغوماويل في الاتصال خفية بخاله حمادي، فحذره: خلال هذه الليلة السابعة، سيُختم القدر. إن الأمر يتعلق بقضية موت أو حياة. فإذا أن تموت فتيات نجدو ديوال أو نموت نحن. إنكم، إن ترددتم في تنفيذ الخطة التي سأقدمها إليكم، غدا، قبل أن تعوض الضوء الفضي الأشعة الصفراء للشمس

المشرقة، فإن رؤوسكم السبعة ستكون مصفوفة على باب نجدو ديوال، بينما ستدفن أجسادكم في القرية الصامتة (*).

قال حمادي: أخبرنا بخططك وستنفذها بحذافيرها، لأننا من دونك كنا سنموت.

- خذوا، قال باغوماويل. هذه أوراق ستحرقونها في بيوتكم؛ سيغرق دخانها مرافقاتكم في نوم عميق شبيه بالموت. أما أنتم، فهذا مسحوق ستتناولونه مذابا في الماء، قبل إحراق الأوراق؛ سيعصمكم من أن تناموا تحت تأثير دخان الأوراق. وفضلا عن ذلك، فهذه مدية لا تفل. ستستعملونها في حلق الشعر المضفور لمرافقاتكم السبع أثناء نومهن؛ بعد ذلك، سيعمل كل واحد منكم على وضع هذا الشعر على رأسه مثل شعر مستعار. اعملوا أيضا على تجريدهن من حليهن وملابسهن، وارتدوا أنتم كل ذلك. أما فتيات نجدو ديوال السبع، فستلبسوهن ملابسكم الرجولية وتعمرون رؤوسهن الحليقة بطاقياتكم. اخلقوا أيضا ذقونكم وألصقوا الشعر المخلوق في ذقونهن وأصداغهن بهذه الألساق. عندما تقومون بذلك تلصقون بأجسادهن القرون التي كانت تلصق بكم من دون نتيجة، كل ليلة، ثم تضعون الفتيات في أسرتهن الخاصة. وبعد أن تجمعوا أموركم وتعدوا صرركم، تنامون في أمكنتهن الخاصة. وثمة، تتظاهرون بأنكم نائمون، وإن سمعتم حشجة خلال الليل، ظلوا هادئين.

وصباح الغد، ستنتظر نجدو ديوال، عندما تستيقظ، بناتها سدى، لأنهن لن يأتين ليحييها تحية الصباح كالعادة. عندما

(*) القرية الصامتة: المقبرة.

سترى ما ستره، ستعص على أصابعها وستدخل، من الغضب،
سبابتها، بطريقة آلية، في عينيها كما لو كانت ستستخرج
مقلتيها.

ثبّت حمادي في ذهنه كل ما قاله له ابن أخته وطمأنه على
أنه سيفعل ما أمره به تماما.

أقبلت الليلة السابعة أخيرا. ارتدت فتيات نجدو ديوال أجمل
ثيابهن وهن متأكدات من أن هذه الليلة ستكون حاسمة، وأن أمهن
ستنتصر في الأخير على باغوماويل. وضعن أثمن مجوهراتهن
وتعطرن بأكثر العطور إثارة للشهوة والقادرة على إثارة حتى
الرجال العننين. تناولن، بزینتهن تلك، رفقة عشاقهن، عشاء
شهيا مصحوبا بمشروبات لذيذة تحمس القلب والعقل من دون
أن يفقد شاربها توازنه.

بعد العشاء، تقاسم الشباب من جديد مرحا يفوق ما سبق
لهم أن تقاسموه من قبل. وعندما حانت لحظة الفراق، نهض
حمادي وذهب لإغلاق الباب الرئيسي الذي يفضي من الخارج
إلى أبواب الغرف. بعد ذلك قال للفتيات:

كل واحد منا يحمل أوراقا مقطوفة من شجرة عجيبة لا تنبت
إلا في بلادنا. عندما تلقى هذه الأوراق على الجمر، ينبعث منها
دخان معجز. وكل من سيستنشقه سيرى دعواته التي يتلفظ
بها قبل النوم تتحقق. فإذا سمحتن، سنقوم بذلك في غرفنا.
سيظهر هذا الدخان الجو وسيذهب كل همومنا. وغدا صباحا
سنفיק مشمولين بكل الخيرات التي يمكن لأرض أن تسبغها
على ساكنيها!

لم ترَ الفتيات في قوله ما يريب، فقبلن من دون تردد . أمسك، إذن، كل واحد بكف مرافقته وانسحب كل زوج إلى غرفته الخاصة. كان الإخوة السبعة قد وفروا مَحْرَقَاتٍ عطرِ بها جمرات، فقدفوا فيها بالأوراق التي سلمهم إياها باغوماويل، وقد عملوا، قبل ذلك، خفية، على تناول المسحوق المقاوم للنوم. استنشقت الفتيات اللواتي لم يكن يتشككن في شيء، مطولا الدخان الذي بدت لهن رائحته أذكى من كل العطور التي سبق لهن أن استنشقنها حتى تلك اللحظة. وسرعان ما غرقن في نوم ثقيل. استغل مرافقوهن الفرصة فحلقوا رؤوسهن من دون أن يتلفوا حياة شعرهن. وبعد أن حلقوا، هم أيضا، ذقونهم، ألصقوا ما حصلوه من شعر بذقون وأصداغ الفتيات، ثم وضعوا على رؤوسهن طاقياتهم الخاصة وألبسوهن ملابسهم الرجالية. ثم وضعوا، من جهتهم، على رؤوسهم الشعر المضفور وارتدوا ملابس رفيقاتهم، ثم أناموهن على أسرتهن بعد أن ألصقوا بأجسادهن قرون الظبية القميئة التي يعرفونها حق المعرفة. أخيرا، وبعد أن أعدوا صررهم، تمددوا هم أيضا مكان الفتيات وهمدوا صامتتين. نهضت نجدو ديوال في منتصف الليل. وكي تتأكد من أن باغوماويل ينام بالفعل، سعلت مرات وعطست، وقامت حتى بتحريك بعض الأشياء بعنف. لكن باغوماويل لم يتحرك. بل على العكس من ذلك، شرع يتنفس بعمق، دافعا بمكره إلى أقصى درجة، فأصدر بعض الشخير الخفيف.

لنكن حذرين، خاطبت نجدو ديوال، مع ذلك، نفسها. باغوماويل يشبه قمرا متقلب الأطوار، يمكنه أن يبدو في أية

جهة من السماء نستبعد ظهوره فيها.

عادت من باب الاحتياط لتنام لمدة وجيزة. نهضت بعد ذلك مطمئنة فأمسكت بالأنابيب كعادتها. وضعتها في فمها فلم تُقاطع. ياللعجب! ها هي ذي قادرة أخيرا على أن تمتص بكل ما أوتيت رثاها من قوة! سبعة مجاري دم طويلة، تتدفق في الآن نفسه متسارعة من الأنابيب كي تصب في الفم الشاسع للعجوز الدموية. كانت تبتلع جرعات كبيرة من الدم الساخن المذهب مائلة منه بطنها. شبت أخيرا فتجشأت مرات متعددة كي تعرب عن اكتفائها وعن النصر الذي كانت تعتقد أنها قد حققتة أخيرا على باغوماويل وأخواله.

بعد أن شبت نجدو ديوال، هكذا، من دون أن تعلم، من دم بناتها السبع، نهضت وتسلحت بمعدة شفرتها قاطعة من الجهتين، مشحوة بعناية إلى درجة أنه كان بإمكانها، كما يقال، أن تقسم الهواء إلى قطعتين. خُطت فوق جسد الطفل الذي يبدو دائما غارقا في نوم عميق يقطع كل اتصال له بما حوله. كانت نشيطة بعد أن تناولت وليمتها، فتوجهت إلى الغرف الخاصة ببناتها ناوية ذبح أخوال باغوماويل. فتحت أبواب الغرف تباعا وولجتها بخطى ذئبية. كانت الظلمة داخلها كالحة فعملت، جسا، على تمييز بناتها من رفقائهن. جست الرؤوس بسرعة، ثم جست الملابس، ما دام العاشقان ينامان جنبا إلى جنب. وكل مرة كانت تمرر كفاها على رأس ذقنه وصدغاه مُشعرة، وفوقه طاقيه ذكورية، لم تكن تتردد في قطعه كما يقطع الجزار رأس أي حيوان. قامت بتلك الطريقة، في كل غرفة من الغرف السبع، بعملية ذبح غاية

في القسوة، ملأت قلبها بسعادة تفوق الوصف.

عندما أنهت مهمتها المشؤومة، أغمدت مديتها وعادت إلى غرفتها. خُطت، من جديد، فوق جسد باغوماويل، الذي لا يزال نائما على عرض الباب، قبضتاه مغلقتان. تهالكت أخيرا على سريرها، زافرة بالهواء من رؤيتها في تنهيدة رضا كامل. ولم تكذ تتمدد على سريرها حتى غطت في نوم لا يستطيع أقوى هزيم رعد أن يوقظها منه. لم يكن الأمر يتعلق، بالتأكيد، بنوم عادي. ذلك أن باغوماويل استغل لحظة غياب الساحرة الدموية، فنثر على سريرها مسحوقا منوما قويا وأهرق عليه صلصالا لزجا سحريا، إلى درجة أن نجدو ديوال، وهي نائمة هامدة مثل جثة، كانت ملتصقة إلى سريرها، الملتصق بدوره بالأرض عبر أربع قوائم قوية.

شرعت المرأة العجوز تتنفس بصوت مرتفع، دلالة غطها في نوم عميق. استغل باغوماويل الوضع فسارع إلى غرف أخواله الذين كانوا ينتظرونه مستعدين للفرار رفقته. جمع رؤوس بنات نجدو ديوال السبعة وأتى ليصفها على عتبة غرفة نوم الشريرة، ثم ذهب للبحث عن الرقية المتكلمة المسماة ديمبا - نياسورو (*)، التي تعتبر من بين حراس نجدو ديوال وقال لها:

أنت يا ديمبا - نياسورو! نجدو ديوال لا يمكنها أن تستيقظ إلا بعد أن نكون، أخوالي وأنا، قد غادرنا ويلي - ويلي ومنطقة نفوذها. عندما تستيقظ أبلغها عني، ما دامت قد قدرت أن لا فائدة من سؤالها عما أحتاجه كي أنام هذه الليلة، بأن أمي

(*) إله آخر من آلهة الفولانيين، تسخره نجدو ديوال.

كانت اعتادت، خلال اليوم الأخير من كل أسبوع، أن تربط لي قبضتي وعقبتي بألياف من حجر. والحال أنني لا أعتقد أن نجدو تملك مدية من الحدة بحيث تستطيع تقشير الحجر كما يتم تقشير شجرة البواباب. نجدو ديوال خرجت لنذبح أخوالي، وهي تعتقد أنني نائم. أخبريها بأنها قد قطعت، من دون أن تعلم، رؤوس بناتها؛ فالخشب المنخور لغطاء بئر، ينتهي دائما بأن يسقط في البئر، كما يقول المثل. بمعنى آخر؛ كل من يقصد إصابة قريبه بسوء، ينتهي بأن ينقلب هذا السوء ضده.

عندئذ تحول باغوماويل إلى مركب طائر^(*)، فحمل أخواله وطار بهم إلى هيلي ويويو.

نامت نجدو ديوال ثلاث ليال متواليات. وعند نهاية اليوم الثالث وجدت نفسها، عندما أفاقت، مثبتة إلى الأرض مثل قطعة حديد ملتحمة بقطعة حديد أخرى. نادى على ديمبا - نياسورو، رقيتها المتكلمة، فأجابتها هذه قائلة:

هيه يا نجدو ديوال! لقد أغرقك باغوماويل في نوم عميق، ثم ربط جسدك إلى الأرض. لن تستطيعي مفارقة سريرك إلا بعد أن يكون قد غادر البلد الذي تبسطين عليه حكمك. سبعة رؤوس قطعتها بيديك، توجد مصفوفة على بابك. ولك أنت أن تعرفي لمن هي. ثم صمتت فلم تعد بعد ذلك للكلام أبدا، على الرغم من كل المجهودات التي بذلتها نجدو ديوال.

(*) بما أن النهر يعتبر طريقا تقود إلى المعرفة (المحيط المالح)، فإن المركب الطائر يعتبر، عن طريق المماثلة، وسيلة نقل المتعلم في رحلته الروحية. وهنا، يصبح باغوماويل وسيلة نقل لنفسه وللآخرين.

وبمجرد أن قطع باغوماويل حدَّ البلد الذي تحكمه
الساحرة العظمى، تخلصت هذه من القيود التي كانت
تبقّيها ملتصقة بالأرض. انتصبت وتوجهت نحو الباب. لا
دهشة، سماوية كانت أو أرضية، قادرة على أن تعادل الدهشة
التي استولت عليها عندما تعرّفت رؤوس بناتها السبع
المحلقة مثل رؤوس عقبان مسنة، وتعتمر بشكل غريب لحى
رجولية. أطلقت صرخة، كانت من القوة بحيث كادت أحشاء
الأرض تخرج، ونجوم السماء تسقط على الأرض مثل فواكه
ناضجة! شرعت تبكي، واضعة يديها على رأسها، وهي تردد
متأرجحة:

أنت يا جينوا! (*) أنت يا من يعرف الخير والشر،

أنت يا من خلق الذكر والأنثى،

وابتدع المعادن،

والنباتات والحيوان،

لماذا تركتني

تحت رحمة باغوماويل؟

لماذا جعلتني أذبح بناتي السبع؟

كنّ ماء عيني،

وكنّ طمأنينة قلبي!

خرجت من المنزل مترنحة وتوجهت نحو شجرة باوياب العقبان

العظيمة ٦١. كانت، لحظتئذ، كل آكلات الجيف تلك، مجتمعة على

(*) تلتفت نجدو ديوال أخيرا، في شقائها، نحو جينوا، على غير عاداتها. فهي لم تعد تمتلك
وسائلها المعتادة كي تستدعي عقاريتها. يقول المثل: «لا تعثر عطاية صغيرة وقعة على طريق
جحرها إلا عندما يقطع رأس ذيلها».

غصون الشجرة. وكانت ضبعة عجوز (*) تسكن تجويفا من شجرة
البواب تلك، موجودة هي الأخرى. صاحت نجدو ديوال:

أنت يا ضبعة البابواب!

أنت يا عقبان البابواب!

أنت التي تستفيدين من كل جث ضحايي،

أناسا وحيوانات!

جعلني باغوماويل أذبح بناتي،

وأصاب بالخرس ديمبا - نياسورو، حارسي اليقظ.

أنا أناديك وأطلب غوثك.

أعينيني في صراعي مع باغوماويل،

مع أخواله ومع كل سكان بلده!

أخبريني ما أصنع

حتى يستعيد ديمبا نياسورو

قدراته القديمة.

خرجت الضبعة العجوز من تجويف البابواب. تمطت، في

البداية، مثل كلبة استيقظت من نومها، ثم وضعت خطمها على

الأرض وأطلقت عواء اهتزت الأرض من قوته. على الفور أحاط

بنجدو ديوال (**) ثماني ضباع وتسعة عقبان وخمسة قرود

ضخمة ٦٢. خاطبت الضبعة العجوز الحيوانات:

لقد استدعيتكم كي نعقد اجتماعا بهدف مساعدة نجدو

ديوال، ذات اليد البيضاء علينا. لقد اندلعت لتوها حربٌ ضروس

(*) الضبعة «مشعوذة كبرى» (انظر الهامش رقم ٦٠ من الملحق).

(**) اثنان وعشرون «٢٢» حيوانا: إنه رقم يدل على القوة.

بينها وبين باغوماويل. أنت أيتها العقبان التسعة، حلّقي في السماء وزوري البلد وجمّعي كل المعلومات التي ستمكننا من أن نحارب باغوماويل ومساعديه والانتصار عليهم. وأنت أيتها القروء، ابحثي في الغابات. أما أنت أيتها الضباع، فحومي حول قرى هيلي ويويو، وهاتيني بكل ما يقال هناك همسا وجهرا، وإن اقتضى الأمر، خمّي أفكار الناس الحميمة!

وحافظي على تسترك، لأن باغوماويل ليس عدواً حقيراً. إنه خصم له قيمته، على الرغم من صغره الظاهر. إن كان لا يزال ضمن حدود نجدو ديوال، فهو ليس في مأمن مما سنقوم به، ولن نكون في خطر. لكن، إن كان قد عبرها، فإن الأخطار المحدقة بنا ليست قليلة. وفي جميع الأحوال فإننا سنكون شديدي الحذر لاتقاء شر هذا الجني الصغير.

بمجرد استماع عملاء نجدو لكلام الضبعة، انتشروا في الأرض وفي الأجواء. أما نجدو ديوال، فقد مكثت تحت شجرة الباوياب، مترصدة كل ما يتحرك حولها وهي تتلفظ بهذا التعزيم:

(أنت يا جنّي إيطي - إيطي ١٦٣)

يا جنّي الدفاء،

أنت، يا من يعرف كيف يحمّس الأرواح!

ألهم مرّاسيلي وقُدّ خطاهم،

فتّح عيونهم وسرّح مسامعهم!

لكي لا يغيب شيء عن بصرهم،

ولتسمع آذانهم كل شيء!

أنت أيها الجنّي نيني - نيني

يا حارس الحزن والكآبة!
أمطر باغوماويل وذويه
موتا وحزنا.
أصب يدَي الجنِّي باليباس
فلا تقدر على إمساك شيء أو إطلاقه.
أنت أيها الجنِّي لوندندياو
يا حارس الأخطار!
أغلق الأنبوب المعدني
القائم على ساق نحاسية!
أرعد وكسر واقتل
كل أبطال هيلي ويويو!
لتصبح صيحاتهم من الآن فصاعدا:
مي هيلي يويو، مي هيلي
مي هيلي يويو، مي هيلي ١٦٤!
أنت أيها الجنِّي كيفادياو
أيها القاتل بلا رحمة!
اجنِ أرواح
رجال وحيوانات هيلي ويويو
كما تجنى الثمرات الناضجة!
في هذا وبهذا ومن أجل هذا ومع هذا،
أنا أجدد خضوعي لدونداري (*)

(*) دونداري: اسم آخر لجينو. وهو مصطلح يستدعي فكرة «شديد القوى» وحرفيا: «من يستطيع الفعل من دون أن يخشى عواقب أفعاله».

بذكر السلسلة

التي أنا إحدى حلقاتها ٦٥

تعالى أيتها العفاريث! أنا أنتظر فعلك

من اليوم الثالث عشر إلى اليوم الحادي والعشرين (*)

من الإقمار المقبل!

بعد أن رددت هذا الابتهاال، واصلت حوارها الداخلي:

لقد حرّرت كومبسارا، الرقية العظمى، من اليقطينة المعدنية

على يد سييري وبا - وامندي. منذئذ افتقدت أثرها. هي وحدها

قادرة على أن تخبرني إن كان المدعو جاييل - فالوق قد ولد؛

فولادته ستكون نذير شؤم عليّ وعلى أعمالي. وحدها تقدر على

أن تنصحنى وأن تقول لي ما عليّ أن أفعله (**).

لقد بعثت بضباع ذات عرف خشن ويقرود متسلقة وبُعُقبان

تجيد التحليق، لتأتينى بالأخبار. طارت في الهواء واجتاحت

الغابات وضواحي القرى كي تستخبر عن كل ما يتعلق بكومبسارا

وياغوماويل.

مرّ وقت. ظلت نجدو ديوال تحت شجرة البواب تنتظر،

مستغرقة في أفكارها. رأت أخيراً مساعداتها تعود، لكنها لم تأت

بشيء. استشاطت غيظاً، فرمت الحيوانات بالغباء وطردتها،

فاقدة بذلك مخبرين ذوي قيمة عالية.

(*) من اليوم الثالث عشر إلى اليوم الحادي والعشرين: المجموع ٧ أيام (بعدم احتساب الحدين - مترجم). نعر هنا، كما عثرنا على ذلك في أماكن عدة من الحكاية، على «السبعية»، وهي علامة نجدو ديوال.

(**) كما أن با - وامندي وياغوماويل يستشيران الجمجمة المقدسة، فإن نجدو ديوال كانت تستشير، عندما تلاقى صعوبات، التميمة التي تضم شبح كومباساري. فلو كان هذا الشبح قد ظل في خدمتها لكان حذرهما من ميلاد خصمها المبشر به ولكان أفتى عليها كيف تتصرف كي تنتصر عليه.

آنذاك قال قائد القروء (*) وزعيمها، محزوناً: لا تعودى أبداً إلى طلب العون من النوع الطائرومن ذوي الأربع التي تعيش في الغابة، وبالأخص من الحيوانات المتسلقة! وإن كنت، يا نجدو ديوال، لا تعلمين، فإن جاييل - فالو، خصمك المرسل، قد ولد. وقد ولد بشكل معجز، إذ خرج من بطن أمه دون مساعدة قابلة، وقد أخذ حمامه الأول بنفسه!

نكّل هذا الكشف بالمرأة الشريرة. شرعت تنوح، وقد فقدت وسائلها المعتادة، عاجزة وغير عارفة ما تفعل: كان أول من خانني، من دون شك، هو الوزغة؛ أخط ما خلقه جينو من أنواع العظايات. هو الحيوان الجهنمي الذي مكن با - وامندي وسيري وكوبو من اجتياز اللهب وإدراك الجزيرة وسط البحيرة. لم أكن قد أخذت بعين الاعتبار تدخل العقرب الملكة، ولا تدخل دودتها تحت - أرضية التي تنشط إلى قسمين فتغدو دودتين تسميان «شوكة الأرض» وتحفران آكل النمل.

أنت يا جينو!

أسقط أسنان باغوماويل (**)!

وأصبه بجذري

يترك بثوره على جسده

يدممه ويفقأ عينيه!

ليُصّب بمرض وليفقد كل قدراته!

ليؤكل لحمه!

(*) العالم، معلم القروء؛ بمعنى آخر، زعيمها.

(**) بمعنى آخر: «تجريدته من كل وسائله»، فقد اعتبرت الأسنان رمزا للوسائل التي يستعملها في المقاومة.

ولتنخر عظامه!
ليجف جلدّه ويتصلّب!
لِينتَن مثل مزيلة (*)
بجانب مجزرة!
لتسارع إليه الديدان
ولتمتص دمه!
ليصعب عليه، منذ الآن، كلُّ شيء!
لتتداخل عروقه
مثل حزمة خيوط!
لتتورم شفتاه
ولتنتفخ ولتملاً قيحا!
بعد أن أنهت نجدو ديوال تضرعها الرهيب هذا، ضربت الأرض
بقدمها اليمنى، فظهرت مطيتها الطائرة.
خذني، أمرت، إلى المكان الذي دُفن فيه كيكاالا، أوّل رجل ظهر على
الأرض. سأقضي الليل قرب قبره حتى أرى حلما استباقيا يدلني على
الوسيلة التي أحارب بها جذع فالو. عليّ أن أقتله قبل أن يقتلني.
سأكسر منزل (***) أبيه وأمه، وسأحطم القرية التي ولد بها أقاربه من
جهة أبيه ومن جهة أمه. سأقتلهم جميعا وسأتملى جثثهم!
بعد قولها ذاك، حلقت على ظهر طيرها الضخم الذي توجه
رأسا نحو سابيري، المكان الذي دُفن في كيكاالا. كانت هذه البلدة
العتيقة، التي لم يبق منها سوى الأطلال، تقع في سهل رحيب

(*) مستودع قاذورات.

(**) بمعنى: سأحطم العائلة. «كسر» تحتل معنى حطم.

يسمى بوابيل - ماما (*)، وهو المكان نفسه الذي تجتمع فيه العفاريات التي ولدت قبل الناس، كي تتشاور في أمورها.

عندما وصلت نجدو ديوال إلى هناك، بحثت عن قبر كيكاالا. عثرت عليه إلى جانب قبر ناغارا، زوجته.

اصطادت عقابا هرما رأسه عار عن الزغب وقطعت عنقه. أخذت تبحث عن زغب مأخوذ من عرف حمار عجوز منهوك القوى. بحثت أيضا عن تلك المادة البيضاء التي تتشكل على حافتي عيني الفرس، ثم قطعت رأس ديك. بعد ذلك جمعت بعضا من عشب نابت على قبر مجهول.

وضعت كل ذلك في أنية من خزف وصبت عليه بعض الماء وهي تتلو الصيغة السحرية العظمى التي تبتدئ ب: جوم - تيتي، مان - تيتي (**). التفتت بعد ذلك، تباعا، إلى النقاط الست للفضاء: النقط الأربع الأساس أمامها، ثم إلى السمّت، فالنظير، اللذين نظرت إليهما برفع رأسها ثم بخفضه. رقلت، في كل اتجاه، ثماني مرات، تلك العبارة الطقوسية ثم أضافت:

أنت يا روح العناصر المتجمعة في هذه الأنية!

انزعي أسرارها من جهات الفضاء الست،

وأجيبني عن الأسئلة التي سأطرحها عليك،

لكن لا تجيبني عن الأسئلة التي لن أطرحها عليك.

بصقت سبع مرات في الأنية (***) وطبخت المجموع. عندما

(*) حرفيا: «خرائب». بوابيل - ماما: «سهل الأجداد».

(**) جوم - تيتي، مان - تيتي: كلام سحري يقع في مقدمة بعض الأدعية الطقوسية، عندما يراد بها الحصول على شيء. جوم - تيتي تعني حرفيا «الذي يملك وسائل السلب»: مان - تيتي: «متى سَلَب؟».

(***) يعتبر البصاق بمنزلة وسيلة لنقل القوى المتضمّنة في الكلمات.

نضج الخليط جيدا، أخذت ماءه. استغلت جزءا منه في طبخ عشاء تناولته واقفة، وهيأت بالبقية - التي أضافت إليها ماء مستقى من بئر قديمة تعمرها الضفادع - حماما فاغتسلت به. بعد ذلك صنعت كرسيا مستديرا بضفر الأغصان اللينة لنبتة نجيلوكي، وآخر بضفر أغصان شجرة سفاطو^{٦٦}. عندما أنهتاهما، تمددت على الأرض إلى جانب القبر، فوضعت كرسي نجيلوكي تحت رأسها وكرسي سفاطو تحت قدميها، فنامت مديرة رأسها نحو الغرب منتظرة الحلم الاستباقي^(*).

لحظات قبل أول صيحة ديك، رأت حلما؛ مرق طيف وقال لها:

أنت يا نجدو ديوال! خذي حذرك لأن الأمور ستتبدل عليك. لقد ولد جدع - فالو، وهو آخذ يترعرع بوتيرة لم يسبق أبدا لابن آدم أن ترعرع بها. هو ينمو كل يوم ما يعادل نمو شهر. إنه مرسل أتى إلى الدنيا كي يواجه كل الشرور التي أصيب بها الشعب الفولاني.

استيقظت نجدو منتفضة مبلبلة مما رآته في منامها. رفضت تصديق ما رأت؛ الأمر لا يتعلق إلا بكابوس! نهضت مسرعة وامتنطت طائرها ثم فرت، مغادرة ذلك المكان الذي ليس بالنسبة إليها سوى مكان سهر مقلق.

عندما عادت إلى بيتها حرق جثامين بناتها وجمعت رمادها ووضعت في أكياس صغيرة منفصلة أودعتها جرابها. شرعت

(*) لا تزال هذه الممارسة، حتى يومنا هذا، سائدة من أجل الحصول على حلم استباقي (ما يعادل صلاة الاستخارة عندنا - المترجم)، خصوصا عن الفولانيين الرعاة لمنطقة فيرلو السنغالية، بجهة موغير.

ويلي - ويلي، فجأة، تتحول أمام عيونها المندهشة إلى كومة من الحجارة والصخور. تشكلت، في أماكن منها، مغارات وفجوات شبيهة بتلك التي نراها أحياناً في أشد الأدغال وحشية. حصل ذلك بفعل أذى سحري من باغوماويل.

ما عاد يقطن ويلي - ويلي سوى ضباع هزيلة وأسود بلا أسنان ونمرات بلا مخالب. وكانت الأفاعي قد فقدت سمها وشرعت الضفادع والعظايا تغزو الأزقة. السكان الذين كان بإمكاننا أن نلتقيهم هم ظباء وغزلان وحمر وحشية وسناجيب وعقبان وشياهم. أضحت البلدة مجرد خراب شاسع أضحى ملتقى لكل ما يولد بالغابات ويكمن في الجحور ويقطن الأعشاش، وسط كل أنواع الأعشاب والنباتات التي بها من الأشواك أكثر مما بها من ورود؛ ومسمومة أكثر مما هي قابلة للأكل أو صالحة للعلاج. أصاب نجدو ديوال هذا المشهد، الذي أتى بعد حلمها المشؤوم، بالانهيار، فانسحبت إلى إحدى مغارات بلدتها الخراب.

أثناء ذلك، كان باغوماويل وأخواله قد عادوا إلى حال سبيلهم. وذات يوم، أقبل الإخوة السبعة للبحث عن ابن أختهم فطلبوا منه بالإحاح أن يجعلهم يقومون بجولة جوية فوق مناطق نفوذ نجدو ديوال. كانوا يريدون أن يعرفوا الحال التي أصبحت عليها ويلي - ويلي. رفض باغوماويل، في البداية، محذراً إياهم من المخاطر التي يمكن أن يكونوا عرضة لها إن هم قاموا بمغامرة مثل هذه.

آنذاك التجأ الإخوة السبعة إلى أختهم وامندي. طلبت هذه من ابنها - على الرغم من المخاوف التي ساورتها - أن يعمل

على إرضاء أخواله (*).

وهل يمكن رفض طلب لأم (**): تلك الأم التي نقطنها لتسعة أشهر والتي يكون رحمها غرفة نومنا وغرفة أكلنا ومكان استراحتنا، والتي تهبننا الحياة مخاطرة بحياتها هي؟ ألسيت هي التي تحملنا - بعد ولادتنا - لمدة أربعة وعشرين شهرا؟ من يستطيع، بالفعل، رد دين الأم؟ لا أحدا أقل ما يمكننا أن نقدمه للأم، إذن، كشهادة اعتراف بالجميل، هو أن نعمل على إرضاء رغباتها، مهما تكن، وبأقصى سرعة ممكنة.

لم يكن باغوماويل يجهل ما هو مدين به لأمه وما عليه القيام به من أجلها، فأجابها: ما دمت تطلبين مني ذلك بكل هذا الإلحاح، سأذهب إذن رفقة أخوالي لمواجهة الخطر الذي يمثله الذهاب إلى منطقة نفوذ نجدو ديوال. تحول بعد ذلك، ثانية، إلى مركب طائر وحمل أخواله ثم طار للقيام بالرحلة الخطيرة.

كانت الشريرة العظمى، بدورها، وهي ممددة بمغارتها، تفكر في وسيلة كي تؤوّل تأويلا دقيقا الحلم الذي رآته في منامها قرب قبر كيكالا، وما يمكنها أن تقوم به كي تنتقم من باغوماويل

(*) برغم أن وامندي ترددت في تبليغ طلب مثل هذا لابنها، فإنها لا تستطيع أن ترفض أي شيء يطلبه منها إختوتها الكبار، تماشيا مع التقاليد. يمكن لأخت أن تدفع للقيام بأعمال قد تبدو غريبة حتى ترضي إختوتها، لكن هؤلاء يكونون أيضا مستعدين لفعل أي شيء من أجلها. إن العقل، ههنا، لا دخل له. لا يتم التساؤل عما إذا كان الفعل جيدا أو سيئا، لأن «إرضاء» الأخ أو الأخت هو الهدف. وبذلك، فإن العواقب أو الأخطار لا تؤخذ بعين الاعتبار.

(**) ثمة، وفق تقليد لبلاد السافانا الغربية، أربعة أشخاص لا يحق أبدا أن يقال لهم «لا»: الأيوان والمعلم الملقن والملك والغريب الذي أرسله الله. يتم أحيانا، في شروط معينة، قبول رفض طلب الأب، لكن لا يتم أبدا قبول رفض طلب الأم. ولا تتم الاستجابة لطلب الأم، بسبب كوننا نريد أن نقدم لها خدمة لهذا السبب أو ذاك، وإنما نقوم بذلك بتبعية كاملة وغير مشروطة.

وأخواله. لم يكن لها من رفقاء، في عزلتها، سوى الخفافيش المنتنة والبراغيث ومطيتها الطائرة المخلصة.

وذات يوم، سمعت الضجيج الذي أحدثه المركب الطائر في الفضاء. خرجت مسرعة من مغارتها. إنه جاييل - فالو المستفز، صاحت، أتى رفقة أخواله كي يسعد برؤية حال بلدي المنكوبة! ثم امتطت طائرها وأخذت الأجواء كي تهاجم باغوماويل. كان هذا الأخير قد حلق فوق البلدة الخراب، وأخذ طريق العودة.

كان طير نجدو ديوال يحلق بسرعة فائقة مما جعله يقترب بسرعة من المركب الطائر. ألقت نجدو على المركب حبلا سحريا، فأثار صفيحه انتباه باغوماويل. قذف على الفور نجدو ديوال بمكنسة سحرية. انتصبت من عود المكنسة مجموعة سيقان من خشب الأسل كما ينتصب الشوك الواخز لقنفذ. التوى الحبل السحري عليه، فظنت نجدو أنها قد أصابت الهدف فسحبت، لكن خشبات الأسل كانت حادة فقطعت الحبل إلى أربعة أجزاء سقطت على الأرض. تحول الجزء الأول إلى هوة سحيقة تصيب كل من يحلق فوقها بالدوار؛ وأصبح الثاني نهرا عظيما متلاطم الأمواج؛ وتحول الثالث إلى جبل هو من العلو بحيث لا يستطيع حتى النسر الأشد قوة التحليق فوقه؛ وأصبح الرابع، أخيرا، حريقا في سهل، هو من التاجج بحيث ألهب حتى الأجواء.

حثت نجدو ديوال طيرها على أن يضاعف سرعته، وهي لا تزال تحمل في يدها ما تبقى من حبلها السحري. لكن الطير، عندما حلق فوق الهوة، تأثر بنوع من الجاذبية جعله يفقد، بالتدريج،

من علوه. وعندما وصل في الأخير، إلى وسط الحفرة المفتوحة، سقط فيها محدثا دويا، وقد التصق ريشه بعضه ببعض كأنه قد أغطس في الصاق، فاضطرت نجدو ديوال المنهكة أن تعتمد على قدميها. كانت الحفرة معتمّة كأنها ليل بهيم. مشت الشريرة ساعات طويلة، على غير هدى، باحثة عن مخرج. لمحت أخيرا أمامها ثقباً صغيراً ليس أكبر من خرم إبرة.

كانت نجدو ديوال لاتزال تعلق على كتفها جرابها السحري الذي يحوي الآن، فضلا عن ترسانتها السحرية المعتادة، رماد بناتها. أخرجت منه كيساً صغيراً وفتحته فأخذت منه قليلاً من مسحوق متفجر مزجته بقليل من الرماد. حفرت في الأرض، قرب الثقب، ثقباً آخر بعمق ذراع ووضعت فيه الخليط. آنذاك أخرجت من جرابها قطعة من نوع غطاء «الكازا»، وفركت إليه بقوة شعرها، فالتهبت قطعة الصوف. وضعت نجدو ديوال الفتيل المرتجل إلى جانب الثقب وابتعدت كي تختفي خلف هضبة صغيرة. أمسكت بغصن جاف وجدته بالقرب منها ودفعت به قطعة كازا الملتهبة إلى الثقب. دوى انفجار فاتسع الثقب الصغير الشبيه بخرم إبرة، وأضحى في شكل فتحة تكفي للمرور. غادرت الساحرة مخبأها وهربت من المخرج. لكنها، للأسف، لم تفعل ذلك إلا كي تسقط في الوادي الذي كانت أمواجه من الاعتماد بحيث كانت تقذف في الهواء بالحيوانات المائة الصغيرة كأنها مجرد حبات مبتذلة.

استطاع فرس نهر ضخم، وهو يقاوم الأمواج، أن يقترب من نجدو ديوال: من أنت، صاح، حتى تجرئين على ولوج هذا

النهر في لحظة هيجانه هذه؟ وما وجهتك؟ ألا تكونين تطلبين الهلاك؟

- أنا، قالت، خادمة مخلصه لجاييل - فالو، باغوماويل، الساحر الأكبر الخير الذي ولد من خيرين آخرين، من حيوان وإنسان. وقد دخل في حرب مع نجدو ديوال، ملكة ويلى - ويلى، وكلفني بمراقبة تحركاتها. وهي الآن قد بدأت حملتها! فهي تعلق على كتفها جراب ضرورها الذي يحوي أخطر تشكيلاتها السحرية القادرة على تفجير الأرض بأكملها وإذابة السماء في رمشة عين. أنا أعلم أنها قد خرجت من بيتها هذا الصباح، راكبة طيرا ضخما قويا وسريعا. ستصل إلى المنطقة قبل صباح الغد، أو غدا بعد الزوال على أبعد تقدير. والحال، أنه لا قوة في الوجود قادرة على الوقوف في وجهها سوى قوة باغوماويل نفسه. وإن لم يُخطَر فالو في الوقت المناسب، ستفاجئه نجدو ديوال وستعطل نظام حمايته. وعليّ أن أحذره، في أسرع وقت، حتى يستعد لمواجهة الساحرة العظيمة.

اقتنع فرس النهر الساذج بهذا التصريح، فسلم ظهره الشاسع للساحرة العظمى. امتطته فاستطاعت أن تعبر النهر الهائج من دون مشاكل.

عندما نزلت بالضفة الأخرى، رأت أمامها منتصبا جبلا قويا يمتد في العمق إلى الأرض السابعة ويصل من الارتفاع حدّ أن بدت قمته كأنها تخترق السحاب. قضت يومها كله تبحث عن مخرج أو سيلة لتسلك هذا الحاجز القوي. كانت تمشي أحيانا مبتسمة، رافعة بصرها كي تنظر إلى الجدار العظيم؛ وتارة

تتفحص الأرض وهي مائلة كأنها تريد أن تأخذ من الأرض قطعة خشب جافة؛ وكانت أحياناً تمشي على أربع... لكن، لا شيء من ذلك كان ذا جدوى (*).

أقرت بعجزها فقررت أن تتسلق الجدار، وإن هلكت جراء ذلك. حاولت التسلق سبع مرات، وسبع مرات تدرجت مثل صخر حط من قمة هضبة.

كُلِّمَتْ فسالت دماؤها من جروحها مثلما يجري الماء من منبع، لكنها لم تياس. أخرجت من جرابها مسحوقاً خلطته ببعض رماد بناتها ودهنت أخمص قدميها وراحتي كفيها وركبتيها. أصبحت هذه الأجزاء من جسدها، على الفور، ألصق من قوائم الوزغة. صعدت، ملتصقة بالجدار، بصعوبة بالغة، شبرا شبرا وذراعا ذراعا، إلى أن أدركت أخيراً قمة الجبل. غير أن هذه القمة كانت تفضي، للأسف، فجأة، إلى منحدر زَلِقٍ جداً، مما جعل نجدو ديوال، قبل حتى أن تنتبه لذلك، تسقط وتتزلزل حتى سفح الجبل. وثمة، اندلع لهيب مهول كأنه كان في انتظارها. شرع كل شيء يقطع من الحريق. كانت السنة اللهب تمتد وتنقذف في الفضاء محدثة دخاناً شديداً الكثافة والسواد، مما جعله يغشى السماء. شرعت عقبان ضخمة، وهي تحلق فوق الحريق، تمسك بالطيور والحشرات التي كانت تحاول الفرار من اللهب. احترقت أرانب

(*) «المشي مع الابتسام»: سلوك من أجل جلب الحظ. يقال إن العمل مع الابتسام يسهل النجاح، بينما لا يؤدي العمل مع الحزن إلا إلى الفشل. ومن هذا الباب كان الحرفيون، وهم يشتغلون، يشرعون يغنون أو يصدرون أصواتاً موقعة. ونجدو ديوال تقوم بكل ما تستطيع كي تسحر الجبل، لكن سدى. يقال عن شخص: «لقد استعمل كل وسائله: مشى ونام وزحف، حاول كل شيء، لكن من دون فائدة».

مثلما تحترق قطع خشب جافة وشويت سلاحف مثلما يشوى الدجاج في الفرن.

عندما علمت نجدو ديوال بأنها لن تستطيع عبور هذا السهل من دون أن تُحرق حية، التجأت إلى حيلة: دهنت جسدها برماد وزغة مخلوط بمسحوق نبتة تقاوم الحريق، ثم ولجت النار فخطت على الأرض الحارقة ومشت فوق الجمر المتقد متخطية الحطب الملهب! استخدمت ببراعة يديها وقدميها، محاطة بالأسنة اللهب والأدخنة، فأدركت أخيراً نهاية الحريق وغادرته. لكن شعرها غير المحمي بالمسحوق، مس بالنار فأحرقته أسنة اللهب، وتعرت جمجمتها واسمراً جلدها. كانت بالتأكيد قد أفلتت من موت محقق، لكن جسدها كان يبدو مثل جثة وأصبحت عيناها أشد حمرة من زهر شجرة القابوق.

عندما اجتازت نجدو ديوال كل هذه المحن، علمت أن باغوماويل قد ربح الوقت وفر. كان قد تجاوز منطقة نفوذها وما عاد لها عليه من سلطان. ذهبت، منهارة، لتجلس تحت شجرة جبن تسكنها خفافيش وشرعت تبكي بدموع حارة وهي تعض أصابعها غيظاً. كانت تشعر بشقاء شديد أحست معه أن الفضاء حولها ضاق عليها بما رحب، كأنه زنزانة معزولة. شعرت بالعجز وبعدم القدرة على التصرف فهاجمت، غاضبة، الأشجار والنباتات التي تحيط بها. وهي ترغي وتزبد وتلعن، تقتلعها بعنف وتقذف بها في الاتجاه الذي اختفى منه باغوماويل.

أنت الخفافيش التي تعيش في شجرة الجبن وأحاطت بها .
أنت يا نجدو، خاطبتها، لقد استطاع باغوماويل ثانياً أن يضر
منك . استمعي إلى نصيحتنا: تمرغي في التراب وادهني جسدك
بالصلصال ثم البسي ثياباً من أوراق وعودي إلى بيتك، متقنعة
بتلك الشاكلة . ستكونين شبيهة بحزمة أغصان تقذف بها الرياح،
مما سيمكنك من أن تعودي أدراجك دون أن تتعرضي إلى آثار
التمائم التي زرعها لك باغوماويل في الطريق . إن لم تتصرفي
بهذه الشاكلة، فإنك لن تتعرفي على طريق منزلك، كما أنك
ستموتين قبل انقضاء سبعة أيام . أما بالنسبة إلى باغوماويل،
فقد التحق بهيلي ويويو من دون أن يصاب بسوء، وعاد أخواله
إلى منازلهم بعد أن قدّموا التهنئة لوامندي وشكروا السماء
على أن أعطتهم ابن أخت بهذه الروعة!

طبقت نجدو ديوال حرفياً نصائح الخفافيش ٦٧ .

استطاعت، مخفية خلف قناعها الأخضر، أن تعود من دون
أن تصاب بسوء، إلى مغارتها بالبلدة الخراب . عندما انعزلت في
ملجئها، قضت سبعة أيام تفكر فيما عليها القيام به كي تنتقم
من باغوماويل ؛ لكنها لم تستطع إيجاد أي حل . أرادت، منهكة، أن
تخلص من انفعالاتها الشديدة، فتناولت منوما سائلاً جعلها
تغرق في النوم طيلة أسبوع . عندما أفاق، وجدت أن
لا شيء تغير . لم تستطع أن تقاوم قلقها المتنامي، فأخذت جرابها
وأخرجت منه ملفوفاً يحوي مسحوقاً مشكلاً من رماد حرياء .
اغتسلت به كما يتم عادة غسل ميت . حللت المسحوق السحري
في الماء وغسلت به كل جسدها ثم شربت بعضه . بعد ذلك ذهب

لتجلس على مقعد من عروش الفوجي المضفورة. جلست جهة
الغرب ومكثت تنتظر اللحظة التي يشرع خلالها قرص الشمس
يختفي خلف الأفق. آنذاك بدأت ترتل هذه التعزيمة:

أنت يا جينو، استمع لصوتي.

أنت السيد،

السيد المطلق لكل شيء.

أنا أم،

أم يائسة

تبكي موت بناتها السبع.

كالشمس التي ستختفي في العتمة،

اعمل، يا جينو، على أن يختفي مظهري المعتاد

كما تختفي الجثة في قبرها!

من فضلك يا جينو!

اجعلني امرأة جميلة

تُتمل رؤيتها الرجال

وتجعلهم يفقدون صوابهم.

يا جينو، يا مالك العظمة!

اجعلني امرأة فاتنة،

مجربة ومحبوبة وجذابة!

بعد أن تلفظت بدعائها، عادت إلى فراشها ونامت مثل روح

بريئة لا مأخذ لها على نفسها.

عندما استيقظت نجدو صباح اليوم التالي، اكتشفت أنها قد

أضحت امرأة شابة بجمال لا يضاهي، كأنها قد خرجت لتوها

من الجنة (*)! وجدت نفسها مُحَاطَةً بسبع غايات كلهن فائنات الجمال. خاطبتهن قائلة: الزمن ينصرم. لننصرف في أقرب وقت ممكن، فالوقت الضائع لا يعود. امتطين على الفور بغالا رائعة مطهمة، ابتدعها سحر نجدو ديوال، وأخذن وجهة هيلي ويويو. كانت الساحرة العظمى قد حرصت على أن تعجل ببعث رسل قبلها، وهم يمتطون جيادا سريعة. أعلنوا في كل مكان أن قافلة كبيرة محملة بأعلى البضائع، تقودها تاجرة ثرية قادمة إلى هيلي لتحضر المعرض السنوي لمدة أسبوع. وقبل أن تنطلق شرعت توزع بسخاء عينات من تجارتها فائقة الجمال، تسمح بتقدير جودة وقيمة بضائعها التي ستعرضها على المشترين. عندما وصلت نجدو إلى هيلي، أقامت مضاربها خارج البلدة. أنشأت بالمكان أبنية مؤقتة مرتبة ومنظمة بتناغم، مما فتن سكان هيلي وكل عشاق المعرض القادمين من الجهات الأربع للبلاد. كان المكان جميلا ومثيرا للبهجة، معمورا بنباتات رائعة تجري بين أشجاره المورقة شعبة وادٍ ملتوية مثل أفعى ملتفة حول نفسها. في كلمة، كان جذب مضارب نجدو من القوة بحيث جعل معرض هيلي، على الفور، يتحول إلى مكانه بشكل كلي تقريبا. كانت المضارب مملوءة بأشياء ثمينة من ذهب وفضة ودمالج وأحجار كريمة وعقود وخواتم. كما كانت به أوان

(*) لماذا يستجيب جينو لدعاء نجدو ديوال الشريرة؟ علينا ألا ننسى أنه هو نفسه من أرسلها، وبالتالي فإن ما يقرره لا يكون واضح الدلالة... خصوصا بالنسبة إلى الأحكام المتسارعة أو المصطنعة. وبالفعل، فإن نجدو ديوال، بهذا الشكل، تكون لا يزال لها دور تلعبه كي تستمر الحكاية بشكل جيد قبل الوصول إلى نهاية الحكبة. وما نعتقد هي أنه تحول مبارك لمصلحتها ليس سوى السير بها نحو مصيرها. يقول المثل: «كل وسيلة تستعمل لتفادي القدر، لا تؤدي بصاحبها إلا إلى الإسراع نحوه».

منزلية وأدوات من نحاس أصفر أو أحمر منقوشة بعناية وملابس من حرير مزينة بشرابات وحواش ومطرزة بخيوط ذهبية صافية وجياد ضخمة أصيلة مروّضة، إضافة إلى آلاف من الروائع. كان كل ذلك يؤخذ بالمزاد مقابل لا شيء تقريباً! حتى الحمير لم تكن عادية، بل كانت عبارة عن بردونات (*)! أما الخرفان والماعز، فكانت تضاهي بأحجامها حجم الطباء. وكانت الأبقار يكتنزن من الحليب ما تقطر به حلمات أضرعهن عند أدنى حركة.

أقبل السكان على معرض القرية. كانت البضائع بثمن بخس، مما جعلهم يقبلون عليها طيلة أسبوع، وما عاد وقت لأحد أن يبيع.

وسرعان ما سرت بذكر التجارة الغنية الركبان في كل البلاد. ذاك كان هو مبتغى نجد وديوال. شعرت بارتياح كبير، بعد أن كان الضيق مازال مسيطراً عليها إلى تلك اللحظة. أخيراً، هذه أمنياتها آخذة في التحقق! أذاعت أنها ستقيم، مع مرافقيها ومرافقاتها، حفلاً عظيماً على شرف الشباب، على أمل أن يكون الحفل مناسبة لإقامة علاقات زوجية تجعل العلاقات بين بلدها وبلد هيلي ويويو أقوى.

أثار اقتراحها حماس الشباب وشرع الجميع يتحدث عنه في السوق وفي الأزقة وفي الساحات العمومية وحتى في المساكن الخاصة. كان مجيء هذه السيدة، برّكة مثلما هي هبة من السماء يجب الاستفادة منها.

(*) (مفردهما بردون - المترجم): مولود من اجتماع فرس وحمار.

أليس الحظ، كما يقال، مثل زغب قلب؟ مادمنّا لا نعرف على أي جزء من الجسد سينمو، يكون علينا أن نراقبه وأن نعرف كيف نمسك به في حينه.

أقيم الحفل في اليوم المحدد. ارتاده أحوال باغوماويل على الرغم من تحفظات ابن أختهم. طلب منهم باغوماويل أن يكونوا شديدي الحذر واليقظة لأن توزيع ثروة بهذه الطريقة، من وجهة نظره، لا يمكنه إلا أن يكون مُحفيا لنية غير معلنة. عندما أقبل الشباب إلى مضارب التاجرة الغنية، عمدت هذه إلى اختيار أجمل ست فتيات من حولها وقذفت بهن إلى أحضان أصغر ستة من الإخوان السبعة، محتفظة هي لنفسها بحمادي، البكر. عاهدت كل واحدة منهن فارسها بأن تتزوجه. وما حصل تلك الليلة، ما الذي يمكن أن يعبر عنه أحسن من هذه المقطوعة الفولانية؟

قال لك آجا ٦٨: خذ حذرك أيها الرجل!

توجّس الحيلة التي نسجتها لك المرأة (*)

هي أخطر من رمح الحرب.

قد تُفطس أنت في اللهب،

وقد تغرق أمام أنظار الجميع.

من يلمس القاذورات (***) تُلطخ يده.

(*) «حيلة المرأة»: مكرها وخبيثها.

(**) القاذورات تعني هنا الفحش، أي العلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية. وهو أمر منبوذ جدا في تقاليد البافور (السافانا الغربية). وليس الفعل الجنسي، في هذا التقليد، هو الذي يعتبر معيبا - بالعكس، فهو مقدس لأن «رحم المرأة هو معمل جينو» (أو مانغالا)، وإنما المعيب اقترافه خارج إطار الطقوس والمعايير.

جمال الأنثى يعمي الذكر؛

يُضله حتى يفقد شرفه

يجسُ ويتأتى ويَمأمى دون جدوى.

إن أفلح فذاك هو العار،

وإن فشل فهو الاحتقار^{٦٩}.

للأسف، لم يأخذ أحوال باغوماويل حذرهم من الحيلة التي نسجتها التاجرة الجميلة والغنية. قبلوا من دون تردد اقتراحات مرافقاتهم وواعدوهن بالذهاب معهن ليطلبوهن للزواج، بالطريقة التقليدية، من آبائهن^(*). لكنهم كانوا قد لمسوا القاذورات فأفقدتهم رشدهم العلاقات التي أقاموها مع الفتيات خارج إطار الزواج.

عندما أخطر باغوماويل بذلك، جمع مجلس شيوخ هيلي ويويو وقال لهم: لقد تم الإيقاع بأخوالي. اعتقدوا أنهم قد عثروا على مرافقات نموذجيات، وهم يريدون أن يذهبوا معهن كي يتعرفوا على أصهارهم المستقبليين. لكن هذه المرأة التي أتت وأغرقت معرضنا ببضاعتها التي تضاهي حبات الرمال عدداً، تقلقني. أنا أشك بقوة في أمرها.

تقاليد الفولانيين الحمر^(**) تقتضي، بالفعل، أن يتم قضاء الأيام السبعة الأولى للخطوبة في بيت الأصهار، وأنا أتفهم أن يكون أخوالي يريدون احترام التقاليد، لكنني أشك في أن الأمور

(*) أن تكون الفتيات، عكس التقاليد، قد اقترحن أنفسهن للزواج، وأن يكون الإخوة السبعة قد قبلوا، لا يكفي لعقد القران، حسب التقاليد. ويكون على الشباب أن يتوجهوا إلى عائلات الفتيات كي يسوا الوضعية.

(**) لقب أطلق على الفولانيين الرعويين.

ستمر على خير. أنا أخشى أن تكون نجدو ديوال من وراء هذا الأمر كله. كيف يمكننا أن نقبل أن تجد امرأة بهذا الجمال وهذا الثراء نفسها مضطرة لذرع البلد حتى تحصل على زوج لنفسها ولمرافقاتها الجميلات؟

ومن المعروف أن أي تاجرة تسعى إلى الريح من وراء تجارتها، والحال أن هذه تباع بضاعتها بأبخس الأثمان. إنها من وجهة نظري تبحث عن شيء آخر غير الربح التجاري. إن هذا لواضح وضوح الشمس في كبد السماء! لكن، للأسف، وكما يقول المثل: «الطائر الذي سيموت برمية سهم، لا يسمع الصفير المحذر من الخطر»، أو كما يقول أيضا: «من سيموت لا يلمح تنقل الرصاصة التي ستجهز عليه».

كان باغوماويل قد قبل، بالرغم منه، أن يقوم أخواله بالرحلة، لأنه لا شيء كان قادرا على كسر تصميمهم. أعدت لهم، صباح اليوم التالي، باكرا، قافلة، فمُنح الشباب السبعة سبعة جياذ مطهمة بشكل جيد، وجمعت البضائع، التي لم تُبع، في أكياس وضعت على ظهر حيوانات لحمل الأثقال، كما وضع بعضها على ظهر خمسة حمير من نوع البردون حتى انثنت من ثقلها ظهورها.

أخيرا، وبعد يوم كامل من الاستعدادات، أصبحت القافلة مستعدة للانطلاق نحو وجهة مجهولة، فغادرت هيلي ويويو منتصف النهار.

كانت الظلمة من الكثافة بحيث لم يكن بمستطاع أحد أن يرى راحة يده. كانت التاجرة الثرية تركب ثورا ضخما، وكان

أخوال باغوماويل يتقافزون إلى جانبها. كانوا، من فخرهم، يجعلون مطاياهم تمشي مشيا موقعا، بل كانوا يجعلونها ترقص ليستميلوا زوجاتهم في المستقبل ٧٠.

مشت القافلة كل الليل، وعند الفجر، قالت التاجرة الغنية لحمادي: سيروا في المقدمة أنت وإخوتك؛ ستكونون طليعتنا، وستتبعكم بقية القافلة في خط مستقيم.

أخذ حمادي المقدمة متبوعا بإخوته الستة، وسارت نجدو ديوال خلف نجوبو، أصغر الإخوة.

شرع حمادي، في قمة سعادته، يتغنى بالحب ويفتخر بنفسه. وكان أحيين أخرى، خلال ذلك، يتغنى بأشعار رعوية تمجد الانتصارات الكبرى لرعاة قدامى، أو بأناشيد حربية تمجد أبطالاً قداموا أرواحهم فداء للمرأة واليتيم وللنوع البقري. أما إخوته الستة فقد اكتفوا بترديد أناشيد تُغنى في الأعراس كأنهم يستعجلون قرانهم المقبل.

وعندما كان أخوال باغوماويل يهيمنون هكذا في ثمانية أناشيدهم، لم ينتبهوا إلى أن القافلة خلفهم، وبالموازاة مع تقدمهم، كانت تتناقص تدريجيا كأن الأرض تبتلعها شيئا فشيئا. كانوا يمشون قدما غير مهتمين إلا بالأفق الذي يتراجع أمامهم كأنه مستقبل عصي على التحقق.

سرعان ما اختفت القافلة كلها تحت الأرض، وبقيت التاجرة المُدعاة وحدها خلف أخوال باغوماويل السبعة. فجأة، وأمام اندهال الشبان السبعة، اختفت مطاياهم تحت الأرض كأن أنسياها ابتلعها. وجدوا أنفسهم جميعا جالسين على الأرض.

في قمة مفاجاتهم، انتصب حمادي واقفاً. وعندما لم ير القافلة،
سأل خطيبته الواقفة أمامه، وقد أضحت أجمل من أي وقت
مضى:

أنت يا وورانيكام، يا حياتي (*)، أين اختفت القافلة، وأين
مطايانا، وأين نحن؟

- لماذا أنت قلق؟ أجابته بصوت رقيق. هل أنت خائف؟ إن كان
الأمر كذلك، فاعلم أنه لا يمكنني أن أحب جباناً ولن أقبل الزواج
منه أبداً. لكن عليّ أن أقول لك الحقيقة، فأنا لست جميلة من
دون سبب، عليك أن تعي ذلك. أمي ابنة رجل وامرأة، لكن أبي
جني. كثير من الرجال طلبوا الزواج مني، لكن من أحبيته
واخترته من بين الجميع هو أنت، واخترت إخوتك لرافقتي.
وقد جعلت المطايا تختفي لأنني أردت تجنيبكم عناء إنزال ما
عليها وربطها. ألا نعمل على تجنيب من نحب كل عناء؟

أثناء حديث نجدو ديوال، شَعَرَ الشبان السبعة، فجأة، بقوة
غير مرئية عظيمة ترغمهم على التمدد على الأرض والبقاء
بلا حراك، بينما كان أمرُّ ما أصلب من الصخر يُنشأ حولهم.
وبالفعل، فإن نجدو ديوال كانت قد أمرت فريقاً من البنائين -
العفاريت بحبس أخوال باغوماويل في نوع من التوابيت الحجرية
تلف أجسادهم ورؤوسهم، ولا تترك ظاهراً سوى وجوههم. وهكذا
وجد الشبان المساكين أنفسهم وسط توابيت حجرية كأنهم أحياء
بين الموتى أو موتى بين الأحياء.

وكي تحول نجدو ديوال دون وفاتهم وتخليصهم من عذابهم،

(*) وورانيكام: حرفياً «حياتي أنا».

عمدت إلى مدهم ببعض الطعام. بعد ذلك أمرت عفاريتها برفع التوابيت الحجرية وتثبيتها واقفة حول دائرة يصل قطرها سبع أذرع. عندما أصبحوا على تلك الشاكلة، ذهبت للبحث عن جرابها فأخرجت منه الأكياس الصغيرة السبعة التي تحوي ما تبقى من رماد بناتها. دخلت وسط الدائرة وأفرغت محتوى كل علبه على قدم كل تابوت من التوابيت الحجرية السبعة ثم قالت: أنتم يا أحوال باغوماويل! لكل دور! لقد جعلني ابن أختكم أذبح بناتي اللواتي يوجد رمادهن أمام أقدامكم. وقد استدرجتم لمنطقة نفوذي. اعلموا أن حراس هذا البلد أفاعي سامة، وزعماء الحرب أسود ضارية والخدم فيلة مأكرة. لن تكون لكم إذن أية فرصة للفرار من سجونكم.

آنذاك استخرجت نجدو ديوال من جرابها ملفوف مسحوق. قذفت منه جزءا على كل كومة رماد. خلطت كل ذلك بقضيب قطعته من شجرة عناب (*)، وبصقت سبع مرات على كل كومة، ثم تلفظت بكلام لا يفهمه أحد غيرها. أخذ الرماد يعتمل مثل قشطة تمخض. أصبح الخليط مثل روبة دم. ارتفعت المادة اللاصقة كما لو بفعل خميرة، واستدارت في شكل يقطينة تجعل الرائي يفكر في بطن امرأة حامل. لكن اليقطينة كانت شفافة فأخذت قطع الدم الكبيرة، أمام أنظار المحنطين، تتحول إلى عظام ولحم وأعصاب. استقام كل ذلك، بشكل معجز، وتعديل في شكل بناء مشابه لوكر أرضية له ملمح جسد امرأة، لكنه جسد بدون رأس.

(* قضيب عناب، انظر الهامش ٧١ من الملحق.

عادت نجدو ديوال، لحظات بعد هذا التحول المذهل، إلى الظهور، بعد أن كانت قد اختفت، حاملة رؤوس البنات السبع. عرضتها على الفتیان السبعة المحبوسين: هل تعرفتم على هذه الرؤوس؟ ابن أختكم جعلني أقطعها. كونوا على يقين بأنني سأجعل كل واحد منكم يموت سبع مرات انتقاما لبناتي اللائي ترون أجسادهن في شكل وكر أرضة!

انصرم شهر على انصراف القافلة. لم يتناه أي خبر لهيلي ويويو عن الشبان السبعة. ذهبت وامندي أم باغوماويل لمقابلة ولدها فقالت متألة: لقد ذهب إخواني مع المرأة التاجرة، وها قد انقضى شهر من دون أن نعرف أي شيء عنهم. أنا أخشى أن يكون قد أصابهم سوء. بعد ذلك أمسكت بشديها ووجهتهما نحو باغوماويل وقالت وهي تنظر في عينيه: أستحلفك باسم السائل المغذي الذي رضعته من هذين الثديين^(*)، قل، يا باغوماويل يا ولدي، شيئاً كي تطمئنني على مصير إخوتي، أوقم بشيء كي تعيدهم إلي. أنت يا جذع فالوا هم أحوالك؛ هم وأنا خرجنا من البطن نفسه ورضعنا الحليب نفسه. ما يصيبهم من سوء يصيبني، وبالضرورة يصيبك أنت أيضاً.

لم تكن وامندي وحدها قلقة بهيلي ويويو. كان البلد كله يتساءل بقلق عن مصير الإخوة السبعة الذين تركوا أنفسهم يتقادون لقوة الحب العمياء.

(*) لم يكن لباغوماويل، في حقيقة الأمر، الوقت الكافي كي يشرب من حليب وامندي. لكن لها الحق، مع ذلك، وحسب ما جرت به التقاليد، بوصفها أما، أن تتلفظ بهذه العبارة الطقوسية. بل حتى الخالة (أخت الأم) يمكنها أن تتلفظ بها.

التجأ باغوماويل، استدرازا للإلهام، إلى ظل شجرة العناب المقدسة بهيلي ويويو؛ تلك الشجرة العجيبة التي تثمر في كل فصل، والتي لم يكن لأسوأ مواسم الجفاف أي أثر عليها ٧١. أكل من ثمرها وشرب من الماء الشفاف الجاري على قدمها؛ ثم أخرج من جرابه الجمجمة المتكلمة التي ورثها عن جده با - وامندي (*). سطر، كما يقتضي الطقس ذلك، على الأرض جدولاً ووضع الجمجمة في مركزه. بعد ذلك أخذ ينتظر مولياً وجهه جهة الشرق، إلى أن حانت لحظة بزوغ القرص الشمسي على الأفق، مثل كرة مستديرة موضوعة على قاعدة غير مرئية. واجه الشمس وقال:

أنا باغوماويل جايل - فالو. تلقيت تعليمي على يد جدي با - وامندي الذي تلقى تعليمه بدوره على يد سلسلة من الرجال تمتد إلى كومين. أنت يا جمجمة متكلمة! أنا أبحت، مثلما بحث قديما سيللي ساديو عن بقرته الضائعة، عن أخوالي المختفين. كان سيللي ساديو، في زمانه، قد سمع صوت كومين ٧٢. وأنا اليوم بحق قولة هور، هور، وهور! وبحق الكلمات فيتان! فيتان! فيتان! فيري (**)، أستحلفك بالشمس الشارقة، أنت يا جمجمة مقدسة، أن تخبريني بما علي القيام به كي أعثر على أخوالي المحبوسين، بالتأكيد، في مكان ما خفي، من طرف نجدو ديوال، أم الكارثة.

(*) الموروثة عن جده با - وامندي: تدفع الحكاية، من حين لآخر، إلى افتراض أن با - وامندي قد توفي، والحال أن التصريح بذلك لا يتم.

(**) هور... هيري: محاكاة صوتيتان تعزيمتان غير قابلتين للترجمة، تلفظ بهما كومين عند أول فرجة (انظر كومين. ص ٢٨ و ٣٩).

ذكور هذا العالم وإنائه لهم في أحشائهم بذرة الحياة التي تسمح لنوعهم بأن يتوالد ويبقى. أما نجدو ديوال، من جهتها، فإنها لا تملك في روحها وذنها سوى بذرة الموت والخراب، وبذرَات الجفاف والجوع والمرض.

أنت أيتها الجمجمة، اجعليني أستطيع كشف نجدو ديوال مهما يكن مخبؤها!

أجابت الجمجمة:

أجل. أنا الخادمة المطيعة التي وضعها جينو تحت سلطة بويتورينغ، جد الفولانيين. سأظل دائما مطيعة لنسله ما دام لم يهمل تربية ثلاثة أنواع: النوع الغنمي والنوع البقري والنوع العنزي.

والآن، يا باغوماويل، اذهب إلى غرفة نوم جدك با - وامندي. ستجد ثمة نحلة؛ نحلة ضخمة. اسألها: أين الضفدعة التي تنق، فابوغا! فابوغا! بوغا فوندوندور!؟ (*)

ستأخذك النحلة ٧٣، التي هي ملكة عظيمة، إلى الضفدعة. آنذاك، قل للضفدعة: مُرِ الملكة النحلة ٧٤ أن تحملني إلى حيث أسرت نجدو ديوال أخوالي. ستبتلعك النحلة بعد أن تتلقى هذا الأمر وستطير في مقدمة سربها لمص رحيق الزهور عبر كل ربوع البلد. ستنتهي النباتات بأن تُسر لها بالمكان الذي تحبس فيه نجدو ديوال أخوالك. ستذهب إلى هناك، وعندما تدرك المكان، ستخبرك النحلة بالطريقة التي ستخلص بها أقاربك من أسرهم.

(*) الضفدعة فابوغا: ضفدعة أسطورية نجدها أيضا في نص كومين (ص ٢٨ و ٢٩).

نَفَذَ باغوماويل تعليمات الجمجمة، فتوجه إلى غرفة جده. عثر فيها، بالفعل، على الملكة النحلة التي قادته إلى الضفدعة فابوغا. أمرت الضفدعة النحلة ببلع باغوماويل وبحملة إلى المكان الذي تأسرفيه نجدو ديوال أخواله. ابتلعت الحشرة الضخمة باغوماويل بسهولة كأنه رحيق وردة؛ ثم حلقت في السماء على رأس سربها.

بعد صباح طويل من امتصاص الرحيق عبر البلد، علم النحل العامل، أخيرا، من طرف بعض الزهور، في أي مكان تأسر نجدو الساحرة أخوال باغوماويل. طار السرب مَقُودًا بالملكة في الاتجاه المطلوب.

رأت نجدو السرب يقترب. صاحت: أخيرا، أشفق عليّ جينوا! ها هو ذا قد أرسل إليّ سرب نحل ليقدم لي العسل الضروري لإعداد نبيذي! كانت قد اعتادت بالفعل، كل مرة يعوزها الدم الطري، المصوص من الفتيان المُرْد، أن تستعيد نشاطها بشرب نبيذ مصنوع من العسل. لذلك لم تقم بأي شيء كي تمنع السرب من أن يعشش في تجويف شجرة باوواب ضخمة، تنتصب غير بعيد عن المكان، حتى تستزيد من جمع المؤونة من الزهور الموجودة هناك.

عثر النحل، بعد سبعة أيام من البحث الدقيق، على التوابيت الحجرية السبعة التي حُبس فيها أخوال باغوماويل البؤساء. حصل اليقين لدى النحل بأن الإخوة السبعة أحياء، لكن معاناتهم شديدة، لأن لذة نجدو ديوال تكمن في أن تراههم يموتون ببطء. أخطر النحل ملكتهم فأحضرت من العش عددا كبيرا من

وسائل العلاج التي استقتها من مختلف الزهور. أخرجت النحلة باغوماويل من بطنها وأخبرته بالحالة السيئة التي يوجد عليها أخواله، فسألها باغوماويل:

ما الذي عليّ أن أقوم به؟ كيف يجب أن أتصرف كي أخلصهم من أسرهم.

أجابته ملكة النحل:

لقد وضع جينو إحدى عشرة قوة في الطبيعة. وكل واحدة من هذه القوى قادرة على تحطيم القوة التي انبثقت منها ٧٥. وهكذا، فالحديد قادر على تحطيم الحجر الذي انبثق منه. علينا إذن أن نتوجه إلى الجنى الوصي على الحديد ٧٦ حتى يأمر مساعديه بتكسير توابيت الحجر التي يُحبس أخوالك بداخلها.

- من هو «سيد الحديد» ٧٧، سأل باغوماويل. علينا بالفعل أن نقصده كي يتلو التعزيمات المناسبة ويجعل عفاريت الحديد تميل إلى جانبنا.

- أسأل الجمجمة المتكلمة التي ورثتها عن أجدادك. قالت الملكة.

سطر باغوماويل على الأرض الشكل المعتاد ووضع داخله الجمجمة التي لا يفارقها أبدا ثم سألها. ومرة ثانية انبعث الصوت العجيب:

اذكر سبع مرات اسم نونفايري، جدّ الحدادين، وسيظهر لك. ذكره بالعقد الأصلي المبرم بين الفولانيين والحدادين في وادي بوكول، داخل أول عش أرضة ظهر من الأرض. ففي ذلك اليوم

كان نونفاييري، الراعي، قد تحول إلى حداد شغله هو الحديد، في حين كان بويتورينغ، الحداد المشتغل على الحديد، قد أصبح راعياً ٧٨. كان بويتورينغ الضولاني قد نقل إلى نونفاييري أسرار الحديد وأسرار النار التي ينتج الحديد عنها، بينما كان نونفاييري قد علم بويتورينغ سر البقرة التي تدر حليباً وسر الحليب الذي ينتج سمناً وسر السمن الذي يعطر الأكل أثناء طبخه.

ويحق سر السمن والحليب ٧٩، سيأمر نونفاييري الحديد بتخليص أخوالك من أسر نجدو ديوال، الكارثة العظمى. تلفظ باغوماويل بالتعزيم، فظهر نونفاييري واقفاً أمام عش أرضة أسود منشأ في ظل شجرة باباب عظيمة.

أنت يا نونفاييري! قال باغوماويل. أنت الذي كنت راعياً فصرت حداداً، أستحلفك بالتحالف الذي أقمته مع جدي بويتورينغ الحداد الذي صار راعياً، مُر الحديد، الناتج عن الحجر ومدمر الحجر، أن يكسر التوابيت الصخرية التي حبست فيها نجدو ديوال بإحكام أخوالي. وإن تردد الحديد في تنفيذ أمرك، هدده بالنار التي تفوقه قوة والتي تستطيع إذايته.

قال نونفاييري: ابتعد بما مقداره يومٍ مشي وانتظر. ثم اختفى تحت الأرض. سمع باغوماويل صوته يأمر الحديد الأسود (*) بالذهاب لكسر التوابيت الصخرية التي تحتفظ فيها نجدو ديوال بالسجناء الأشقياء.

(*) حرفياً «معدن أسود» (نيجي فين). وهو الاسم الذي يطلق على الحديد. وحداد «المعدن الأسود» لا يشتغل أبداً لا على الذهب ولا على الفضة.

الموروث لا يحدثنا عن الطريقة التي قامت بواسطتها عفاريت المعدن الأسود بنزع غشاء الحجر عن أجساد الإخوة السبعة، كما يسليخ الجزار جلد الحيوانات؛ المهم أن التوابيت بعد أن أفرغت من محتوياتها تدرجت وذهبت لتسد منفذ المغارة التي تقطنها نجدو ديوال.

حملت العفاريت الوصيَّة على الحديد الشباب منهكين إلى ابن أختهم. وكان هذا الأخير قد استغلَّ وقت الانتظار في إعداد - بواسطة مؤونة النحل - أدوية قادرة على إنعاش أخواله شبه الميتين وإعادتهم إلى قوتهم السابقة. قدمها لهم، وبمجرد أن استعادوا عافيتهم التحقوا، كلهم، بهيلي ويويو، حارقين المراحل.

قضت نجدو ديوال سبعة أيام في التخلص من أكوام الحجر التي سدت مدخل مغارتها. كانت قد خسرت من جديد معركتها ضد باغوماويل! وعندما استشارت ترسانتها السحرية، علمت أن عفاريت الحديد أتت لنجدة عدوها الرهيب.

آنذاك تحولت إلى كونغورو؛ وهو فرس أسود فاحم، قوائمه نظيفة للغاية، بوجهه بياض شبيه بشريط حريري، ثم ذهبت لتتجول في غابة هيلي ويويو. كان كونغورو مطهما بشكل رائع. كل شيء كان يدل على أنه قد قدم إلى الدغل بعد أن أسقط فارسه، فشرع يتجول كيفما اتفق.

لمح سائسون، أتوا للبحث عن الكأ، الفرس فأسروه وأخذوه إلى ملك هيلي وخاطبوه قائلين: سيدي! إن هذا الفرس الجميل الذي لا مثيل له والمطهم بشكل رائع لهو جدير بحضيرتكم.

فهو لكم بحكم القانون، لأن كل ثروة - وفق تقاليدنا - لا يُعلم صاحبها، تعود إلى الملك.

كان كونغورو يبدو جيد الترويض. لم يكن لا طويل الأذنين ولا صغيرا بدينا. لم يكن له ردف بغلة ولم يكن يبدو عليه أي عرج. لم تكن عيناه محاطتين بزرقه ولا شبیهتين بعيني خنزير. لم يكن لا جفولا ولا حرونا. لم يكن مصابا بأي مرض من الأمراض التي تنتقص من قيمة الجياد. كان يعرف كيف يقوم بكل الحركات الأنيقة وكيف يقوم أمام النساء بحركات راقصة من دون أن ينتظر إطرء من فارسه. تلك كانت مميزات كونغورو. أعلن الملك، وإن بغير رغبة حقيقية، في العموم، أنه قد تم العثور على كونغورو وأن بإمكان مالكة أن يستعيده من الحظيرة الملكية. والحقيقة أن الملك لم يكن يتمنى أبدا أن يُعلم صاحب الفرس، لكن نزاهته تغلبت على أنانيته. بعد أن مروقت ولم يتقدم أحد، أصبح الفرس ملكا للملك. جعله مطيته المفضلة وأصبح يركبه في موكبه.

عندما أقبل العام الجديد ٨٠، نظم الملك سباقا كبيرا استدعى له كل قرى هيلي ويويو. قام هؤلاء بإرسال أجود متسابقيهم كي يشاركوا في السباق الذي كانت جائزته نيل المجد ٨١.

جعل الملك ابنه البكر ساكاي الدلفين يركب كونغورو؛ وهو ابنه المفضل من زوجته المفضلة. كان الأمير الشاب محبوبا من طرف الشعب. كان وسيما وبشوشا ومهذبا مع الجميع، وكان عطوفا على الفقراء محترما للمسنين ومدافعا بلا هوادة عن الضعاف والأرامل والأيتام. كان قلبه كبيرا ويده بيضاء، إذ كان

يوزع بسخاء الثروة التي يسلمها له أبوه؛ وكان هذا الأخير يعطيه من دون حساب!

عندما جُمعت كل الجياد التي ستشارك في المسابقة، تم تنظيم سباقات تمهيدية إقصائية في البداية قصد انتخاب أحسن متسابقين البلاد ليشاركوا في السباق النهائي. عدت الجياد، في البداية، في مجموعات من خمس عشرة فرسا. لم يتم الاحتفاظ منها إلا بالتي احتلت المراتب الثلاث الأولى. دام هذا الانتخاب الأول خمسة أيام. بعد ذلك عدت الجياد المنتخبة في مجموعات من خمسة جياد. سمحت هذه الجولة الثانية التي دامت يوما بأكمله، بانتقاء المتسابقين السبعة الأجود في البلاد. ومن البديهي القول إن كونغورو الذي يركبه ساكاي، والذي كان يحتل دائما المرتبة الأولى، كان يوجد بين الجياد السبعة المنتقاة. أقبل يوم السباق الأعظم. صُفّت الجياد السبعة. أعطيت الانطلاقة. وفي رمشة عين، أخذ كونغورو مقدمة السباق، وسرعان ما أصبح بعيدا عن الجواد الثاني بسبعة أطوال. كان المنتظر أن يقطع المتسابقون دورتين. انتهت الدورة الأولى باحتلال ساكاي المقدمة، تحت وابل من التصفيفات، وأمام رضا الملك التام. قُطعت الدورة الثانية بحماس أكبر، حاول كل فارس أن يجعل مطيته تعدو بأكبر سرعة ممكنة. غير أن كونغورو ظل دائما في المقدمة، محتفظا بالمسافة التي تفصله عن الفارس التالي. اجتاز خط الوصول بقوة ملهبا حماس المتفرجين.

سحب الأمير الزمام بقوة كي يجعل كونغورو يقف، لكن دون جدوى. واصل كونغورو، الذي عض بأسنانه على الزمام، انطلاقته

بسرعة إعصار، كأنه يريد أن يقوم بدورة ثالثة. لا أحد بقي يهتم ببقية الجياد التي توقفت بشكل عادي. كانت كل العيون متوجهة إلى كونغورو الذي يعدو بقوة، حاملا الأمير الشاب محبوب أبويه وشعبه.

عندما أدرك كونغورو انعطافة الحلبة، وبدلا من أن يتبع استدارة الطريق، واصل قُدْما وانطلق مثل سهم في الدغل، حيث اختفى. ظلت الحشود المنذهلة حائرة ومجمدة مثل صخر. هكذا انقلب الحفل إلى حزن وقلق، بعد أن كان منتظرا أن يُواصل في سعادة وابتهاج.

استدعى الملك، غاضبا، كل السحرة وضاربي الرمل وقارئى المستقبل والمتنبئين، كي يستشيرهم في أمر مصير الأمير وكي يخبروه بما حصل له. تهالك الملك على فراشه وطفق يندب حظه: أنت يا جينوا لماذا أرسلت لي هذا الفرس المشؤوم؟ كنت أتمنى لو أن كونغورو أخذني أنا بدلا من ولدي، ثُلج صدري وسكينة روحي وأمل شعبي!

باشر السحرة وضاربو الرمل فنهم. خلصوا جميعا إلى أن كونغورو ليس فرسا عاديا بل هو تجسيد لروح شريرة ساعية إلى إشباع حقد دفين غير مستعدة لأن تتراجع أمام أي شيء كان حتى تصل إلى هدفها.

نادى الملك على باغوماويل وطلب مساعدته، علما منه بقدراته. وعد الشاب بأن يقوم بكل ما في استطاعته، ثم انسحب كي يستشير الجمجمة المتكلمة. بعد أن قام بالطقس المعتاد، طلب منها المشورة. أجابت الجمجمة:

ابن الملك، يا جاييل - فالو، اختطفته نجدو ديوال، هذا لا شك فيه. وقد حملته إلى منطقة نفوذها وهناك احتفظت به بوصفه رهينة. عما قريب سترسل للملك رسلا تخبره بالشروط التي عليه تنفيذها إن كان يريد رؤية ابنه. إن رفض ستقتل الأمير الشاب مهما يكن الأمر.

- ما الذي عليّ أن أقوله لعاهلي، يا جمجمة موروثه عن أجدادي؟ عليّ أن أعثر على وسيلة لتخليص وارث العرش، فهو محبوب جدا من شعبه.

واصلت الجمجمة كلامها، بعد لحظة صمت:
اذهب تحت شجرة العناب العتيقة (*) واملأ جرابا عن آخره من ثمارها. بعد ذلك وزع الثمرات على القروود التي توجد بالأيكة، على ضفاف النهر الأسود (**). الذي يفصل بلاد هيلي ويويو عن بلاد نجدو ديوال.

من دون أن يضيع باغوماويل لحظة واحدة، توجه إلى الشجرة المقدسة واملأ من ثمراتها جرابا كاملا. بعد ذلك التحق بشاطئ النهر الأسود ومكث ثمة منتظرا، بصبر، عودة القروود التي كانت انتشرت في الدغل باحثة عن طعامها. كمن باغوماويل، تحديدا، على شاطئ تجمع الماء الذي اعتادت القروود أن تأتي لتشرب منه. سرعان ما استبد العطش بالقروود فعدت في فوضى نحو الماء، لكن لم يجرؤ أي منها على الشرب، لأن زعيمها لم يكن قد وصل

(*) حول شجرة العناب، انظر الهامش الرقم ٧١ من الملحق.

(**) يرمز النهر والجيل وسلسلة من الكثبان الرملية والشجرة، غالبا، إلى الحدود بين عالمين. فثمة دائما شيء للإشارة إلى الحد.

«النهر الأسود» يعني أيضا النهر المفلز. السواد لا يرمز بالضرورة إلى ما هو سيئ (مثل «مشعوز أسود» مقارنة مع «المشعوز الأبيض»)، بل يرمز أيضا إلى ما هو مفلز وغير معروف.

بعد، والعادة تقتضي أن لا تشرب قبله. لم يتحرك باغوماويل ولم يخرج ثمراته، وقد قرر أن يسلمها إلى ملك المتسلقين. لم يتأخر هذا الأخير في الالتحاق ببقية القروء، فاستقبلته هذه بصيحات عالية وبحركات معتملة.

تقدم باغوماويل نحو رجل الخشب، القردوحي العجوز، وسلمه جراب ثمرات العناب.

أنت يا عجوزا جليلا، قال له. لقد تحولت نجدو ديوال الساحرة إلى كونغورو كي تختطف أميرنا الذي تحتفظ به، بالتأكيد، في أحد أماكنها السرية. لقد أتيتك بهذه الثمرات كي توزعها على رعاياك، وأريدك أن تبعثها للبحث عن أميرنا.

أجاب ملك القروء:

ليس ثمة البتة عمل لا يستطيع شعبي القيام به، إن قدمت لهم فاكهة شجرة العناب العتيقة العجيبة. الشمس الآن في كبد السماء وقبل أن تختفي غرقا في ثقب الليل الأسود، سنكون قد اكتشفنا ما تبحث عنه.

ثم شرعت القروء في العمل. وكما تنبأ بذلك الملك العجوز، استطاعت القروء، في مدة وجيزة، أن تكتشف المكان الذي تحبس فيه نجدو ديوال الأمير الشاب. كان هو المكان نفسه - في حوضن بلدتها الحجرية - الذي نصبت فيه، في شكل مستدير، التوابيت الحجرية لأخوال باغوماويل. وقد سامت الأمير الشاب ما سامته إياهم، إذ حبسته في تابوت صخري، فلم يعد يظهر منه سوى وجهه حتى تستطيع إطعامه وثقبا للتغوط. لكنها حرصت، هذه المرة، على وضع التابوت الصخري في حفرة يصل

عمقها إحدى وعشرين ذراعا .

أخبرت القروء، عندما عادت، باغوماويل بما اكتشفته. أجهد باغوماويل نفسه في الذهاب إلى الحفرة التي يوجد بها الأمير الشاب، لكنه عجز عن الوصول إليها (*). عاد، محزون الروح، إلى هيلي وأخبر الملك بما عرفه. طلب منه هذا الأخير النصيحة فأجاب باغوماويل: لننتظر، ستنتهي نجدو ديوال بأن تظهر لتخبرنا بطلباتها. آنذاك سنرى ما سنفعله.

عندما كان الأمير يتعذب في سجنه الحجري، كان سكان هيلي ويويو غارقين في حزن عميق، منتظرين سماع نعي أميرهم. كان القلق يعصر قلوبهم، فأخذوا ينامون مع مقدم الظلام مثل الدجاج (**).

كان كل واحد منهم يغلق على نفسه ويأخذ في ذرف الدموع الغزيرة على مصير الأمير الشاب الطيب والجذاب. ما عادت الماعز والخرفان تتغو، وكف الدجاج عن الصراخ، ولم يعد السكان

(*) قد يبدو مثيرا للاستغراب أن تستطيع القروء أن تكتشف، من دون صعوبة، المكان الذي يحجز فيه الأمير الشاب، في حين يعجز باغوماويل، المبشّر به، عن ذلك. أولا، لا يتماشى مع منطق الحكاية أن يستطيع باغوماويل اكتشاف وتخليص الأمير الشاب في هذه المرحلة، لأن الجمجمة قد سبق أن أعلنت أن نجدو ديوال سترسل مبعوثين ليعلموا عن رغباتها. والحال، أن هذا التنبؤ لم يتحقق بعد. وثانيا، فإن أحد التعاليم التي تفهم من هذا الفصل هو أن الفولانيين لا يعطون أبدا سلطة مطلقة لأي كان، باستثناء جينو. ولهذا يقال بأن لا أحد - مهما تكن درجته - يستطيع أن يرى قمة رأسه؛ كي تصبح الأمور واضحة، تكون ثمة دائما لحظة يُحتاج خلالها إلى طرف ثالث. وحتى مبشّر به مثل باغوماويل يمكنه أن يعرب عن هفوات؛ وإلا فإنه سيكون كإدارا نفسه (أحد مظهرات جينو). في ملك باغوماويل سلطات متعددة، لكن ليس في ملكه السلطة المطلقة التي ليست في ملك أحد آخر غير جينو؛ وإلا دُمّرت الوحدانية الربانية، لأنه سيكون ثمة مالكان للسلطة.

وهناك إفادة أخرى، هي أن المريدين، برغم تعليم معلمهم لهم، لا ينجحون دائما منذ أول محاولة؛ بعضهم ينجح فورا في امتحان، ويكون على آخرين أن يكرروا المحاولة مرات متعددة. (**). علامة حداد وحرزن: ما عادت ثمة تسالي أو مجالسات أو أغاني مساء من أجل السهر.

يسمعون ضربات المدق تدوي عبر المدينة. كفت الأغاني الضرحانة والضحكات العالية عن بث البهجة على حواف الآبار. الزمن نفسه أصبح ثقيلًا، وأضحى الهواء ساخنًا إلى درجة أن لا أحد عاد قادرًا على التنفس. كان الفرح قد غادر القلوب والوجوه. أصبح شغل الناس الوحيد هو الذهاب قصد الجلوس إلى ظل الجدران التي تحيط بالقرية لسبر الأفق على أمل رؤية قدوم الأمير المحبوب الذي اختطفته الشريرة العظمى. القطيع نفسه كف عن الذهاب إلى المراعي.

تواصل الانتظار لأسبوع كامل. أصبح الليل مثل النهار والنهار مثل الليل.

وخلال اليوم السابع من ذلك الأسبوع الحزين، وعندما كانت الشمس تميل نحو المغيب، شوهد في البعيد رجلٌ يمتطي ثورا، محاطا بسبعة فرسان يمتطون جيادا أصيلة مطهمة بشكل يدل على الثراء. عندما اقترب الرجل أوقف موكبه ودق مضاربه خارج أسوار المدينة. بعد ذلك بعث رسولا إلى الملك يخبره بأنه مبعوث نجدو ديوال التي تأسر ساكاي وارث عمامة هيلي ويويو.

اشتترطت نجدو ديوال كي تطلق سراح الأمير، فدية عشرين شابا تتراوح أعمارهم بين أربعة عشر وواحد وعشرين عاما، إضافة إلى باغوماويل. أما إن تأخر الملك أو تردد في تلبية طلبها، فإنها لن تكتفي فقط بقتل الأمير، بل ستصيب البلد بجوائح قاتلة ويأمرض لا علاج منها، ولن يستطيع أحد تحاشيها.

أمهلت الملك سبعة أيام مضروبة في ثلاثة كي ينفذ ما أمر به، وبعد ذلك سيصاب البلد بكل الأمراض: آلام صدر حادة

وانتفاخ الأعضاء وأوجاع البطن ومغص لا تحتمل آلامه والتينيا
والزهري، دون الحديث عن آلام الرأس ودود الأمعاء...!

وقد نصت شروط نجدو ديوال على أن يختار الملك بين أن
يسلم الفدية المطلوبة، فيعاد إليه ابنه، أو أن يحكم على الشعب
بأن يصاب بهذه الكوارث ويموت ابنه.

دعا الملك مجلسه الاستشاري للاجتماع وعرض على أعضائه
الوضعية. قبل المستشارون، متألمين، شروط الشريرة. أما الملك،
من جهته، فقد رفضها. آنئذ أخبر المجلس الشعب وطلب من
الناس، بواسطة منادين، رأيهم في المسألة.

اجتمع الأعيان وأرباب الأسر، وفي اليوم التالي توجهوا،
بقيادة زعمائهم، إلى القصر فأخبروا الملك بأن الشعب قد قبل
بالإجماع، الرضوخ لما طالبت به نجدو ديوال.

كان باغوماويل أول من قبل التضحية بنفسه، لكن الملك ظل
على رأيه ورفض اقتراح الشعب وصرح قائلاً:

حياة ولدي، على الرغم من أنه وارث العرش، لا تساوي حياة
واحد وعشرين شاباً. وفضلاً عن ذلك، فإنه، بالنظر إلى القدرات
والمعارف التي وهبها جينو لباغوماويل، فإن حياته يمكنها أن
تكون أفيد للبلد من جيش من المحاربين ومن المعالجين ومن
المتنبئين. لا يمكنني إذن أن أضحي بالمصلحة العامة من أجل
مشاعري الأبوية؛ فثمة لحظات يكون على القائد خلالها أن
يعرف كيف يُصمت قلبه كي لا ينصت إلا إلى ما يوشوش به
العقل في أذنه.

بالفعل، يُعدّ إنقاذ أمير بتقديم أرواح آدمية متعددة، تقليداً

ورثناه عن أجدادنا، ولانزال نعمل به حتى اليوم، لكن يعد من واجب الملك أيضا أن ينقذ قيمة حقيقية يستفيد منها الجميع. هذا، كما أنني لن أسلم باغوماويل لهذه الساحرة، مقابل أي شيء في الدنيا، فإنني لن أسلمها أيضا العشرين فتى الذين تكرم آباؤهم بإهدائهم إليّ كي أنقذ ولدي!

إن طلبت مني نجدو كل ثروة المملكة سلمتها إليها كي أنقذ ولدي. لكن، إن رفضتها، فلتفعل ما يحلو لها بالأمر، فلا مجال لأن تمهلني سبعة أيام أو أربعة عشر أو واحدا وعشرين أو حتى ثمانية وعشرين يوما ٨٢!

بعد أن أكد الملك إرادته هذه، نادى على رسول نجدو ديوال وأخبره بالجواب.

كان رئيس البعثة قد أخطر من طرف سيدته، قبل انصرافه، بأن ملك هيلي ويويو، بالتأكيد، لن يستسلم وأنه لن يسلم باغوماويل مقابل أي شيء في الدنيا. وكانت قد سلمته أكياسا صغيرة تحوي مسحوقا مسموما يكون عليه، في حال رفض الملك، أن ينثره سرا في آبار المدينة. كانت المهمة سهلة، لأن كل الآبار كانت تقع خارج أسوار المدينة، وإذن فهي بلا حماية وبلا حراسة. كان الملك قد قرر أن تكون الآبار خارج أسوار المدينة حتى تستطيع القوافل التي تصل ليلا أن تتزود من الماء حتى بعد إغلاق أبواب البلدة.

سمح رسل نجدو كل الآبار ثم عادوا إلى بلدة سيدتهم. صباح اليوم التالي، ذهب النسوة، من دون احتراس، مثل العادة، لملء جرارهن وقرعاتهن ويقطيناتهن وجفناتهن. وعندما

شرب سكان هيلي من الماء واستعملوه للاستحمام أو لغسل الملابس، ارتفعت صدورهم، في البداية، بضواق لا يتوقف. ثم شرعوا يلهثون مثل كلاب مريضة. كان كل واحد منهم يسعل بقوة حتى يبدو أنه سيغثو بقلبه أو برئتيه. ما عاد أحد منهم يستطيع أن ينام. وفي النهاية أصيب الجميع بإسهال غير قابل للتفسير. حتى الأشجار جفت وما عادت توفر ظلالاً. وداخل المساكن، كان الهواء قد أصبح أسخن من محل للحداذة! لم تكتف نجدو ديوال بتسميم مياه الآبار، بل دفنت أيضاً، هناك، رقيات شريرة أصبح فعلها يعكر الأجواء ويحيل الناس شديدي الغضب.

وأمام الجائحة التي اجتاحت البلد والتي لم تستثن لا بشرا ولا حيوانا أو نباتا، جمع باغوماويل، من دون علم الملك، مجلس الأعيان. طلب عشرين شابا من المتطوعين المستعدين لمرافقته عند الشريرة ليسلموا انفسهم بوصفهم فدية للأمرير ساكاي. لم ينقض وقت طويل حتى كان قد جمع مجموعته الصغيرة. وقبل أن ينصرف باغوماويل، قدم توجيهات لخاله حمادي قائلا: إن لم تصلك أخبار عني، اطلب من أُمِّي أن تسلمك جرابي. ستجد به الجمجمة المتكلمة الموروثة عن أجدادنا. استشرها في أمري واطلب منها أن تقول لك ما عليك القيام به لتعثر علي. وكى لا تثير البعثة شكوك الملك، غادرت البلدة سرا عند مقدم الظلام.

التقى الشبان، على بعد بضعة فراسخ من المدينة، خادما من خدام نجدو ديوال. كلفه باغوماويل بأن يذهب لإخطار سيدته

بأن الفضية ستقدم لها من طرف باغوماويل نفسه، غدا عند وقت حلب الحيوانات المدرة للحليب، مقابل حرية الأمير.

عندما وصل الخبرُ الشريرةَ العظمى، لم تصدق أذنيها. أعريت عن فرح عظيم. لم تكن تنتظر أن تنكسر مقاومة الملك بهذه السرعة، كما لم تكن تنتظر، بالخصوص، أن يقبل التضحية بباغوماويل، فتساءلت: ألا يتعلق الأمر، بفخ ما؟ أيعقل أن أصل إلى هدفي بهذه السهولة، في الوقت الذي كنت قد أخذت أفقد، كل يوم، الأمل في أن أستطيع يوما الانتصار على هذا الجذع وأسره؟ لنكن حذرين، لكن لنعرف، أيضا، كيف نستغل الفرصة، لأن الأمر يبدو كأننا نتجه، الآن، نحو نهاية لهذا الصراع القائم بيني وبين جايل - فالو.

وصل الشبان الواحد والعشرون في الصباح الباكر. أدخلتهم نجدو ديوال إلى قريتها المتحجرة وقد قررت أن تسترجع صحتها بشرب دم الفتیان.

خاطبت نفسها قائلة: أما باغوماويل، فسأخصه بمعاملة تكون من القسوة ومن الدقة بحيث حتى كبار خبراء التدقيق سيندهشون منها. وسيحوّل الموسيقيون الحدث إلى شعار موسيقي يشيد ويمجد القسوة والشر!

أمسكت نجدو ديوال بباغوماويل وذهبت لتعلقه من ساقيه فوق حفرة يصل عمقها تسعا وأربعين ذراعا^(*). كانت الحفرة مترعة بجمرات تلقي بالأسنة لهب أحمّت الأجواء، وقالت ضاحكة:

(*) نثر دائما على مضاعف للعدد سبعة «٧»، عدد نجدو ديوال.

ستبقى معلقا بهذه الطريقة لمدة عشرين يوما؛ يعني الوقت الذي احتاجه كي أمتصّ دماء مرافقيك وأشبعَ منها. وبعد كل وجبة سأتي لأتجشأ بصوتي بالقرب منك حتى يلج نفسُ رثتي الحارقُ أنفكُ، فيصعد إلى دماغك كي يحطمه وينزل إلى قلبك كي يبيضَ دمك الأحمر ويصفرَ دمك الأسود. ستموت ببطء، وأثناء ذلك، سأضحك أنا بصوت عالٍ!

أما مدينة هيلي، وكما كان منتظرا، فبعد أن اكتشفت انصراف الشبان الواحد والعشرين، أصبحت تعيش في انفعال شديد. ساور الملك شعور قوي بالذنب فاستدعى أخوال باغوماويل السبعة وأعرب لهم عن أسفه، كما عبر لهم عن إعجابه الكبير بشجاعة الفتيان الذين ضحوا بأنفسهم، طوعا، لإنقاذ ابنه.

لم يكن يشك، في الواقع، في أن ابنه سيعاد إليه. ففي تلك الأزمنة، كانت الكلمة عندما تُعطى، تُصبح مقدسة عند الرجال الشرفاء كما عند غير الشرفاء. كان ثمن الكلمة يفوق ثمن الذهب والفضة، ويفوق حتى ثمن حياة من يعطيها. ونجدو ديوال نفسها، على الرغم من قسوتها ورغبتها الدائمة في أن تؤذي، احترمت كلمتها وسلمت الأمير وأرسلت معه رفقة إلى أن أدرك قصر أبيه.

تم الاحتفال بعودة الأمير بوصفه حدثا جليلا، من طرف جميع سكان هيلي ويويو، باستثناء الملك: كان يعيش حادادا على الواحد والعشرين شابا الذين يعتبرهم شهداء متطوعين، ماتوا من أجل إنقاذ أميرهم.

لم يكن أحد يعرف ما الذي حل بهؤلاء الشبان. وعندما عجز

حمادي عن الوصول إلى أي خبر يخص باغوماويل، قرر أن ينفذ توجيهاته. طلب من أخته أن تأتيه بجراب ابنها. فتحه وأخرج منه الجمجمة المتكلمة واستشارها فيما عليه القيام به. وهذا ما أجابت به:

أذهب تحت شجرة العُنب العتيقة وابحث داخل الأيكات الثلاث التي تحيط بها. ستعثر على ملكة العناكب ٨٣ بين أغصان شجرة كايلسيدرا هي بنفس قدم شجرة العناب. اطلب منها باسم فن الحياكة الذي علمها إياه جينو، أن تعمل على اكتشاف المكان الذي تحبس فيه نجدو ديوال باغوماويل ورفقاه. نفذ حمادي على الفور. عثر على الملكة العنكبوت وعرض عليها الأمر. تذكرت الملكة كل الأعمال الخيرة التي قدمها با - وامندي للحيوانات، فأمرت كل النوع العنكبوتي، حيثما وجد، أن يصطاد الذباب من كل الأنواع وكل الأحجام وأن تجعله يسعى لأن تكتشف، قبل مغيب الشمس، المكان الذي التجأت إليه نجدو الساحرة العظمى، كي ترتكب جرمها.

أعطيت الأوامر فانطلقت العناكب مسرعة. انتشر الذباب، الذي اصطيد ثم أطلق، في البلد. بحث في كل مكان: في المدن والقرى والضيعات وفي كل جزء من أجزاء الأرياف وأعالي الأدغال. انتهى الذباب بأن اكتشف المكان الذي التجأت إليه نجدو ديوال رفقة أسراها، من دون أن يستطيع، مع ذلك، أن يحدد بدقة المكان الذي يوجد فيه الأسرى.

أخبر حمادي. استشار من جديد الجمجمة حتى يعرف كيف يعثر بدقة على المكان الذي حُبس فيه باغوماويل ورفقاؤه.

نصحته الجمجمة أن يتضرع إلى كومباسارا، الإله - التميمة الذي خلصه با - وامندي وسيري من اليقطينة المعدنية التي كانت نجدو ديوال قد حبسته فيها. علمته طقس التعزيم وأخبرته بما عليه أن يطلبه.

عزم حمادي فظهر كومباسارا أمامه.

فقال حمادي: أنت يا روحا قوية! خذ بيض العناكب الذي سبق لوالدي با - وامندي أن سلمه إليك عند افتراقكما، واستعمله لتذهب وتفق أسر باغوماويل ورفقائه (*).

نادى كومباسارا على غومباو، الأسد الأسود ٨٤. ركه وهو يقول:

بحق القدرات المنقولة بواسطة ديكوري دياوو إلى ديافالدي، الذي نقلها بدوره إلى كوغلدي ٨٥ الذي وهبه الله عينا ثالثة على الجبهة كي يرى ما خفي ويدّين كي يُخفي ما بدا (**). بحق هذه السلسلة أطلب منك، أنت يا غومباو، أن تقودني إلى حيث توجد نجدو ديوال.

وعلى الفور انطلق غومباو، الذي لم يكن، بالفعل، أسدا عاديا. كان يعدو على الأرض بسرعة تفوق سرعة إعصار. كما كان يسبح في الماء أحسن من سمكة جري. أما في الأجواء فكان يحلق بسرعة تفوق سرعة العقاب المطارد لفريسته. بعد رحلة دامت يومين، وضع كومباسارا على بعد خطوات من الحضرة الجهنمية التي علق

(*) لنلاحظ هنا أن حمادي، خلال هذه المرحلة المأساوية من الحكاية، يدرك وضعية جديدة، إذ يصبح أكثر إحساسا بالمسؤولية؛ فقد أصبح المعزّم على الجمجمة المقدسة ومخاطبها.

(**) يمكننا، بحركة من يدينا، أن نستتر وأن نخفي شيئا لا نريد أن يراه أحد. «إخفاء ما بدا» يعني إخفاء سرّ التلقين. وعين الجبهة، عين المعرفة، مخصصة لكشف ما خفي. واليدان، رمز سلطة الإنسان بوصفهما وسيلة الفعل، يفترض فيهما أن يقنعا (بخفيا) ما يجب ألا يبدو.

باغوماويل فوقها من ساقيه. أخرج كومباسارا حبلا كان قد فتلته من زغب ذيل وعرف بغلة درداء، والذي يعرف وحده أن لا شيء يستطيع قطعه. وضعه بطريقة إذا ما أتت الساحرة العظمى للاستلذاذ بالتنغيص على باغوماويل، ستمسك داخل أنشوطتها المتحركة.

سرعان ما حصل ذلك. اقتربت نجدو ديوال من الحفرة، جاهلة بالوجود غير المرئي لكومباسارا، الذي كان يستحيل عليها المعرفة بوجوده ما دام لا يقع تحت سيطرتها. اندهشت عندما لاحظت أن السنة اللهب لم تحرق باغوماويل. علينا أن نعلم أن نجدو ديوال، عندما ملأت الحفرة بالجمرات المتقدة، كانت قد دهنت جسدها، كي تحمي نفسها من النار، بمادة أعدتها هي نفسها. والحال أنها في لحظة انسحابها، كانت الأنية التي تضم المادة قد سقطت في الحفرة فسقت جسد باغوماويل، مما أفقد النار قدرة إصابته بسوء، وبذلك نجا من الإحراق.

لم تدر نجدو ديوال لم لا يصيح باغوماويل، ولا يتلوى من الألم، وبالخصوص لم لا يحترق. وكما تعرف الأمر عن كثب، اقتربت أكثر وأتت لتضع نفسها تماما، ودون أن تعلم، وسط الحبل الذي لا تراه. وفي الحال جمع كومباسارا والأسد غومباو قواهما الخارقة وسحبا الأنشودة. وجدت نجدو ديوال نفسها مربوطة من وسط جسدها، ذراعاها مكبلان. حاولت سدى أن تخلص نفسها. كانت قد وقعت كما يقع أي حيوان مفترس في فخ غير منتظر.

فهمت أنها قد خسرت، مرة جديدة، المعركة ضد باغوماويل. لكن ما أقلقها هو الظهور المفاجئ لكومباسارا ولغومباو؛ ذلك

أنها كانت قد أخطرت بأن اليوم الذي يتحالف فيه كومباسارا، بعد أن يُحرر، مع غومباو الأسد الأسود ذي العرف الأسمر، سيكون هو يوم إعلان هزيمتها النهائية (*).

اقترحت، مقابل حريتها، حياة الفتيان العشرين وحياة باغوماويل.

أنت يا نجدو ديوال! قال كومباسارا بسخرية، لقد وقعت، وقعت بشكل كامل! كم مرة، كنت أنا نفسي أشتغل بهمة لمصلحتك، لكنني كنت غير واعي بأعمالك الشريرة. كم مرة نفذت أوامرك على الفور، مُمكنًا لأعمالك السحرية الشريرة أن تخلف أرامل ويطامى وأن تصيب بسوءٍ بلداً بأكمله. لم يسبق أبداً ليدريك أن لامست إلا الفظاظ والدمار والموت! وأنت الآن ستخضعين لمحاكمة باغوماويل. هو وحده سيبرئك أو يدخلك قفص العذاب (**). لا داعي إذن لأن تقترحي علينا تحريره وتحرير رفقائه. هم في هذه اللحظة قد فُكَّ أسرهم. افتحي عينيك والتفتي لتري المشهد الذي يدور خلفك.

التفتت نجدو ديوال، مربوطة مثل حزمة حطب، فرأت، مصطفىين أمامها، الشبان العشرين وباغوماويل، في صحة ممتازة. لم تضع وقتها في المطالبة بتفسير لما ترى، إذ فهمت من تلقاء نفسها أن الشبان يستعدون للعودة إلى قريتهم.

(*) تحالف كومباسارا وغومباو، نذير شؤم بالنسبة إلى نجدو ديوال. فكومباسارا، الذي كان من قبل خديمها، لا يضع فقط قواه الخارقة في خدمة الخير، بل يستخدم، هو أيضاً، قوة غومباو الذي يقف، تقليدياً، في وجه النهاية السعيدة للتلقين (انظر كومين). يقدم هذا الفصل، أيضاً، فائدة أن القوة، في ذاتها، ليست لا جيدة ولا سيئة. كل شيء متعلق بطريقة استعمالها.

(**) الزنزانة الانفرادية.

سحبها غومباو، مربوطة، إلى أن وصلت قرب باغوماويل. أخذ
هذا الأخير الكلمة فقال:

أنت يا كومباسارا! وأنت يا غومباو! باسم جدنا بويتورينغ
وباسم كومين وزوجته فوروفوروندو (*)، قديسة الحليب ومملكة
السمن، نشكركما على تدخلكما.

أما بالنسبة إلى نجدو ديوال، فلا تقتلها ولا تعاملها
معاملة سيئة (**). اذهب بالأحرى وسلمها للشعاع البرتقالي ٨٦
الذي تسيله الشمس على شجرة الكايلسيدرا، على ضفة النهر
الأحمر الذي يسقي البلد، وأبقياها مقيدة إلى أن نصل، رفقائي
وأنا، إلى هيلي.

عندئذ، أخذ باغوماويل ورفقاؤه طريق هيلي ويويو، بينما
اقتيدت نجدو ديوال إلى ظل الشجرة حيث اتخذها كومباسارا
وغومباي أسيرة.

ما عاد للساحرة العظمى، بالطبع، نفس الإمكانيات القديمة،
لكن بقي لها دُورانِ تلعبهما. فرغم التسامح الذي أبداه باغوماويل
تجاهها، كانت تتساءل عما إذا كانت قادرة على استعمال دوريتها
الأخيرين ضده، لأنها لم تكن متأكدة من أن كومباسارا وغومباو
سيطلقان سراحها عندما يحين الوقت. وبالفعل، فقد سمعت
كومباسارا يقول لباغوماويل: احذر من أن تترك هذه المشعوذة
على قيد الحياة! فرغبتها في أن تؤذيك تملأ قلبها وجسدها،

(*) زوجة كومين، قديسة الحليب ومملكة السمن، هي معلمة كبرى في مجال التلقين النسوي
الفولاني (انظر كومين).

(**) عبارة تدل على نبيل طباع باغوماويل وميزة التسامح لديه، وهما خصلتا كل «الخيرين» في
هذه الحكاية.

إلى درجة أنها تنضح بذلك من كل مسام جسدها . فما دامت
حية، لن تهدأ أبداً!

كانت نجدو ديوال، قلقة الروح، تكاد تختنق خوفاً من أن
تموت قبل أن تستطيع قتل باغوماويل، عيناها جاحظتان
وأذناها نافرتان مثل دابة يطاردها بُباح. كانت تنتظر، حائرة
زائغة النظر... دام عذابها سبعة أيام، وهو الزمن الذي استغرقه
باغوماويل مع رفقاءه للوصول إلى بيوتهم.

عند نهاية اليوم السابع، ومن دون أن تدري كيف، ارتخى
الحبل الذي كان يقيدتها كما لو بفعل السحر. انتفضت وخفت
للالتحاق بمخبئتها غير المرئي حيث ظلت مختبئة سبعة أيام،
كي تسترجع قواها .

عندما استعادت نجدو ديوال قوتها، غاصت عميقاً في الأرض.
وثمة تقدمت، ممزقة أحشاء الأرض، إلى أن وجدت نفسها تحت
قدم شجرة العناب العتيقة لهيلي. آنذاك سحبت الشجرة تحت
الأرض جاعلة إياها تختفي عن الأنظار، ثم تحولت هي نفسها
إلى شجرة عناب وأخذت مكانها.

وكل أسبوع، خرج كل أطفال هيلي من المدينة وذهبوا كي
يتجمعوا تحت الشجرة المقدسة قصد قطف ثمارها. أصيب
أهل هيلي بالدهشة وهم يرون، فجأة، شجرة العناب تحلق في
الفضاء حاملة معها قطعة مستديرة من الأرض يصل قطرها
إحدى وعشرين ذراعاً! وهكذا تكون نجدو ديوال قد حملت، في
رمشة عين، كل أطفال هيلي، ولم تترك لأبائهم سوى عيونهم كي
يبكوا أبناءهم!

وبمجرد أن ابتعدت شجرة العناب المزورة في الفضاء، خرجت شجرة العناب الحقيقية من الأرض وأخذت مكانها.

غرقّت المدينة في حزن جعل الأهالي ينسون بسرعة الفرح الذي نتج عن العودة غير المنتظرة للشباب الواحد والعشرين. سارع الأهالي كلهم نحو قصر الملك، شاكين:

أيها الملك! متى ستنجح في تخليص العالم من نجدو ديوال، أم الكارثة، التي ما انفكت تنيما بتمائمها وتجعلنا نشرب كل مرة الكأس المرة لشراب شرها!

نحو من ندير عيوننا الحمراء من الألم، والتي لم تعد جفوننا الذابلة تستطيع حتى أن تحميها؟ طار نومنا مثلما يطير طير خطاف مهاجر. لقد غرست نجدو ديوال أشواكها في قلوبنا. قل أيها الملك شيئاً! قم بشيء.

خرج الملك من قصره، أشد حزناً من أي وقت مضى، محياه منقبض غارق في الدموع. كان الملك، الذي يتمتع ببنية قوية، قد تقوس مثل منجل، وأصبح لونه، الذي كان قديماً يلمع مثل خشب الأبنوس، شبيهاً بلون الرماد. في ليلة واحدة أصبح نحيلاً مثل بغلة مسنة من المناطق الصحراوية في فصل جاف، فشاب شعر رأسه ولحيته. اسود كل ما كان فيه ناصع البياض (بياض العينين والأسنان والأظافر). كانت حاله تلك جراء الهموم التي تقرضه بسبب شقاء شعبه.

كان لا يزال لديه أمل واحد؛ وهو في الحقيقة أمل ليس دون قيمة: باغوماويل. نادى عليه على الفور وخاطبه قائلاً:
إن من يكون عليه أن يقطع عشرَ مراحل ولم يقطع منها

سوى تسع ونصف يكون قد أضاع مجهوده؛ إذ سيكون كمن لم يقيم بشيء. والأمركذلك بالنسبة إليك. كل الانتصارات التي حققتها على نجدو ديوال خلال تطوعاتك المميتة السابقة ستكون من دون قيمة ما دامت الشريرة العظمى تحيا وتواصل زرع الخراب على الأرض. الشعب لا يدري أنني لا أستطيع أن أقوم بشيء اعتمادا على نفسي. وأنا التجئ إليك، أنت يا باغوماويل، لأن جينو القادر على كل شيء قد وهبك قوة خارقة؛ تلك القوة التي لم تتردد أبدا في جعلها في خدمة الأشقياء وضحايا القدر.

لقد اختطفنا نجدو ديوال بطريقة سحرية أطفالنا؛ فهي وحدها، في الحقيقة، القادرة على التصرف بهذه الشاكلة. الشعب يطلب مني أن أقول وأن أفعل شيئا. وقد حان دوري كي أطلب من جينو^(*)، عبرك، أن يقوم بشيء من أجل إطلاق سراح أطفال شعبي.

حرك باغوماويل رأسه من أسفل إلى أعلى ثلاث مرات؛ وهي حركة تعني موافقة غير مشروطة. آنذاك انصرف الملك وعاد إلى بيته.

استشار باغوماويل الجمجمة المتكلمة، فدلته على الطريقة التي يتصرف بها كي يتحول إلى نسيم عليل، وأضافت: عندما تصبح هواء عليلا رائقا، انتقل وأنت تهب نحو الشرق إلى أن تدرك بلد نجدو ديوال. عندما ستصل إلى أبواب بلديها،

(*) «عبرك...»: دائما احترام القاعدة التقليدية التي تنص على ضرورة المرور عبر وسيط لتقديم طلب.

ستجد قطيعا يرعى. ستعثر ضمنه على عجلة لونها أبيض تماما؛ إنها البيضاء، العجلة المفضلة لنجدو ديوال. اندس في رحمها. ستلذك في هيئة عجل شديد الجمال ستعشقه نجدو. عندما يحصل ذلك، سيلهمك جينو ما عليك أن تقوم به كي تنقذ الأطفال من بين مخالب الشريرة الكبرى.

عندما تحول باغوماويل إلى نسيم عليل، هب في اتجاه الشرق إلى أن وصل بلدة الشريرة. وجد، بالفعل، على أبواب البلدة قطيع نجدو ديوال في المرعى. اندس في رحم البيضاء. وبعد بضعة أشهر من الحمل، ولدت البيضاء عجلا لم يسبق لأحد أن رأى مثله من قبل. كان جلده أملس مثل الحرير؛ وزغب جسمه أرق من زغب شجرة القابوق؛ وعيناه الكبيرتان كانتا مثل جواهر بيضاء مصطادة في الأعماق الكبيرة للمحيطات الشرقية. كانت البيضاء تدر كثيرا من الحليب. وبالموازاة مع إرضاعها لصغيرها، أضحى جلدها هي بمثل رقعة جلد عجلها.

تحقق ما تنبأت به الجمجمة. أبدت نجدو ديوال، تجاه هذا العجل الاستثنائي، حبا كان من القوة بحيث لم تعد تستطيع لحظة واحدة أن لا تتملاه وتلامسه. منعت أطفال هيلي، الذين كانت تستعملهم في العناية بقطيعها وحراسته، من أن يأخذوا عجلها إلى المرعى. كان عليه أن يبقى بالمنزل، تحت حراستهم.

كبر العجل فأصبح جذعا متقلب الأطوار. فرغم حراسة الأطفال، كان ينجح دائما في الفرار والالتحاق بالقطيع في المرعى. كان يفر، كل يوم، مرتين أو ثلاثا. كانت نجدو ديوال ترسل الأطفال في أعقابهِ لإعادته وكانوا يأتون به دائما، لكنها

كانت تعنفهم على عجزهم، على الرغم من عددهم الكبير، عن الاحتفاظ به.

ذات يوم، وكالعادة، فر الجذع إلى الدغل. أرسلت نجدو ديوال كل الأطفال لملاحقته. وبدلاً من أن يلتحق الجذع، كما كانت عاداته بالقطيع، توجه نحو أعالي الدغل. لاحقه الأطفال. وعندما أصبحوا بعيدين جداً عن البلدة الخراب، وأمام اندهاشهم، استعاد باغوماويل مظهره الآدمي. سألهم إن كانوا موجودين كلهم. وبعد أن تأكدوا قالوا إنهم موجودون جميعاً.

سأل باغوماويل أي اتجاه يأخذون وأي طريق يسلكون للفرار من نجدو ديوال عندما ستنطلق في ملاحقتهم. على الفور مرقت مجموعة نمل وشرعت تمشي أمامه. لم يجد أحسن من أن يمضي في أعقاب هذه الحشرات الصغيرة. أعادته الطريق المسطرة بتلك الشاكلة، من دون عوائق، هو ومرافقوه الصغار، إلى أبواب بلد هيلي.

وكما يمكننا أن نتصور، سببت عودته هو والأطفال، ابتهاجا عظيماً. وقد أقام الملك نفسه حفلاً كبيراً بالمناسبة.

لم تقلق نجدو ديوال، على الفور، من تأخر الأطفال في العثور على الجذع. ظنت أنهم سيعيدونه مساءً مع بقية القطيع. وقد كانت دهشتها عظيمة عندما رأت القطيع يعود من دون جذع ومن دون أطفال. وعندما رأت أن البيضاء عادت مجرد عجلة عادية وفهمت ما حصل، صاحت غاضبة:

آه يا باغوماويل! ياغوماويل! إن أمراً ما كان أخبرني بأن جمال هذا العجل، وبالأخص عيناه، لم يكن في شيء من الجمال

البقري. لكنني كنت ساهية، فاعتنيت بلا شيء، رافضة أن أستمع إلى ما تقوله لي غريزتي. وها باغوماويل قد نال مني ثانية! لم يبق لي سوى قدرة واحدة. إنها السهم الأخير في قوسي. سأرمي به، لكنه إن أخطأ باغوماويل، سيرتد نحوي وسيخترق قلبي، وستكون تلك نهايتي.

على أي وجه أضحت حياتي.. كان عليّ أن أدرك أن جزاء الشر ليس سوى شر أفدح. تمائمي ورقياتي وتسخيري لأرواح جعلتها عبيدا، كل ذلك لم ينفعني في شيء. لقد بدأت النزول نحو المنحدر المنزلق. ونزولي هو من السرعة بحيث لا أدري كيف أفعّل حتى لا أسارع إلى الهوة التي تنفتح على قدم هذا المنحدر (*). ظلت نجدو ديوال، لمدة سبعة أيام منهكة وغارقة في حزن لا ينتهي. لم تعد تأكل إلا القليل ولا تكاد تشرب شيئا، فأضحت نصف حية نصف ميتة.

وبعد أن خرجت من تلك الحال، عادت إلى العمل. ما كان عاد لديها سوى سهم واحد تقذف به باغوماويل. وإذن فقد ذهبت لترمي به وليكن ما يكون! أنا مثل رجل بقر بطنه، قالت. سيان عنده أن تكون الغلة جيدة أو قليلة، ما دام، في الحالين معا، لن يأكلها.

حينئذ تحولت نجدو إلى فيضان. جرى الفيضان بسرعة خارقة، فاجتاح بلد هيلي ويويو، مائلا الحفر والمغارات بمائه كريه الرائحة. أغرق الأيكات والأكمات وأحال الأسوار ترابا

(*) للمرة الأولى تعود نجدو ديوال لنفسها وتقوم بتأمل واضح وإيجابي. ويوضح هذا ما قيل في هامش سابق من أن ثمة دائما بذرة خير في الشر وبذرة شر في الخير. ومهما يكن، فإن استفاقة ضمير نجدو ديوال هذه، لا يمكنها أن تستمر مادامت قد خلقت كي تكون شريرة.

مدكوكا ودمر الأكواخ. غطى المراعي وأغرق الحيوانات التي كانت ترعى بها.

أمر الملك كل السكان أن يفروا وأن يلتجئوا إلى قمم الهضبات الكثيرة، لحسن الحظ، بالبلد. بعد ذلك استدعى باغوماويل وسأله عن رأيه في هذا الفيضان الغريب الذي لا مبرر له خارج فصل الشتاء.

أجاب باغوماويل: هذا هو السهم الأخير الذي ترمي به نجدو ديوال هيلي ويويو. وقد أحسنت صنعاً، أيها الملك، عندما نصحت الناس بالفرار حاملين ما لديهم من أمتعة ثمينة.

سمعت وامندي، أم باغوماويل، هدير المياه. خرجت مسرعة من كوخها، تاركة على الموقد أنية خزفية بها ملح بارود، أعد وفق وصفة موروثه من أبيها - وامندي. كان أبوها، مع ذلك، قد أوصى بعدم إهمال هذه المادة عندما تكون على النار، مهما يكن الأمر.

عندما رأت وامندي الأمواج تتقدم نحو كوخها، نادى على ابنها: يا جذع فالو، صاحت، أعني، قم بأي شيء كي تنقذ الملح الذي أنا مدينة به لجذك. الفيضان يسارع نحو كوكي. سيطفئ النار ويدمر الملح. والحال أن علينا أن لا نفقده بأي ثمن. أما إذا ما حصل أمر مثل هذا، فإن أبي قد حذرني من أن كارثة ستحل ليس بنا فقط بل بالبلد كله.

- أماه! أجاب باغوماويل، هذا الفيضان الذي ترين ليس فيضانا عادياً؛ فنجدو ديوال شخصياً قد قذفت بنفسها نحوي. هي تريد أن تستدرجني إلى مكان تفتح فيه فاهها الجهنمي الواسع مثل مغارة كي أدلف إليه إلى الأبد. وأخشى أن يكون

داخلُ كوخك هو المكان المناسب؛ سيكون بإمكانها أن تبتلعني فيه بالسهولة نفسها التي تبتلع بها أفعى أرنباً. لا يمكن للساحرة أن تفعل أي شيء ضدي خارج الكوخ، أنا متأكد من ذلك. لكنني سأكون بالداخل تحت رحمتها، وأنا متأكد من ذلك أيضاً.

- لقد أوصاني والدي، عَقَبْتُ وامندي، بألا أفقد أبداً هذا الملح، ولو فقدت في سبيله حياتي. وبما أنك قد تَبَلَّعَ إذا ما ولجت الكوخ، فإنني سأقوم بذلك بنفسي. أهوَنُ عليَّ أن أفقد الملح، بل حتى حياتي، من أن أجازف بفقدك أنت الذي تعد حياتك ضرورية لشعبنا.

وشرعت وامندي، من دون أن تفكر في عواقب ما هي مقدمة عليه، تستعد للعودة إلى كوخها. فكر باغوماويل، في رمشة عين: هل يمكن لابن يستحق هذا الاسم أن يحضر تضحية أمه؟ ثم إن أمي كي تشبث بهذا الملح أكثر من تشبثها بحياتها، يعني أن قيمته عظيمة. أفضل إذن أن تواجهني نجدو ديوال أنا من أن تواجه أمي. ثم ألن أكون أردأ الأطفال وأعق الأبناء إن لم أشتري حياة أمي بثمن حياتي أنا؟

ثم سارع لإيقاف وامندي، صاحباً إياها بلطف: ابقِي هنا، قال لها برقة، وصلِّي من أجلي. سأذهب للبحث عن ملحك، حتى إن ضحيت، من أجل ذلك، بحياتي. وريطاً للقول بالعمل، ومحمسا بالحب الأمومي، ولج الكوخ (*).

(*) كل مغزى الحكاية يتجمع في هذا الفصل الذي يضحى باغوماويل فيه بحياته من أجل أمه. فمن الناحية الأخلاقية، حب الأم والتضحية من أجل الأقارب هو ما تتم الإشادة به ههنا. ومن الناحية الصوفية، تعد هذه فرصة لإظهار أن النصر الروحي يمر دائماً عبر التضحية بالذات والزهد والتجرد. وبالفعل، فإن فعل باغوماويل هذا، بالتحديد، هو الذي سيقود إلى هزيمة نجدو ديوال الهزيمة النهائية.

توجه نحو الموقد. كانت الأنية موضوعة على ثلاثة أثافي تشتعل بينها قطع خشب. التفت فانتبه إلى أن الفيضان قد التحق به وأن رأس الماء يلج خلفه المنزل. سارع بحمل آنية الخزف التي كان ملح البارود قد طبخ فيها تماما. اجتاح الماء الكوخ وأطفأ النار. كان باغوماويل، وهو يحمل عاليا الأنية، يستعد للخروج عندما شعر بأذرع ملساء تلتف حول ساقيه. كانت تنضج منها مادة لزجة تحاول أن تنتشر على كل جسده. انتفض بقوة كي يتخلص منها محاولا الالتحاق بالباب. ارتفع مستوى الماء، على الفور، وأدرك صدره. ما عاد باغوماويل يتحرك. ظل هادئا متيقظا، لأنه لم يكن يشك في أن نجدو ديوال لن تتأخر في الظهور، بهذا الشكل أو ذاك.

وفي اللحظة نفسها التي كانت تتكون لديه هذه الفكرة، هاج الماء واعتمل. أصبح في شكل رأس ضخم فيه سبع آذان وثلاث عيون، تقع إحداها وسط الجبهة تماما (*). فتح الرأس المرعب فما بشساعة هاوية وقال:

آه يا باغوماويل! اعلم أن حتى أكثر المحاربين تيقظا، حتى لو كان مشمولاً بألف انتصار، يمكنه أن يسقط يوما على ساحة الوغى. وتلك هي حالك اليوم. لقد انتصرت دائما علي. كانت الأيام السالفة أيام نصر بالنسبة إليك وأيام غم بالنسبة إلي. لكن تلك الأيام دارت وشملها النسيان. وهذا اليوم هو يوم انتقامي. لم يعد يلزمني إلا أن أمد يدي كي أقطفه. سيمسح

(*) سبع آذان، وثلاث عيون: عندما وصلت نجدو ديوال إلى هذه المرحلة، معتقدة أن النصر مضمون، أبانت لـ باغوماويل عن وجهها الحقيقي، الذي خلقت به: بمعنى آخر: أبانت عن حقيقتها الفعلية.

من ذاكرتي، كما من ذاكرات الناس، ذكريات الأيام العصبية التي شهدت انهزاماتي المتعددة. أنا الآن مثل أفعى وأنت مثل أرنب تحت رحمتي.

سأدهن جسدك بمواد لزجة حتى أبتلعك من دون صعوبة. لكنني، قبل ذلك، سأصيبك بالشلل وسأضع حدا لطاقتك، وسترى بعينيك المفتوحتين عمق فمي الذي ستغيب فيه، عاجزا، كأنك تغيب في ليل بهيم لن يُتلى أبدا بأي فجر ملتئم. ثم فتحت نجدو عيونها الثلاث ومغارة فمها التي لا نهاية لعمقها. وفي اللحظة التي كانت تستعد لابتلاع باغوماويل، لم تستطع مقاومة الرغبة في أن تضيف: آه يا باغوماويل! لقد كنتُ على علم بأن اليوم الذي سأتحول فيه إلى فيضان كي أجتاح بلدك، سيكون هو يوم منيتك. اليوم إذن هو يوم وفاتك!

بشكل غريزي، كأن روح جده با - وامندي ألهمته، قذف باغوماويل في عيون وفم نجدو الملح الموجود في الآنية التي كان لا يزال يحملها في يده. صاحت الشريرة. انتشرت صيحتها مثل هزيم رعد قوي. آه! آه! قالت شاكية... اليوم وقد ظننت أنني انتصرت على باغوماويل، يكون هو، للأسف، الذي ينتصر علي بشكل نهائي، لأن الملح الذي قذف به إلى عيوني وفمي هو سم لا بلسم له سيؤدي حتما إلى وفاتي.

بمجرد أن كف رعدُ صراخ المشعوذة العظمى عن التصدية، اختفى الفيضان واستعادت نجدو ديوال شكلها المعتاد. لكنها نجدو جديدة، عمياء وخرساء. شرعت، محمومة، تعدو في كل

اتجاه وترتطم بالحواجز وتسقط ثم تقف من جديد وتعاود
عدوها الفوضوي. وأخيرا، ذهبت، متعثرة، لتسقط على رأس وتد
خشبي مدبب صلب مثل قطعة معدنية فولاذية، فاخرقها (*).
بُقرَ بطنها فانتشر كل ما بداخله - الأمعاء والكبد والبنكرياس
والرئتان والقلب - على الأرض. وهكذا هلك مجسمُ الشر، نجدو
ديوال، أم الكارثة.

في تلك اللحظة نفسها انقشع الظلام العميق الذي كان قد
لف البلد.

عند مغيب الشمس، شوهدت، يا للعجب! النجوم المتعددة
تنظم في دوائر حول النجوم الثمانية والعشرين الكبرى التي
بزغت هي أيضا، في السماء، في اللحظة نفسها، وهو ما يعد
أمرا غير مسبوق! كانت تلمع مثل تاج حول العلامات الفلكية
الاثنتي عشرة التي تحيط، هي بدورها، بالكواكب السبعة
المجتمعة (**). ٨٧.

على الأرض، عادت الأشجار المثمرة والأعشاب الطبية في
أعالي الدغل، التي كانت من قبل قد جفت، إلى الاخضرار كأنها
في بداية موسم الأمطار. كل ما كان من قبل قد أصبح هزيلا
نحيفا اكتنز على الفور. عادت الزروع لتملأ الحقول من جديد.

(*) التقاء غريب مع أسطورة مصاص الدماء الغريبة، التي لا يمكن لهذا الأخير، فيها، أن يموت
إلا وقد اخرق بطنه وتد خشبي.

(**) النجوم الثمانية والعشرون (٢٨) (انظر الهامش ٨٧ من الملحق) تظهر دفعة واحدة وكذلك
الكواكب السبعة والعلامات الفلكية الاثنتي عشرة، محاطة بما لا يعد ولا يحصى من النجوم في
السماء، كما لو أن مجمل الزمن والفضاء يجتمع في هذه اللحظة حيث تنقشع كل عتمة.
إن المشهد يقع في زمن آخر غير الزمن البشري المعتاد.

بعد اختفاء مبدأ الشر، تستعيد الطبيعة براءتها الأولى. تقول عبارة فولانية: «عدنا إلى نقطة
البداية...».

أصبح الحليب مدرارا . ومع مرور الأيام أصبحت كل عملية حلبٍ أو حصاد أو قطف أحسن من التي كانت قبلها .
عاد البلد كله إلى حيويته، لأن القدر الأسود الذي أُصيب به انتهى في اللحظة نفسها التي زهقت فيها روحُ نجدو ديوال .
عاد الجميع مبتهجا . عوضت الضحكاتُ البكاء . شكر الشعب جينو وكرم من كان أداة استعادتهم لسعادتهم: باغوماويل، جنع فالو . لأن لكل شيء سببا، وأبدا لا يحتقر الإنسانُ الحكيمُ السببَ أو ينساه .

* * *

وحيثما وجدتنى حكاية نجدو ديوال، تركتنى . أما بالنسبة إلى الحكاية في ذاتها، فتواصل طريقها على جناح الزمن نحو غدوات لن تكف عن التجدد، ونحو آذان جديدة لن تكف عن الاستماع، ونحو فتيان أذكى لن يكفوا عن التأويل والتكييف والتطبيق (*) .

هكذا تمشي الحياة، بخطى وثيدة أو بسرعة، للقاء الموت الذي يتقدم، هو أيضا، بخطى بطيئة أو بسرعة أكبر .

(*) التطبيق: يعني حرفيا «تقليد الحكاية»، بمعنى تأمل سلوكات مختلف الأشخاص بهدف استخلاص دروس واستقاء نماذج .

ملحق الهوامش الخاصة بحكاية نجد وديوال^(١)

(١) أسطورة الخلق

أسطورة الخلق هذه مشتركة تقريبا بين كل عرقيات السافانا بأفريقيا الغربية (بافور القديمة)، مع تنويعات تختلف باختلاف هذه العرقيات والجهات والأنحاء، وفق المظهر الذي يريدون التركيز عليه من فعل الخلق.

وفضلا عن ذلك، فإن للفلولانيين أسطورة خلق خاصة بهم، تقوم على الدلالة الرمزية للحليب والسمن والنوع البقري. لكن عندما هزمهم سوندياتا كايता (مؤسس إمبراطورية ماندي، أو مالي) وتم نقلهم من الشمال إلى الجنوب، اندمجوا بشكل كامل في النظام الثقافي لبلاد ماندي فتبنوا جزءا من أسطورتها حول نشأة الكون، ولم يحتفظوا إلا باختلاف بسيط، إلى درجة أنه قد أصبح مستحيلا التفريق بين نظرة الفلولانيين ونظرة بامبارا لنشأة الكون. فقد أصبحت الشخوص الرئيسية تنتمي إلى هذه الثقافة كما تنمي إلى تلك.

وكي يندمج الفلولانيون بشكل جيد في المجتمع، تبنا أيضا أربعة أسماء عشائر (العشيرة بلغة بامبارا هي ديام، وبلغة الفلولانيين ييتور) حتى يتلاءموا بشكل جيد مع النظام الأربعى لماندي. العشائر الفلولانية الأربع هي إذن أسماء مستعارة. فالفلولانيون، في الأصل، لم يكن لهم سوى أسماء قبائل: فال با، مثلا، هم في الحقيقة آل ووروبي. وكلما توجهنا نحو شرق المنطقة الثقافية لماندي والديلتا النيجيرية، يقل عثورنا على فلولانيين يحملون اسم عشيرة ييتور؛ فهم يحملون اسم قبيلتهم.

١ - كل الهوامش الخاصة بهذا العمل إما كتبها أمادو همباطي بنفسه (التفصيلات الكبرى المتعلقة بهوامش الملحق والإشارات

الرمزية)، وإما أملاها بالموازاة مع قراءتنا المشتركة للنص (ومن بينها الدلالات الروحية لمختلف مراحل الحكاية) هـ. هيكمان.

* * *

مفهوم «الفراغ الحي»، أو «الفراغ الذي لا بداية له»، الذي نعثر عليه في الأسطورة (والذي يستدعي مفاهيم ميتافيزيقية توجد في أمكنة أخرى، خصوصا في الشرق الأقصى) متواتر في الموروث الفولاني. فجينو لم يُخلق ولا جسد له وليس له مظهر مادي (ومن ثمة فكرة الخواء)، لكنه في الوقت نفسه أصل ومبدأ كل حياة. والموروث يميز بين نوعين من الحياة: الحياة الأبدية، الخاصة بجينو وحده؛ ثم الحياة العارضة الخاصة بكل كائن مخلوق (حتى الكائنات العلوية للعوالم الدقيقة). الحياة التي خرجت من البيضة الأصلية هي حياة عارضة، وبذلك، فهي تتبع قانون السبب والمسبب.

لنشر أيضا إلى أن الكلمة «فان» بلغة بامبارا (البيضة) تعني أيضا «معمل حدادة». الحداد، الذي يعتبر بمنزلة ابن الأرض الأول، يحول المادة ليصنع منها أدوات. فهو يشكل إذن أول مقلد للخلق الأصلي. ومشغله هو انعكاس لمعمل الحدادة الكوني الأعظم. كل الأدوات فيه لها طابع رمزي وكل الحركات التي يتم القيام بها هي ذات طابع طقوسي.

الموروث يعتبر أن ثمة أشكالا عدة للزمن: فثمة أولا «الزمن اللانهائي اللازمي»، وهو الأزل الذي لا مبتدأ له ولا منتهى، وهو مسكن جينو؛ ثم «الزمن الزماني الإلهي» (دومونا) الذي يحضن البيضة الأصلية؛ وأخيرا الزمن الزماني الإنساني (الساعة

واليوم والأسبوع... إلخ). الذي يخرج من البيضة. ونحن تجنبنا تقديم تعاقب العناصر التي تولد من البيضة حتى لا نثقل النص.

وكما يمكننا أن نلاحظ في مسألة نشأة الكون الناتجة عن الإنسان الأصلي (نيدو)، فإن الوحدة، في لحظة ما، تنتفي؛ إذ يبرز سبيلان: سبيل الخير مع «الرجل العجوز»، وسبيل الشر واللاتظام والفضوى مع «المرأة العجوز الشيباء». الصراع بين الخير والشر أمر متواتر في حكايات الموروث الأفريقي، واستجابة لهم أخلاقي، يتم الانتصار دائماً للخير. وبالفعل، فإن المبدئين مترابطان ويعتبران متلازمين إلى درجة أنهما يشكلان وجهين لعملة واحدة.

الرجل بوصفه نقطة التقاء كل التأثيرات وكل القوى (إذ هو ملخص للكائنات العشرين الأولى وإناء للشرارة الريانية)، يجسد الخير والشر. وسلوكه هو الذي يؤدي إلى بروز إما هذا وإما ذاك. وسيركز التلقين، تدقيقاً، على أن يُعلي في الإنسان من شأن كل درجة من درجات أسطورة النشأة هذه، حتى تتم إعادة إدماج حالة «نيدو» الأصلية، والذي يعد مخاطب جينو ومدير عملية الخلق التي تظل كامنة في كل كائن.

نيدو هو الإنسان الخالص، النموذجي. السلوك الممتاز يدعى «نيداكو»، أي كل ما يقوم به من هو إنسان بكل معاني الكلمة: النبيل والشجاعة والشهامة والخدمية ونكران الذات. ولندقق بأن مفهوم نيدو يحوي في الآن نفسه الرجل والمرأة، لأنه يقال بأن نيدو يضم في ذاته المذكر (بابا: الأب) والمؤنث (إينا:

الأم)، المقتربين بالتتابع، بالسماء وبالأرض - السماء لفظ مذكر في اللغة الفرنسية - المترجم) وحالة نيداكو هي حالة الإنسانية الكاملة، المؤنثة والمذكورة في الآن نفسه. والتلقين الذي نتحدث عنه باستمرار في هذا العمل، يمكن أن نفهمه بمعنيين متكاملين: ثمة التلقين المستقبلي من الخارج والتلقين الذي يتم داخل الذات نفسها.

التلقين الخارجي هو «انفتاح العينين»، أي كل التعليم المقدم في أثناء احتفالات تقليدية أو في أثناء لحظات الاختلاء بالنفس التي تعقب هذه الاحتفالات. لكن، يجب، بعد ذلك، أن يعيش المتعلم ما تعلمه وأن يتمثله ويخصبه بأن يضيف إليه ملاحظاته الشخصية وفهمه وتجربته. والمؤكد أن التلقين يتواصل طيلة الحياة. فمثل فولاني يقول: «التلقين يبدأ أثناء الدخول إلى الروضة وينتهي بالقبر».

٢ - نيلبي (سونسون بلغة بامبارا) - diospyros mespiliformis: شجرة مثمرة ذات فضائل طبية. هي الشجرة المقدسة للفولانيين، لها علاقة بأنشطة الذكور؛ فعصا الراعي تؤخذ دوماً من أغصان هذه الشجرة. أما شجرة كيلى، وهي شجرة مقدسة أخرى، فلها ارتباط بأنشطة الإناث. ثمة، في الموروث الثقافي، أربع عصوات: عصا الراعي وعصا القيادة وعصا الحكمة ثم عصا الشيخوخة.

٣ - الجدول: شكل مؤلف من مثلثين متساويي الأضلاع متداخلين، أحدهما موجه نحو الأعلى (السماء)، والآخر موجه نحو الأسفل (الأرض). والمجموع يشكل نجماً ذا ستة أطراف.

ويشكل تقاطع خطوطه ست خانات جانبية وخانة مركزية تسمى «سرة» أو «قلب» الجدول.

اسم هذا الجدول باللغة الفولانية هو فادوند نداو (من فاداد: حَمَى، ونداو: النعامة). يقال بأن النعامة، قبل أن تلد، تقلد وهي ترقص، رسم الجدول على الأرض، ثم تذهب لتلد وسطه. وبالمثل، فإنه عندما يكون الاستعداد قائما لضرب مضارب الفولانيين، فإن زعيم الموكب يعيد رسم هذا الشكل، سواء وهو على فرسه أو كان راجلا، حول المخيم. ويستعمله المعلمون الكبار «silatiguiss» (ملقنون فولانيون. انظر الهوامش ٥ و١٦) في عملية التنجيم. إنه شكل ذو قيمة حمائية عالية، بالنسبة إلى الفولانيين كما بالنسبة إلى بامبارا. فهو يرمز إلى الكون. يمثل المثلث الموجه نحو السماء النار ويمثل المثلث الموجه نحو الأسفل الماء. وتمثل الأطراف الستة الاتجاهات الأربعة، إضافة إلى السمات والنظير. وتمثل الخانات السبع، من بين ما تمثله، أيام الأسبوع السبعة والزوايا الاثنتي عشرة وأشهر السنة الاثني عشر.

يعد هذا الجدول رمزا خفيا أو رمزا دينيا كونيا. التقليد الهندي يرى فيه اتحاد الإله سيفا مع بعده المؤنث شاكتي. وفي الموروث اليهودي المسيحي، يسمى «نجمة داوود» أو «خاتم سليمان». ويعتبر الجدول في الموروث الإسلامي، بمنزلة الشكل الهندسي لاسم الله؛ يُسَعَفُ الحرف الأخير (الهاء) «الذي يشبه شكله الهندسي شكل مثلث»، في تشكيل مثلث صاعد، يسمى «مثلث الورع». أما الرسم العمودي للأحرف الثلاثة الأخرى (ألف - لام - لا م -) فيُسَعَفُ في تشكيل المثلث النازل، أو «مثلث الرحمة

الريانية، الجدول، بالنسبة إلى طالب العلم المسلم، لا يعتبر رمزا عبرانيا خاصا، وإنما هو رمز أبدي يجسد اتحاد الأرض والسماء، أو بمعنى آخر اتحاد الروح العارضة بالله المتعالي.

٤ - الجمجمة: درست مدرسة كوري (موروث مائدي خاص بامبارا) عظام الرأس وأعطت اسما لكل عظم من عظامها، وهو ما قام به أيضا التقليديون الفولانيون المنتمون إلى دجيرى (بالسنغال) المرتبطون بملة ديالان. هؤلاء على علم بطقس يتم فيه التضرع للجمجمة ويسمح بمعرفة ما سيحصل مستقبلا. تعتبر الجمجمة، في هذا الموروث، بمنزلة العامل المستقبلي للقوى العلوية. وتعتبر جمجمة الرجل، من بين كل الجماجم، أحسن عامل لتلقي إرساليات هذه القوى. ويتم الاحتفاظ بجماجم الزعماء أو الرجال ذوي السمعة الكبيرة، ليس بوصفها غنائم فقط، بل بوصفها أيضا أداة خاصة بنقل فضائل هؤلاء العظماء المتوفين إلى الأحياء. تسمح هذه الإشارات القليلة بفهم أحسن للوظيفة المركزية التي تقوم بها (الجمجمة المقدسة) طيلة هذه الحكاية.

ووفق تعاليم بامبارا المنتمين إلى كومو، خصوصا تعاليم ديبى وكوليورو (شاطئ النيجر الشمالي أسفل باماكو)، فإن جسد الإنسان يضم سبعة مراكز موزعة بين قمة الرأس وأسفل الجسد. وتعتبر الجمجمة «المركز - الرئيس»، ثم تتتابع المراكز الستة الأخرى انطلاقا من الجبهة - ولا يمكننا هنا ألا نفكر في «الشاكرات» السبع، أو مراكز الطاقة، التي يوزعها أيضا الموروث الهندي على جسد الإنسان، من قمة الرأس إلى أسفل العمود الفقري.

نعثر، في بعض المعابد التعليمية الأفريقية، على بضع مزهريات خزفية؛ قد تكون ثلاثا أو خمسا أو سبعا. عندما تكون سبعا، تكون ترمز إلى مراكز الجسد السبعة. يتم وضع أربعة «أحجار رعدية» في المزهريّة التي تمثل الجمجمة؛ وهي ترمز إلى النار العلوية التي نزلت على الأرض لتُنقش في الكائنات التي تُعمرها الذكاء والقوة المنبعثة عن مانغالا (الإله).

في بُعد آخر، تُماثل الجمجمة بالبيضة الكونية التي كانت توجد فيها كامنّة كل الأشياء قبل خلق العالم الزائل. وبهذا المعنى، تكون الجمجمة رمزا لرحم المعرفة.

العظام الأساسية التسع للجمجمة، هي، في الموروث الفولاني، بمنزلة السبل التسع للتعلم. العظم التاسع ليس ظاهرا، كما هو الشأن بالنسبة إلى «واحد» الذي لا يعد عددا لأنه الوحدة غير المعروفة وغير المحددة. إن سر معرفة هذا العظم مرتبط بسر الوحدة الأساسية والخفية.

٥ - العارفون: يتم التمييز، عند بامبارا، بين السوما والدوما، على اعتبار أن الثاني أعلى مرتبة من الأول. السوما، مثلا، يعرف فقط مختلف فئات النباتات والمعادن... إلخ، بينما يعرف الدوما طريقة تشخيص المرض ووصف النباتات المناسبة للعلاج. وعندما يكون الأمر متعلقا بالتطبيق، فإن السوما يعتمد على الدوما.

أما عند الفولانيين، فإن الغاندو، هو في الآن نفسه، سوما ودوما. والمعلم الأكبر (السيلاطي) هو دائما غاندو، لكنه أرفع شانا من هذا الأخير في تراتبية التلقين. ولقب السيلاطي يشير

إلى مرتبة في التعليم، يمكن أن نسميها مرتبة «المعلم الكبير» - <http://abuabdoalbagi.blogspot.ae/>
«Grand maître» (انظر الهامش ١٦).

٦ - نينوفار: ترمز زهرة النينوفار، بمنطقة ماندي، إلى العذراء التي تنتظر أن تُخصَّب. بهذا المعنى، تكون مماثلة لكأس كونية مستعدة لأن تملأ. وتعتبر الأمطار الأولى في السنة بمنزلة بذرة علوية تأتي لملء هذه الكأس. بالنسبة للفولانيين وبعض الملل والأديان الماندية، فإن زهرة النينوفار ترمز إلى الحب؛ إذ لها تماثل قريب لهذا المفهوم. ويعتبر الفولانيون والدوغون زهور النينوفر بمنزلة رمز للحليب الأمومي؛ كما أنهم يستعملون أوراق هذه النبتة قصد مساعدة الأمهات المرضعات في إغزار حليبهن. ويقومون بالشئ نفسه عندما يتعلق الأمر ببنات الحيوانات.

الأسطورة الفولانية تسند للسيلاتيجي (المعلمين الكبار) «نينوفار الأجداد» التي استقدمها من مصر شتات قديم. وكانت نساء هيلي ويويو يحملن حول اعناقهن أكاليل من زهرة النينوفار ويزين بهذه الوردة ضفائرهن.

٧ - شجرة الجبن وشجرة البواباب وشجرة الكايلسيدرا: ستأتي الهوامش المتعلقة بدلالة هذه الأشجار، وبدلالة نباتات أخرى وحيوانات واردة في هذا الوصف، أثناء هذه الحكاية، عندما يكون أحد هذه العناصر موضع حديث.

٨ - الماء، ذاك العنصر - الأم الذي لا روح له: «العناصر الأم» الأربعة هي الماء والنار والهواء والأرض. والمزج بينها هو ما مكن من خلق كل الكائنات الفانية.

وعبارة «لا روح له، لا تمتلك أي قيمة إلا مقارنة مع روح الإنسان؛ ذلك أن لكل شيء روحا، في الموروث الأفريقي: ثمة روح للمعدني وروح للنباتي وروح للحيواني. وهي ما نسميها «الأرواح الثلاث». ولكل سيادة روحٌ وحيدة. ويمكن لمثال الكهرباء أن يساعد على فهم مفهوم الروح الوحيدة: سواء أمر التيار إلى مصباح من ٢٥ واط أو إلى مصباح من ٢٠٠٠ واط، فهي دائما الكهرباء نفسها. الشيء الوحيد الذي يختلف هو قوة المصباح. أما الإنسان فشيء آخر، لأنه قد تلقى إرث أن يكون مُحاطَب جينو (أو مانغالا). الإنسان المكثف في أصل كل شيء في الكون والمحرك بما نُفخ فيه من روح إلهية، يعتبر في الآن نفسه مدبرَ الخلق وضامنَه، باسم جينو. ومن ثمة المسؤولية التي يتحملها.

٩ - الوادي: تعتبر الوديان رموزا للتلقين الذي يقود متعلما مبتدئا إلى المعرفة وإلى الحكمة. الوادي يؤدي إلى البحر المالح، مستودع المعرفة. وكلما قرن الهدف المشار إليه بالملح، فإن ذلك يعني أن تعلما كبيرا قد تحقق.

١٠ - البلد السَّبْعِي: إن كل هذه الحكاية تقع، بالفعل، تحت علامة عدد سبعة، انطلاقا من اسم نجد وديوال نفسها الذي يعني «المرأة السبعية».

يعتبر العدد سبعة عددا كبيرا في كثير من التقاليد، مع عدد واحد وعدد ثلاثة. والأعداد الفردية، المسماة «مذكورة» هي أعداد أكثر «امتلاء» من الأعداد الزوجية المسماة «مؤنثة». العدد سبعة مرتبط بمفهوم الدورة المتكررة، وإذن فهو مرتبط بالزمن. الفولانيون يقولون: «كل سبعة أعوام». وفي الإسلام ترمز

مضاعفات الرقم ٧ (٧٠، ٧٠٠، ٧٠٠٠) إلى كمية ضخمة، فضلا عن رمزيتها لأمر لا يمكن قياسه. ومعلوم أن الفاتحة، أول سورة من القرآن، التي تقرأ في كل صلاة، تتكون من سبع آيات، تماما كما هو الشأن بالنسبة إلى الصلاة المسيحية.

في التقليد الفولاني، كما في موروث بامبارا، تعتبر كل فتحة في الرأس (الضم والعينان والمنخران والأذنان) بابا لدخول حالة كينونية، عالم داخلي، ولذلك فهي محروسة بقوة ربانية خاصة. كل باب يؤدي إلى باب داخلي آخر، وذلك إلى ما لا نهاية. ولفتحات الرأس السبعة هذه علاقة بدرجات التعلم السبع.

١١ - شجرة التمر الهندي: تحتل هذه الشجرة المطهرة القاعدة من التطبيب الأفريقي؛ فمكوناتها المختلفة تدخل تقريبا في كل الأدوية التقليدية. ترمز هذه الشجرة المقدسة في تقاليد بامبارا المنتمين إلى ندومو وكوري إلى التعددية والتجديد. وترمز جذورها إلى طول العمر. وعندما يصاب إنسان بمرض شديد، يقال له: «خذ جذور شجرة التمر الهندي». ف«أخذ جذور شجرة التمر الهندي»، يعني الانتصار على المرض.

١٢ - الدجاجة - الذكر: الديك. يعتبر الديك في أفريقيا السوداء حيوان التضحية بامتياز. يتم تقديمه إلى الآلهة كما يقدم إلى الضيف إكراما له. وبما أنه يعلن مقدم ضوء اليوم الجديد، فإن الفولانيين ينادونه (مؤذن الحيوانات). وهو يرمز إلى يقظة الذهن. صوته يرشد إلى السبيل المؤدي إلى نور جينو. كل أجزاء جسد الديك تدخل في الاستعمالات السحرية في الموروث الأفريقي، لأنه مبارك للغاية. ترمز شوكتة إلى سلاح

البطل المنتصر على أعدائه. فبفضل شوكة ديك معدة بشكل سحري، انتصر سوندياتا، بطل ماندي، على عدوه سومانغورو. الديك، في الموروث الفولاني ذوارتباط شديد بالسر الخفي (انظر كايدارا).

١٣ - الثور: لم يكن لتربية المواشي عند الفولانيين هدف اقتصادي. الفولاني يعتبر النوع البقري بمنزلة قريب له، بمنزلة أخ. لم يكن يذبحه ولم يكن يبيعه أو يأكله. كان يستهلك حليب البقر وسمنه ويقايض بهما كي يحصل على مواد أساسية. ولزيد من المعلومات حول عقيدة الفولانيين المرتبطة بالبقر والوظيفة الرمزية له، نحيل على كتابنا كومين.

١٤ - سليمان: يلمح الفولانيون باستمرار، في أساطيرهم وموروثهم التاريخي، إلى الأحداث التي طرأت في زمن النبي سليمان الذي يبدو لديهم دائما بمنزلة أصل بعض التعلّمات. وفضلا عن ذلك، فإن الفولانيين ينادون ملكة سبأ (الخالة بلقيس). بعض النظريات التي تناولت أصول الفولانيين تقول بقرباتهم العرقية القديمة مع العبرانيين، وترى أخرى أنهم من أصول عربية. أما في أساطيرهم الخاصة، فهم يصرحون بأنهم قد «قدموا من الشرق» (انظر حكاية لمعان النجم الأعظم، ص ٥١. انظر أيضا نهاية الهامش الرقم ٦). وتجعل نظريات أخرى، مشتقة من دراسات لسانية، أصلهم يعود إلى الهند الدراويدة (انظر القضية الفولانية، لـ ألان أنسيلان، كاراثالا). وكيفما كانت الحال، فإن الحفريات الصخرية التي أجراها هنري لوت في مغارة تاسيلي، تشهد على وجودهم بأفريقيا منذ ٣٠٠٠

سنة قبل الميلاد، على أقل تقدير (انظر أيضا أمكوئيل، الفتى الفولاني. ص ١٨ و ١٩ - مجموعة بابل من ص ٢٠ - ٢٢).

١٥ - وصف هيلي ويويو: يثير هذا الوصف مجموعة من الأسئلة. فنحن نرى، بالفعل، أن الفولانيين إن كانوا (يملكون قطعانا كبيرة)، فإن من المفروض أن يكونوا يسكنون قرى وحتى بلدات، وأنهم يملكون مساكن (بعضها أجمل من بعض)، مما لا يتوافق البتة مع طابع هذا الشعب الذي يعد أساسا شعبا من الرحل، حيث نجد في الصفحة الموالية أنه (أكثر تجوالا من الإعصار). مؤكدا أن الفولانيين كانوا يستقرون بالقرب من بعض القرى أثناء فصل الجفاف، غير أن مساكنهم، المكونة أساسا من أكواخ مؤقتة من القش، كانت تقام دائما خارج حدود القرية، فلا يمكننا أن نقول بأن ذلك يشكل انتقالا فعليا من حالة الترحال إلى حالة الإقامة الدائمة. إن إنشاء بعض الإمبراطوريات أدى إلى بناء مدن وقرى، لكن تلك ظاهرة تعتبر حديثة نسبيا بالنسبة إلى تاريخ الفولانيين.

هل علينا أن نستنتج من هذه الحكاية أن الفولانيين كانوا يعيشون، في ماضٍ سحيق، في بلد مجهول، نمطا حياتيا آخر، وأنهم عاشوا حياة الترحال بعد ذلك؟ أم أن علينا أن نرى في هذا الوصف تأثيرا للموروث الخاص بشعوب ماندي التي تعيش الفولانيون معها (انظر الهامش ١)؟ وخلف الآثار والتأثيرات المتبادلة التي يصعب اليوم كشف طبيعتها، يبقى أن الشعب الفولاني يتذكر جائحة قديمة ورهيبة طردتهم من بلد رائع، لم يكن البشر يعيشون فيه حياة سعيدة ومثالية، فقط، وإنما

كانوا أيضا قد أدركوا مستوى رفيعا من العلم ومن المهارة. يقال: «الشيء الوحيد الذي لم يكن فولانيو هيلي ويويو يعرفونه هو أن يجعلوا فرسا يمشي على سور أو أن يُميلوا بئرا ليشربوا منها وكأنهم يشربون من كأس»، وسواء أكانت هذه الحكاية أسطورة أو حقيقة، أو ربما خليطا من الاثنين، فإنها تثير أيضا العصر الذهبي أو الجنة المفقودة، وهو أمر مشترك بين جميع موروثات الكون.

١٦ - المعلمون الكبار: هم الملقنون الكبار للفولانيين الرعويين. فباعتبار المعلم الكبير قائدا روحيا للمجموعة، فإنه سيد الأسرار الرعوية وأسرار الأدغال. وبما أنه مخصوص بمعرفة فوق - عادية، فإنه يترأس الاحتفالات ويقرر في كل ما يتعلق بمسألة ارتياد المراعي وبصحة وتخصيب القطيع. هو يمثل المرحلة القصوى للتلقين. كل راع مبتدئ يحلم بأن يصبح يوما معلما كبيرا. ويُعتبر كوميّن نصا تلقينيا يصف المراحل التي يتبعها سيلي ساديو كي يصبح معلما كبيرا. في لمعان النجم الأعظم، وهي حكاية تالية لكايديارا، سيكون باغوماويل (الذي يشارك في أحداث حكاية نجدو ديوال بوصفه طفلا صغيرا) صورة للمعلم الكبير المثالي، إذ سيكون معلما ملقنا لملك.

كانت القيادة الروحية والزمانية، عند الفولانيين التقليديين القدامى، توجد بين يدي معلمين كبار. كان قادة القطيع (أرب) يعيّنون كل يوم من طرف المعلمين الكبار عن طريق التنجيم. وشيئا فشيئا، خصوصا مع فتوحاتهم وما نتج عنها من انتقال من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار، انتقلت القيادة إلى يد

قادة القطيع الذين أصبحوا زعماء وملوكا، فلم يحتفظ المعلمون الكبار إلا بوظيفة الملقنين والمعلمين. غير أننا نعرف أيضا بعض الحالات التي يتقلد فيها زعيم القرية، أيضا، دور المعلم الكبير: حالة الزعيم ديمبو، مثلا، بقرية نديلا، دائرة لانجير (السنغال)، الذي أدين له بتعليمي الرعوي وبنص كومين.

١٧ - قط أسود، تيس أسود: بما أن الأمر يتعلق هنا بمخلوق جالب للشؤم وللكوارث، فإن السواد، لَوْنُ العتمة حيث تمارس الشعودة، هو الذي يسود.

يوجد القط والتيس، اللذان يعتبران، بالخصوص، «مشحونين» لكونهما يستقبلان قوى خارقة، في موروثات كثيرة. التمايم الأكثر تأثيرا تحفظ في جلد قط أسود أو في جلد تيس. وتتم التضحية بالتيس أكثر مما تتم بالثور. قديما، كان لكل قرية من قرى حوز النيجر تيس يسرح كيفما أراد في كل مكان. ولكونه مشهورا بقدرته على تلقي كل الشرور التي يمكن أن تصيب القرية، فإنه يعد حارسها وحاميها. ولرمزية التيس علاقة أيضا بالقوة الإنجابية (انظر كايدارا).

١٨ - السلحفاة: تعتبر السلحفاة من بين الحيوانات الأولى في الخلق. هي رمز لطول العمر والدوام، وهي أيضا رمز للحماية بسبب الدرع التي يمكنها من أن تختفي تحته بشكل كامل. وهنا، يعطيها عيشها في أحضان البحر، وظيفة حيوية جديدة، على اعتبار أن الماء يعتبر أصل الحياة.

١٩ - البيضة: هي رمز للحياة، لأن كل حياة تأتي، بعد الماء، من البيضة. حتى بذرات النباتات تعتبر بيضا. ألا يقال: «تفتحت

الوردة...؟

٢٠ - تمساح عجوز: التمساح بدوره يعتبر رمزا للقدم ولطول العمر. وعلينا ألا ننسى أن كل ما هو عجوز وقديم، في أفريقيا، يعتبر مشحونا بـ نياما، أي القوة الخفية، بوصفه وعاء لقوة نابغة من الله الخالق، الذي يعد «الأقدم» بامتياز. شيء من القوة الربانية نفسها، إذن «من جانب مظهرها المتعلق بالدوام وبالخلود» يوجد في كل ما هو عجوز، اعتبارا لقانون التشابه التماثلي الذي له قيمة في الفكر الأفريقي. نحن نستعمل هنا مصطلح «رمز»، لافتقارنا إلى مصطلح أكثر تعبيرا عن المراد، لكن الأمر لا يتعلق هنا برمزية تجريدية أو ذات طابع فكري صرف؛ إن الأمر يتعلق بتشابه ملموس أو، إن شئنا، بتمظهر لأحد مظاهر القوة الإلهية الأصلية (الدوام والحيوية والقوة... إلخ) عبر وعاء؛ وتتنوع درجات كثافة هذا التمظهر وفق طبيعة الأوعية.

٢١ - سبع أذان وثلاث عيون: الأذان السبع هي أحد مظاهر قانون السبعية الذي يطبع وجود نجدو ديوال كله. العين الثالثة تقع على الجبهة، وتختص بالنظر الداخلي. يطلق عليها اسم «عين العارف» أو «عين المشعوذ»، لأن تلك المعرفة، المحايدة في ذاتها، يمكنها أن تؤدي إلى الخير، كما يمكنها أن تؤدي إلى الشر، وفق الطريقة التي نستعملها بها.

٢٢ - العقرب: هي تجسد، في الرمزية النهارية (الإيجابية) نكران الذات والتضحية الأمومية (وليس «الأبوية»، كما ورد خطأ في الطبعة الأولى لكايدارا، الصادرة عن مطابع (ex - NEA

بأبيدجان). وبالفعل، فإنه يقال بأن صغار العقرب الأنثى تهلك جنبها وتأكل أحشاءها قبل أن تولد.

أما في الرمزية الليلية (السلبية) فإن العقرب تجسد الروح الشرسة، ذات المزاج الشرير، والكامنة على الدوام، ولا تظهر إلا قصد الوخز وأحيانا كي تُميت. وعلى العموم، يتم تجنب النطق باسمها لأنها مؤذية.

ترمز سيقانها الثماني وشوكتها وذيلها، إلى القوى الإحدى عشرة التي تشكل موضوعا قائم الذات في الدراسات الباطنية. نرى باستمرار، في أكواخ شعوب ماندي أو بامبارا أو حتى الفولانيين، عقارب سوداء معلقة على باب المدخل أو الغرفة المخصصة للاحتفالات الجنائزية. العقرب ترمز إذن إلى الروح التي تستعمل لطرده الشر المرتبط بالليل، وإلى أعمال مصاصي الدماء الليليين.

٢٣ - الفيلة والعقبان وأشجار البواباب والجبال: كلها رموز للقدم بامتياز. في لمعان... (ص ٤٣)، يُذكر «مجلس شجرة البواباب»، الذي يعتبر تجمعا سرّيا يقيمه كل سنة العقاب القديم والفيل وشجرة البواباب، كي يفحصوا جميعهم الأحداث الماضية والقادمة. وحده المعلم الكبير، باغوماويل، استطاع حضور هذا المجلس المحظور على الإنسان، واستفاد من تلقين هؤلاء الأحياء الثلاثة القدامى.

٢٤ - أن يكون المطر مصيبا بالجفاف، وأن يكون الحر مُخضرا: هذا القلب في الظواهر أمر متداول في الحكايات. وهو يدل على أننا نوجد في عالم آخر، لا تنطبق عليه القوانين المادية. وتتم

الإشارة إليه، باستمرار، عندما يكون الأمر متعلقا بمعلمين كبار (باغوماويل في لعان...) أو بسحره.

٢٥ - الملك: وظائف الملك (أو الزعيم)، في المجتمعات التقليدية، لم تكن شاملة، إذ لم يكن له الحق في كل شيء. كان على الملوك أن يأخذوا في الاعتبار قوة الزعماء الروحيين التقليديين، الذين يعدون أسياذ القرار في مجالهم الخاص («سيد الأرض» و«سيد المدينة، أو المضحى أو المعلم الكبير الفضلاني... إلخ). فضلا على ذلك، كانوا ملزمين بالعدول عن محظورات صارمة.

٢٦ - ٢٢، ٥٦: الأرقام ١١ و ٢٢ و ٥٦، تعتبر لدى الفضولانيين (كما في الإسلام)، ذات وظائف رمزية كبيرة.

٢٧ - النجمة الشريرة: بزوغ نجم يكون دائما علامة إما سلبية (كما هي الحال هنا)، وإما إيجابية، كما سيحدث لاحقا في الحكاية عندما سيبرز نجم معلنا عن الحمل بباغوماويل. وسواء أظلم النجم ظاهرا لمدة طويلة أم اختفى بسرعة، فإنه دائما مشحون بالدلالة.

٢٨ - نهاية التكهّن: يجب أن نقارب بين هذا الوصف لمجتمع أدرك لحظة انحطاطه وأوصاف أخرى من النوع نفسه في تقاليد أخرى، خصوصا التقاليد الإسلامية. وفي جميع الأحوال، فإن الأمر يتعلق بنهاية دورة حيث تنعكس القيم، فيعرف المجتمع كارثة عظيمة قبل أن ينطلق من جديد على قواعد جديدة.

٢٩ - الدم: مقدس لأنه يحمل الحياة. عندما يفقد إنسان دمه، فإنه يفقد أولا حيويته ثم يفقد حياته نفسها. وفي الأضحيان التقليدية، لا تطلب الآلهة سوى دم الأضاحي، وليس لحمها

الذي يستعمله الإنسان بعد ذلك. ويشرب نجدو ديوال هذه المادة الحيوية، فإنها تعضد دمها نفسه وتبرز طابعها بوصفها مشعوذة، لأنه يقال بأن المشعوذات «يمصصن دم الشباب كي ينتعشن».

٣٠ - الظبية: الظبية، وفق علمنا، لا تلعب دورا كبيرا في التقاليد الأفريقية بالسافانا. فهي لا تبدو حيوانا مشهورا للتضحية. لكن علينا أن نشير إلى أن هناك، مع ذلك، قناعا لشعب بامبارا، يحمل اسم سوغونيكون، أي «رأس الطريدة»، وهو رأس «ظبية». ترمز الظبية في الموروث الفولاني إلى الرشاقة، وبالتماثل، إلى المرأة الجميلة. أن ترى ظبية في الحلم، يفسر على أنه علامة ابتهاج، وأن تراها مع صغارها، يؤول على أنه فأل رخاء وازدهار. هناك نوع من الظباء يسمى «الظباء القميئة» (أومر باللغة الفولانية) تستعمل قرونها ورأسها في تهيئة التماائم. وهي تعد مشحونة جدا بنياما، أي القوة الخفية.

٣١ - أن لا يؤتاها بضرة: يقول المثل: «من يأتي لامرأة ممتازة بضرة، لن يستطيع أن ينام أو يَقبل، وسيُعاني من مائة واحد عشر توعكا، لأن أجداده سيأتون للتنغيص عليه». والخصال الأربع للزوجة الممتازة هي: أن تكون امرأة طيبة، وامرأة جميلة، وأن تكون أما جيدة وامرأة للحب.

٣٢ - أغا نوتيوور: حرفيا «الراعي القارص». ويمكن لهذا أن يعني أنه كان معتادا على قرص الأطفال أو متعلميه. ونوتيوور تعني أيضا «الذي يتطفل بعض الشيء»، الأمر يتعلق إذن برجل كان «يقرص» أو «يأخذ» قليلا من كل المعارف.

٣٣ - تعويذة الفولانيين العظيمة: نفهم من كلمة تعويذة، شيئا

«شُحْن» بشكل طقوسي حتى يصبح سندا لقوة ما . يصبح شيء مثل هذا أداة أو حاملا لقوة شبح أو إله، ليس في ذاته سوى تجسيد للقوة الأساسية التي يتمتع بها الله الأعلى، خالق كل شيء، الأوحد.

يتعلق الأمر، هنا، كما سنرى لاحقا، بواحد من الآلهة الثمانية والعشرين عند الفولانيين، والذي تُسخر قوته بهذه الطريقة وتُسجَن من طرف نجدو ديوال خدمة لمشاريعها الهدامة. ومن حيث المبدأ، فإن كل إله من آلهة الفولانيين الثمانية والعشرين (انظر الهامش الرقم ٥٣) يملك سندا مثل هذا يصلح أيضا للتضحية بالحليب وبالسمن، لأن التضحية نادرا ما تكون دموية عند الفولانيين. جينو وكايدارا هما الإلهان الوحيدان اللذان لا يملكان «تعويذة». وعلى أي حال، فإن حرق العطور والنباتات يندرج في كل الطقوس.

٣٤ - الجرادة: تعتبر، بصفة عامة، رمزا للأزمة والدمار. وهي مقدمة هنا بمظهرها الهجين، محققة نوعا من التآلف بين عدة حيوانات؛ إذ يقال بأن لها رأس فرس وقرني وعيني غزالة وعنق ثور وصدر تمساح أو عقرب ويطن دودة وجناحي نسرو وقوائم زرافة. يرتبط لونها الأخضر بفصل الأمطار ولونها المصفر بالجفاف.

٣٥ - وكر الأرضة: يعتبر وكر الأرضة أول بناية مقامة على الأرض. وقد يكون فنُ البناء قد لُقِنَ للإنسان من قبل الأرضة التي تكون بذلك سيدة البنائين، تماما كما هي العنكبوتُ سيدة الحياكة.

يعتبر وكر الأرضة بمنزلة مسكن للأشباح. ويصلح أيضا، باستمرار، مكانا لحفظ الأشياء الطقوسية والحلل الدينية.

يحضر ضمن وكر أرضة فسيح، يستطيع أن يعيش فيه إنسان، حفرة توضع فيها هذه الأشياء. بعد ذلك تقوم الأرضات بالبناء حول ذلك فتصبح هذه الأشياء محمية بشكل جمالي.

٣٦ - الكلب: لقد خصصت الميثولوجيا الماندية (نسبة إلى بلاد ماندي)، كما هو الشأن بالنسبة إلى ميثولوجيات أخرى متعددة في العالم، مكانا مهما للكلب. وبالفعل، فإن الديك والتيس والكلب تعتبر بمنزلة المرشدة للأرواح المجردة عن الماديات.

وبغض النظر عن كون التضحية تتم بالكلب للآلهة التقليدية الستة لماندي (نتومو - وولو وكومو وناما وكونو وتشيوارا وكوري)، فإن الكلب يضحي به للأرض حتى تكون منتجة، وحتى تكون أيضا «خفيفة» على أجساد الموتى. وتتم التضحية به أيضا لدفع سوء الطالع في أثناء حالات الكسوف.

وبما أن الكلب يعتبر أليفا للامرئي، فإن جمجمته، مثل جمجمة الإنسان، تدخل في طقوس التنبؤ. وفي بعض التجمعات المالية والنيجيرية، يتم استعمال بعض أجزاء جسد الكلب - الرأس على وجه الخصوص - في رقصات التملك.

٣٧ - رمص عيني الكلب: يستعمل لإثارة أحلام منذرة. ويقال أيضا بأنه يحسن الرؤية، خصوصا عندما يضاف إليه كحل، وهو نبات من فوائده تقوية النظر والعلاج من الرمذ.

٣٨ - فوجي: iandolphia - owariensis (فوجي باللغة الفولانية ونزابان بلغة بامبارا). هذه النبتة، التي تنسب إلى القمر وليوم الإثنين، هي عبارة عن عارشة متسلقة تستغرق زهرتها سنة كي تصبح ثمرة. وعندما نريد أن نستعملها، نحییها

بالعبارة الآتية: «يا وردة هذه السنة، وثمرة ناضجة خلال السنة المقبلة».

تمثل فوجي - النبتة ذات الفوائد - أيضا الليونة والمرونة، لأنها تقتنرن بنبتة أخرى بالالتفاف حولها.

٣٩ - رحلة السمك المهاجر: لقد لوحظ المسار نفسه تماما عند السمك المهاجر إلى نهر النيجر.

٤٠ - التمساح ذو الذيل القصير: التماسيح التي فقدت جزءا من ذيلها بسبب حادثة، مشهورة بكونها تماسيح شريرة. ففي باندياغارا، القرية مسقط رأسي، يوجد تماسح ذيله مقطوع يعيش، مع أمثاله، في جيب مائي من وادي يامي، يسمى «بركة التماسيح». كان هو الوحيد الذي يجرح الحيوانات؛ أما بقية التماسيح فلم تكن تهاجم لا الرجال ولا الأطفال ولا الحيوانات.

٤١ - البواباب: ليس مصادفة أن تكون هذه الجمجمة الموروثة عن ماضٍ سحيق، والتي ستلعب دورا رئيسيا طوال هذه الحكاية، قد خرجت من ثمرة بابواب، الشجرة المقدسة بامتياز، والتي تعد رمز طول العمر والقدم والحكمة والكرم. وبالفعل، فإنه بالإمكان الاستفادة من كل مكونات شجرة البابواب، مثلما تتم الاستفادة من كل أجزاء البقر؛ وهذا هو السبب في قولهم بأن شجرة البابواب هي، بين النباتات، مثل البقرة أو الثور بين الحيوانات.

٤٢ - العنكبوت: نموذج الحياكة (انظر الهامش الرقم ٨٣).

٤٣ - البلشون: طير من نوع مالك الحزين، وهو من الطيور التي يحبها الفولانيون لأنه، بحمله اسم «نقَّار الثور»، يرافق البقر كي يأكل الحشرات الطفيلية الملتصقة بجلده.

٤٤ - طير اللقلق: اللقائق هي التي دلت با - وامندي على طريق

ويلي - ويلي، بوصفها طيوراً مهاجرة.

٤٥ - التحالف بين الفولانيين والحدادين: يعود هذا التحالف

المقدس إلى زمن بويتورينغ ونونفاييري، جدّي الرعاة والحدادين، وفق ما ورد في أسطورة «فيرلو» السنغالية (انظر الهامش ٧٨).

هذا النوع من التحالفات، القائمة بين بعض الإثنيات وبعض القرى وبعض الأقارب (أخت الزوج وأخ الزوج، الجدان والحفدة... إلخ) أنتج ما يمكننا أن نسميه «قراصة الفكاهة» (تسمى بلغة بامبارا سنانكونيا، وبلغة الفولانيين دينديراكو).

٤٦ - الكائن الإنساني - النباتي - الحيواني: يجمع هذا الهجين، في ذاته، المملكات الثلاث، مما يستدعي مفهوم الوحدة. هناك اعتقاد في الموروث الفولاني يرى أننا كنا في البداية معدنيين ثم صرنا نباتيين وأخيراً حيوانيين. والنتيجة كانت هي الإنسان. نسمع الفولانيين يقولون، أحياناً: «حصل هذا عندما كنت لأزال حجراً!». وهذا الكائن الغريب المتحدث عنه ههنا هو رمز لتلك الوحدة المفقودة. وهذه فرصة، بالنسبة إلى الملقّن الحكاء، أن يستطرد ويعطي بعض المعلومات حول المملكات الثلاث التي تكون وحدة الحياة.

هذا الكائن ذو الرأس الآدمي - «الأعلى» يوجد إذن في مكانه - يعد كائناً محايداً؛ وهو، على أي حال، ينسحب من دون أن يصيب أحداً بسوء. العناية الريانية هي التي أرسلته كي يخبر با - وامندي بما الذي يوجد خلف البهو. في أثناء حصول كل هذه الأحداث، نلاحظ كيف تقود العناية الريانية، عبر كل

التفاصيل، با - وامندي، شيئاً فشيئاً، إلى تحقيق هدفه. لا وجود للمصادفة في التقليد الفولاني. ثمة فقط «قوانين تصادف» نجعل إوالياتها.

٤٧ - الأفعى: يمكننا أن نقول بأن الأفعى تعد رمزا كبيرا في كل تقاليد الدنيا تقريبا، ابتداء بالتقليد الأفريقي الذي تحتل فيه مكانة مهمة للغاية. وبما أنها ذات طابع مُلغز ومزدوج، فإن رمزها يمكن أن يكون إيجابيا كما يمكنه أن يكون سلبيا، ويكمنه أن يكون سَعْدًا أو نحسا. يمكنها أن ترمز إلى إله أو إلى شيطان. ونحن نرى في الأساطير أن الإنسان والأفعى يقدمان على أنهما أخوان متكاملان تماما، يكادان يكونان أخوين، أو يقدمان على أنهما عدوان لدودان. الأفعى في الأساطير، تبدو حاضرة منذ بداية عملية الخلق، والرجل خلفها. فهي ذات صلة بالاهتزازة الأولى التي أحدثها الله الخالق الأعظم. هي تأخذ في الرسومات الصخرية، باستمرار، شكل خط متموج منكمش على نفسه، ومتكسر أحيانا.

التقليد الفولاني - الماندي يعطي للأفعى أوجها رمزية مختلفة ويطلق عليها، كل مرة، اسما خاصا. في الموروث الماندي، تعتبر الأصلة (أفعى كبيرة غير سامة تعيش في المناطق الحارة - مترجم) المسماة نينكي - نانكان، هي حافرة مجاري المياه التي شكلت نهر دجوليبا بالنيجر. وفي موروث بامبارا - مالينكي بكومو وكوري، ترمز الأفعى إلى اللانهائي وإلى الأفق الذي يستحيل إدراكه. وهي تدعى أحيانا «حزام الأرض»، وترمز أيضا إلى البرق، أي السرعة. والذين يقرأون الآثار يؤولون العلامات

التي تتركها على الرمال بعد أن تعبرها ملتفة. ويعتبر قوس قزح، من جهة أخرى، بمنزلة أفعى سماوية متعددة الألوان تبتلع ماء المطر؛ فتصبح نتيجة ذلك، رمزا للشؤم الذي ينشر الجفاف. قادت الأفعى تيانابا - التي تعتبر عند الفولانيين مالكة الأبقار باسم جينو - القطعان في رحلة طويلة، من الغرب إلى الشرق؛ والموروث يذكر الأماكن التي تم التخييم فيها. وقد اعتُبر أحد الأجداد الرعاة الفولانيين، واسمه إيلو، بمنزلة أخيها التوأم، فورث جزءا من حيواناتها. وفي بلد بينين، تقام شعائر خاصة للأصنام المقدسة، وخصوصا لتلك المحتفظ بها في معبد أبومي.

ونعثر في موروث سونيكى على بيدا، الأفعان الضخم الذي يقطن البئر العجيبة لواغادو، والذي يحض على أن تتم التضحية له كل سنة (أو كل سبع سنوات وفق بعض الروايات) بفتاة شابة عذراء تختارها لجنة من الحكماء. وكمقابل لهذه التضحية البشرية، يقوم بيدا، بوصفه إلها، سيد المعادن ومُشكّلها، بضمان غنى واغادو بالذهب. وقد أدت وفاة بيدا، وفق الأسطورة، إلى دمار إمبراطورية واغادو.

وعلى العموم، فإن للأفعى، في الأساطير الأفريقية، باستمرار، «شحنة» مقدسة إيجابية للغاية، خصوصا عندما تكون مقترنة بمفهوم الخصوبة. وهي تقترن أيضا بمفهوم «الدورة» والتجدد بسبب استبدالها لجلدها. ويحوي رأسها كل قواها الخفية. وفي الحكاية الحالية فإن الأفعى الضخمة للغاية تصبح طائرة؛ مما يعني تغيرا في الخط وإغناء. وأن يكون با - وامندي قد

امتطأها، فإن ذلك يعني أنه سيد القوى التي تمثلها الأفعى. كثيرا ما نعثر، في الأساطير الأفريقية، على أفاع طائرة، مما يستدعي مقارنتها بالتنين الطائر في تقاليد الشرق الأقصى، والتي كثيرا ما تكون حارسة لـ «الكنوز الخفية».

٤٨ - الجبل: الجبل، في الأساطير، يمثل الحد بين عالمين، الحاجز غير القابل للاختراق إلا من قبل المتعلم وفي شروط معينة. الجبل يمثل الحد بين العالم المحدود للمعرفة البشرية والعالم الذي لا حدود له للمعارف الربانية، والذي لا يستطيع ولوجه إلا نخبة منتقاة. وهو يرمز، من جهة أخرى، إلى التعلم ذاته: الصعوبة والمحنة وعائق الاختراق. وهو أيضا رمز للحماية. في كل الأديان نعثر على رمزية للجبل المقدس. فبفضل شكله العمودي، يعتبر أنه السبيل التي تؤدي إلى السماء أو تسمح بإقامة اتصال معها. وتعتبر قمته المكان الأمثل للتمظهرات أو الاتصالات الربانية (جبل سيناء وجبل الزيتون وجبل حراء حيث تلقى النبي محمد أول الوحي القرآني... إلخ). وتعرف في مالي، من بين جبال مقدسة متعددة، قممًا كوليكورو اللتان تحملان اسم نيانانكولو (المنتسبتان إلى الإله نيانان) وتماكولو في منطقة كاييس، كما نعثر على الجبل سونغو غير بعيد عن باندياغارا... إلخ.

في التقليد الفولاني، كل قمة جبلية تمثل رمحا نشبه جينو في الأرض في مناسبة معينة. وفي مجمل المورث المانديني، فإن الجبل والمغارات - التي تعتر بمنزلة أبهاء - تؤوي أشباحا. تسكن القمم أشباح بيضاء (خيرة)، في حين تقطن الأشباح السوداء،

مالكة القوى الشريرة، المغارات والهاويات حيث تلتجئ المشعوذات والسحرة. سنرى لاحقا بان نجدو ديوال، عندما ستهدم بلديتها، ستلتجئ إلى مغارة.

المعرفة مثل جبل يُفترض أن نقوم بتسلقه مواجهين لعدد من العوائق والمحن. العقبان الضخمة، رمز التلقين الأفريقي، تبني أعشاشها في قمم الهضاب أو الجبال، في أماكن لا يستطيع أحد الوصول إليها. ولهذا السبب يعتبر شبه مستحيل رؤية صغار العقاب. يُقال في الموروث: «يجب بذل الجهد لإدراك المعرفة؛ تلك المعرفة التي تعد أندر من كتاكت العقاب». وفي هذه الحكاية ينتصب «الجبل الحد» في شكل دائري ويحيط بمحيط عظيم يُحظر ولوجه.

في الإسلام أيضا، نعرف «الجبل قاف» الخفي الذي يستحيل على الناس العاديين أن يدركوه، وهو يحيط بالأرض ويفصلها عن عوالم أكثر دقة.

٤٩ - وزغة: نوع من العظاية، تحمل أصابعها وأرجلها صفيحات. وتعرف الوزغة، في الحكايات، بقدرتها على ولوج النار. وهي مرتبطة بها رمزيا.

٥٠ - رابطة الدم ورابطة الحليب: رابطة الدم لها علاقة بالأب: الإخوة والأخوات المتحدرون من الأب نفسه، والأعمام والعمت والأحفاد وأبناء العم من جانب الأب... إلخ. أما رابطة الحليب، فتتصل بالأم.

العهد الأبوي، الذي يُقام بين المرتبطين دمويا، يتصل بقضية الشرف. وهو رابطة ثروة ومجد. فالمرتبطون دمويا، يمكنهم، في

لحظة غضب شديد، أن يتمنوا الموت جماعة، لكنهم لا يقبلون البتة العار أو فقد الشرف، لأنهم سيعرون بذلك. والشيء نفسه بالنسبة إلى الثروة، لأن الإرث، عند الفولانيين، يحصل عليه الأقارب من الأب. أما العهد الأمومي، من جهته، فيؤدي إلى رابطة حب وعطف. فعندما تؤدي خدمة إلى ابن خالة، فإننا نقوم بذلك من دون أن يكون لنا أمل في جزاء أو تعويض، مادامنا لن نرث منه، في حين أننا نرث من ابن العم. ثمّة إذن تعويض من جانب العلاقات الدموية، وهو ما لا يحصل في جانب رابطة الحليب. والمثل يقول: «نموت بشكل نهائي بالنسبة إلى ابن الخالة، لكننا لا نموت كلية بالنسبة إلى ابن العم» (مادام بإمكانه الاستفادة من موتنا).

٥١ - السماوات السبع والأراضي السبع: يقال في التقليد الفولاني، كما في الموروث الإسلامي، بأن هناك سبع سماوات طباقا وسبع أراض تتراب في العمق. للسماوات السبع علاقة بالشموس السبع الواردة في الموروث التلقيني الفولاني (انظر كومين). ومن بين الأراضي السبع، وحدها الأرض (المتأملة للنجوم) تعتبر زوجة للسماء (السماء بالفرنسية اسم مذكر - مترجم)، أما بقية الأراضي فتتعاقب في عمق خفي غير مرئي.

٥٢ - القمر، مالك أسرار الماء والنار والريح: نحن نعرف العلاقة التقليدية بين القمر والماء والمرأة والنباتات. والقصد بالنار هنا هو الدفء. فالقمر يؤثر، بالفعل، على حركات الرياح؛ والحال أن الرياح تأتي إما بالمطر وإما بالحرارة الشديدة؛ ومن ثمّة علاقتهما بالعنصر (نار).

٥٣ - الآلهة الثمانية والعشرون للفولانيين الرعاة: في المشهد الديني الفولاني هناك ثمانية وعشرون إلها أو شبحا حارسا، مقترنة بمنازل القمر الثماني والعشرين، ومقاطع السنة الثمانية والعشرين المسبوقة بالنجوم الثمانية والعشرين الكبرى (انظر الهامش ٨٧). الآلهة الاثنتا عشر الأولى (الأهم) تدير الشهور القمرية الاثني عشر؛ وتدير الستة عشر المتبقية منازل ضرب الرمل الستة عشر. الآلهة، بالنسبة إلى الفولانيين، ليست سوى مساعدات لجينو. الآلهة هي، بمعنى من المعاني، مظاهر خاصة للقوة العظمية الأساس الصادرة عن الإله الأسمى. تعلمنا الحكاية أن قوة، في ذاتها، ليست لا جيدة ولا سيئة، وأن بإمكانها أن تكون في خدمة الخير كما يمكنها أن تكون في خدمة الشر، وفق طريقة استعمالها؛ هي مثل الماء الذي لا شكل له ولا لون، إلا ما نضفيه عليه نحن.

إن تجسد هذه القوى الخاصة، أو الآلهة، في الكائن أو في الشيء الذي يصير سندها (الرقية مثلا أو القناع) يحصل وفق أشكال تشكل القاعدة نفسها لسر مجموعة التلقين.

٥٤ - القلب والمخ: يتعبّر الموروث الثقافي الإنسان جسما صغيرا، يُعتَقَد أنه يحوي في ذاته قوى الكون؛ وهي قوى مجسدة بطريقة مخصوصة في بعض أعضائه (انظر الهامش ٤ حول الجمجمة). يقع الحب والشجاعة في القلب والذكاء في الذهن.

٥٥ - التبخير بدخان الشعّر المحترق: يعتبر التبخير طريقة للتطهير. سيلج هنا الدخان الناتج عن الشعر المطبوع بكل القوى الخيرة المتجسدة في با - وامندي والتي جعلت منه أحسن رجل

في زمانه، رحمَ زوجته كي يهيئه قبل أن يستقبل نطفة الأطفال الذين ستلداهم.

٥٦ - جاييل - فالو، جذع المنطقة الخصيية: وهو اسم مبارك. فالثور يعد، بالفعل، رمزا للقوة (هنا قوة الفتوة)، بينما تعد المنطقة الخصيية، رمز الثراء والرفاهية، مادامت تربتها العضوية مشكلة من كل العناصر التي جمعها النهر في أثناء جريانه.

٥٧ - الأبناء السبعة الأوائل: يسمى الفولانيون أبناءهم - إلى جانب اسم دنيوي، عادة ما يكون اسم جد - وفق النظام الآتي: حمادي اسم أول ابن ويخصص للإله حام؛ ثم سامبا، وهو اسم الابن الثاني، ويخصص للإله سام؛ ثم ديمبا، اسم الابن الثالث المخصص لديم، فييرو اسم الابن الرابع المخصص ليير؛ وباتي، اسم الابن الخامس المخصص لبات، فنجوبو اسم الابن السادس المخصص لنجوب، وأخيرا ديلو اسم الابن السابع المخصص للإله ديل («حام - باتي، إذن، هو الابن الأول المولود لـ ابن خامس»). ويوجد نظام مماثل لتسمية الأبناء الخمسة الأوائل.

٥٨ - شجرة باوياب وشجرة كايلسيديرا وشجرة جبن في شكل مثلث: هذه الأشجار الثلاث ذات الدلالة الرمزية العالية، ليست هنا، بالتأكيد، عبثا، لأن لكل شيء دلالة في هذه الرحلة. ولنسجل أن أول ما وجدته الإخوة السبعة من أكل رباتي، وجدوه تحت هذه الشجرات. الثالث، خصوصا الموضوع على شكل مثلث، مشحون بالدلالة في التقليد الفولاني (انظر أحجار الموقد الثلاثة (الأثافي) في حكاية كايدار). والثالث، في سيرورة الخلق، يمثل عنصرين يمتزجان لينتجا عنصرا ثالثا: مثل التقاء الأب

والأم في الطفل. يمثل الثالث رمز المبدأ الفاعل والمبدأ السلبي والنتيجة المحصلة من اجتماعهما.

البابواب: انظر الهامشين ٢٣ و ٤١.

الكايسيدرا: تستعمل قشرة هذه الشجرة، شديدة المرارة، في تطهير الإنسان، كما أنها تستعمل لحماية الإنشاء من الشؤم والتأثيرات السيئة. وتعد هذه الشجرة، بالفعل، شجرة مدارس تلقين بامبارا في كل من كوري وكومو. وأنشودة كومو تشير إلى (الديالا (الكايسيدرا) المرة التي توجد خلف الوادي، وتلك التي توجد خلف البحيرة). الوادي والبحيرة يرمزان هنا إلى المحن التي يجب اجتيازها لتحصيل المعرفة؛ تلك المعرفة التي يكون الحصول عليها أمرً من إغلاء قشرة الديالا.

شجرة الجبن: اتخذ (العجوز الضئيل ذو العمود الفقري المشوه)، في حكاية كايدارا، شجرة الجبن ملجأً له. وهو العجوز الذي يمثل تجسيدا لكايديارا نفسه، إله الذهب والمعرفة. ومن ثمة، يقرن الفولانيون رمزية شجرة الجبن برمزية الألوهية الأسمى. والبابواب والكايسيدرا والجبن، شجرات تتجاذب تحتها أطراف الحديث، كما تقدم حصص تعليمية.

٥٩ - «جذتك... زوجتك»: من المعتاد أن تعتبر امرأة عجوز، بشكل آلي، جدة لطفل صغير، إن وجدا في المنزل نفسه، أو إن كانت بين آبائهما علاقة قرابة أو علاقات صداقة أو جوار. يعتبر الحفيد في الموروث الأفريقي لبأفور، بمنزلة «الزوج الصغير» لجده، وبمنزلة الغريم لجده. وتعتبر الحفيدة، في المقابل، بمنزلة «الزوجة الصغيرة» لجدها وبمنزلة الغريمة لجدها. ويعتبر هذا

التقليد مصدرا غنيا للمُزج اللطيفة داخل الأسر. وهي شكل من أشكال قرابة التفكّه (التي توجد أيضا بين فئات اجتماعية أو إثنية أخرى). (انظر الهامش ٤٥).

٦٠ - الضبعة: تعتبر بمنزلة سيدة الرقيات. فحيثما وجد رقص للتملك (هول عند السونجاي) تكون هي سيدة العارفين بهذا الطقس.

ودياترو هي ضبعة أسطورية سوداء، ولدت من ملك الذهب الأسود. وبالفعل، ففي الموروث الأفريقي، ثمة ثلاثة أنواع من الذهب: الذهب الأسود، وهو غير مرئي، ثم الذهب الأصفر والذهب الأبيض. وبما أن دياترو مشعوذة عظمية، فإنها تعتبر منذ ولادتها، بمنزلة ملكة كل القروء الصائحة وكل الضواري (انظر أيضا أمكول. ص ٣٢٦ - مجموعة بابل ص ٤٢١).

يتم البحث دائما على طرف منخر الضبعة ودماعها وجلدها، كي تستعمل في الرقيات والتمائم. والطيور والضباع هي الحيوانات الأكثر قدرة على التكهن. ويتم تأويل صيحاتها مثلما يتم تأويل صيحات الترغلة.

٦١ - العقاب: للعقاب، في الموروث الأفريقي دلالة عظمية. فله رمزية متعددة: بما أنه يبني عشه، في الغالب، على قمم لا يستطيع أن يصل إليها أحد، وحيث لا يمكن لأحد أن يرى صفاره، فهو يعد رمز المعرفة نفسها، أي المعرفة التي يصعب الحصول عليها. وبما أنه يعيش لمدة طويلة، فهو رمز للقدم. وبهذا المعنى، يكون «العقاب الجد» عضوا في مجلس البواب (انظر الهامش ٢٣).

٦٢ - القرد: يعتبر القرد أيضا بمنزلة «مشعوذ»، أو حيوان يتمتع بقوى خفية لأنه نوع من الانتقال بين الحيوان والإنسان، فهو بمنزلة بهو يجمع بين مسكنين. والحال أن الكائنات المزدوجة تعتبر دائما «مشحونة»، للغاية.

٦٣ - أنت يا جنّي إيطي - إيطي: نعثر على العناصر القاعدية لهذه التعزيمية في كومين (ص ٨٩). وهي أطول تعزيمية تلفظ بها سيلي ساديو لاجتياز آخر حاجز (الأسد غومباو) قبل أن يصبح معلما كبيرا وأن يعرف «الاسم الخفي للبقر».

٦٤ - مي هيلي يويو، مي هيلي: هذه هي الصرخة التي يطلقها الفولانيون (مع تمديد الصوت يو...). عندما يكونون في ضيق، تَدْكُرُ للبلد الأصلي (مي «أنا، هيلي يويو) تعني (أنا «من» هيلي ويويو)، التي تعني: «أريد أن أعود ما كنته زمن السعادة بهيلي ويويو».

لم نعد اليوم نسمع هذا إلا على منعطف النيجر. وتجب الإشارة، على أي حال، إلى أن التَشْكِي في الزمن الماضي، الذي غالبا ما كان بمنزلة قصائد شعرية مرتجلة، كاد يضيع.

٦٥ - السلسلة: توجد لدى الفولانيين سلسلة معرفة تمتد إلى دونداري (القدير). وقد جرت العادة أن يتم في أثناء الدعاء (في الموروث الأفريقي كما عند الباطنية في الإسلام) ذكر سلسلة المعرفة التي ترتبط بها.

٦٦ - نجيلوكي، سفاطو: يتم إحراق أوراق نجيلوكي تحت بطن الحيوانات عندما تكون في الحظيرة. ويقال بأن لهذا التبخير فوائد حمائية. وعندما نضع غُصِينًا صغيرا من نجيلوكي خلف

الأذن عندما نخرج من البيت أو عندما نظل فيه، فإن ذلك يكون بمنزلة اجتماع ضد الصاعقة. ويُعتقد أن نجيلوكي ودوكي تعتبران نبتتين تستطيعان مقاومة الموت، والانتصار عليه أحيانا. وتنتمي نجيلوكي والسفاطو إلى النباتات الطبية، كما أنهما تستعملان في التنجيم، ومن ثمة استعمالهما في هذا الفصل من الحكاية.

٦٧ - الخفافيش: يعتبر موروث بلاد ماندي الخفاش ملتقى للتناقضات: هو مثل الطير يملك جناحين، ومثله أيضا يضع بيضا، لكنه يرضع مثل الثدييات؛ ويرى ليلا ويَعْمى نهارا؛ وينام أو يستريح معلقا من رجليه، رأسه إلى الأسفل. وتختلف تأويلاته من منطقة إلى أخرى، ووفق موروث كل جهة. فهو، بالنسبة إلى البعض، حيوان ملوث، يُقرن بالمشعوذين بوصفه مصاص دماء؛ وبالنسبة إلى آخرين، يدخل جسده في إعداد المادة التي تطيل الحياة وتمكن من السعادة. ويستعمل مخ الخفاش، في بعض الثقايد، من أجل إعداد مكونات يُعتقد أنها توفر ذكاء حادا وذاكرة قوية للأطفال وللمواليد الجدد. وغالبا ما يعتبر الخفاش بمنزلة حيوان قُبْرِي لأنه يعيش في المغارات ويعيش في أغصان أشجار كبيرة نابتة وسط المقابر أو أماكن كئيبة.

أما عند الفولانيين، فإن رمزية الخفاش مزدوجة: فهو، بالمعنى النهاري (الإيجابي)، يرمز إلى حدة البصر التي تسمح بالنظر حتى وسط العتمة؛ أما بالمعنى الليلي (السلبي)، فإنه يرمز إلى الغرابة والشذوذ وإلى الغباء الذي يؤدي إلى فعل كل شيء بالمقلوب. وهو أيضا رمز للثبات وللدمامة بالمعنى المادي. أقل ما

يمكننا أن نقوله عن الخفاش هو إن رمزيته متعددة. فهو مثل المشعوذين الكبار أو كبار الزهاد، لا يظهر إلا ليلاً. وينصح بعض مفسري الأحلام بالآلا نأخذ أي شيء مأخذ جد بعد ليلة نرى فيها في حلم خفاشا.

لم ترفض الخفافيش هنا تقديم العون إلى نجدو ديوال، لأنها لا تنتمي إلى فئة الحيوانات التي انفصلت عن جدو: القروود والعقبان والضباع (انظر كايدارا أيضا).

٦٨ - آجا: راع أسطوري من الموروث الفولاني لـ فيرلُو. وهو أحد الأوائل الذين باح لهم كومين بأسرار الحياة الرعوية، في الوقت الذي باحت فيه فوروفوراندو، زوجته، بـ «أسرار الحليب» لعادية، زوجة آجا. هذا إضافة إلى أن اسم «آجا» يطلق على الراعي المتعلم؛ فهو يعني، بمعنى من المعاني، «العارف بالدغل»، لأن الراعي يوجد باستمرار مع الحيوانات. ومن المفروض أن يقدم نصائح، لأن له تجارب في الحياة.

٦٩ - قصيدة «قال لك آجا»: هذه القصيدة مجتزأة من القصيدة العظيمة التقليدية «لوتوري» (الحمّام المقدس) التي تنشّد بمناسبة حلول السنة الجديدة (توجد بالملحق في آخر التماعة النجم الأعظم).

٧٠ - إرقاص الفرس عند رؤية امرأة، هو من بين التقاليد الفولانية. فمن المعتاد أن الفارس الفولاني عندما يلتقي بامرأة، يقوم فرسه بالانحناء وبالجثو، كي يحييها. وهنا، برغم أن الوقت ليلاً وأن النساء لن يستطعن رؤيتهن، قام الإخوة السبعة بإرقاص جيادهم تشريفاً لهن، كما تنص التقاليد على ذلك.

٧١ - شجرة العناب المقدسة: «ندابي». وهي تعني حرفيا (حيث وضعت «نبته الساق»). تنفلت شجرة العناب المقدسة لهيلي ويويو من سطوة الزمن. وكل مراحل الحياة ممثلة فيها. فهي تحمل، في الآن نفسه، البراعم والزهور والثمار. وعلى الرغم من أنها نابتة في عالم يتبع قانون نجدو ديوال (الجفاف)، فإنها لا تتأثر به لأن أصولها من عالم آخر. فهي بمنزلة فاصل أو حد بين عالمين. وبالنسبة إلى الإسلام، فإن العناب شجرة من أشجار الجنة. وبما أنها تتموقع في حد السماء السابعة، فإنها تسمى «شجرة عناب الحد». وبعدها يوجد العالم الرباني الصرف. وتعتبر فاكهة العناب إحدى المواد الغذائية الأساسية بالنسبة إلى الصوفية الذين يعزلون في الأدغال.

تلعب شجرة العناب، في الحكاية التلقينية كومين، دورا مهما للغاية. ففقط عندما يصل سيلي ساديو إلى الفرجة الثانية عشرة، التي تعتبر آخر مرحلة من تعلمه، تقدم له فوروفورونديو زوجة كومين، ثمرات (شجرة عناب المنزل) كي يأكلها. عقب ذلك يؤكد لها أنه ما عاد الآن يخشى شيئا على الطريق، لأن فوروفورونديو «لا تقدم ثمرات شجرة العناب إلا لأصدقائها». وعندما يشرب سيدي ساديو من حليب البقرة الخنثى الأصلية، ويأكل من «ثمرات عناب المنزل» سيصبح: «الآن وقد شربت الحليب بعد أن أكلت ثمرات العناب، اكتسبت أهليتي! لن تكون أي عقدة غريبة علي! لن يكون أي انبعاث خطرا علي. سأعرف كل شيء بتلقائية، كما يعرف الوليد الجديد الرضاعة من خلال أولى حركات شفثيه». شجرة العناب، إذن، هي رمز

قمة التعلم، قمة المعارف الممكنة، التي ليس بعدها سوى المعرفة الإلهية. والفولانيون ينصحون بوضع ورقات شجرة العناب في فم الميت كما في قبره.

وفي هذا الفصل، فإن الرمزية غنية للغاية، لأن باغوماويل، كي يستعد لتلقي الإلهام، لم يكتف بأكل ثمرات العناب المقدسة، بل شرب أيضا من العين الجارية تحت الشجرة: وهو رمز آخر للحياة، كثيرا ما يقترن بالحياة الأبدية.

٧٢ - كومين: إذا كانت تيانابا، الأصلّة الأسطورية، هي «مالكة» الأبقار، باسم جينو، فإن كومين هو مساعدتها وراعيها وكاتم أسرارها المتعلقة بالتلقين الرعوي. فهو قد كُلف من قبل جينو بالسهر على الأرض والمراعي والحيوانات آكلة النباتات، المتوحشة منها والداجنة. فهو بإمكانه أن يأخذ كل الأشكال التي يريدها: بإمكانه أن يظهر للناس في شكل طفل ذي ثلاثة أو سبعة أو تسعة أعوام، من دون أن يتجاوز أبدا الحادية عشرة. كما أن بإمكانه أن تكون له لحية رجل عجوز. يفصل كتاب كومين القول في تلقين سيدي ساديو، الذي يعد من بين المعلمين الكبار الأوائل بفيرلو. كان سيدي ساديو يبحث عن «بقرته التائهة»، وهي رمز للمعرفة. وفي أثناء بحثه عنها سمع صوت كومين فالتقى به وتلقى عنه تعليمه.

٧٣ - النحلة: تعتبر رمزية النحلة، في كل الموروثات، ذات شأن روحي سام. إنها رمزية شمسية وإمبراطورية. يقول المصريون القدامى بأن النحلة قد تكون خلقت من دمعات «را»، إله الشمس، الذي سقط على الأرض. فهي دائما مرتبطة بمفهومَي الحكمة وخلود

الروح. وقد سميت إحدى سور القرآن باسمها، وخصّت بعدد من آياتها (سورة النحل، الآيتان ٦٨ و٦٩). والموروث الإسلامي يجعل من العسل الرمز الروحي لغذاء النساك. وهي ترمز، فضلا عن ذلك، إلى المعرفة الصوفية التي تقود إلى الكشف.

ويعد العسل، في أفريقيا، بمنزلة السائل الأسمى المبارك، كما يعد تركيبا لنُسْج كل النباتات. وهو أيضا يدخل في مكونات نبيذ العسل الذي كان في البداية نبيذا للتضحية قبل أن يصبح نبيذا للمتعة. ويقارن مَسَار تحول العسل بمسار تحول الروح في تقدمها نحو الله. تعتبر كل زهرة بمنزلة سيّد وتعتبر اللقّاحات التي تنتجها بمنزلة الدروس التي تسمح للروح «المُرّة»، بأن تصبح تدريجيا لطيفة وغنية مثل العسل. وغالبا ما ترمز النحلة إلى الملقّن والمعلم والحكيم.

٧٤ - قل للضفدعة: مُرِ الملكة النحلة... جرت العادة، في أفريقيا، أن نمردائما عبر وسيط كي نقدم لشخص شكرا أو تظلما أو طلبا، أو ببساطة، كي نعرض قضية. وهذه العادة الاجتماعية هي انعكاس للتراتبية العلوية، ذلك أننا نمردائما عبر وسطاء (آلهة أو أجداد) كي نوجه طلبا لجينو (أو مانغلا). وفي المقابل، فإن الرب الأسمى، في المناسبات، يذكر دائما في البداية: «سأقوم بهذا إن أراد جينو...».

٧٥ - القوى الأساسية الإحدى عشرة: وهي: الحجر والحديد والنار والماء والهواء والإنسان والسُّكْر والنوم والهموم والموت والانبعاث. ولكل من هذه القوى إمكانية تحطيم القوة التي انبثقت عنها أو الانتصار عليها: الحجر يحطمه الحديد؛ والنار

يطفئها الماء؛ والماء تبيسه الريح؛ والإنسان يمكنه أن ينتصر على الريح (هو الوحيد الذي يستطيع أن يمشي ضد اتجاه الريح، أما الحيوانات فلا تستطيع)؛ والسكري يقضي على الإنسان؛ والنوم ينتصر على السكر؛ الهموم تذهب النوم؛ والموت بدوره يقتل النوم، أما الانبعاث (الحياة الآخرة) فيقضي على الموت. وتعتبر هذه القوى كلها من مكونات الإنسان؛ فهذا الأخير يحتل، كما سنرى، موقعا وسطا بين خمس قوى مادية وخمس قوى غير مادية.

٧٦ - الجني الوصي: أو الجني الحارس: فكما أن للقطيع عفاريت تحرسه (أو عفاريت أوصياء، أو آلهة صغيرة)، فإن لكل معدن أيضا عفاريت تحرسه. وبالفعل، فإن كل شيء ظاهر تربطه علاقة بقوة غير مرئية لها سلطة عليه، والتي يجب الالتجاء إليها إن شئنا استعمالها.

٧٧ - سيد الحديد: الحدادون، في المجتمع الأفريقي هم «سادة الحديد»، أي أنهم مالكو أسرار استعمال الحديد، سواء على المستوى العملي أو الخفي؛ لكن لهم زعيما، يعد هو السيد الحقيقي للحديد.

٧٨ - العقد الأصلي المبرم بين بويتورينغ ونونفايري: لقد نُقلت إليّ هذه الأسطورة المنتشرة بين صفوف الفولانيين السنغاليين، سنة ١٩٤٣، من طرف معلمين من بينهم المعلم الكبير أردو ديمبو، الذي ينتمي إلى نديا (مقاطعة موجير، دائرة لينجير، بالسنگال)، ومولو غاولو، من طائفة غاولو السنغالية، المختص هو أيضا في تاريخ الفولانيين. هذه الحكاية منتشرة أيضا بين

الضولانيين المالمين. وفي فيرلو، يعرفون اسم بويتورينغ، لكنهم لا يعرفون اسم نونفاييري الذي يسمونه «جد الحدادين». وفي مالي، يعرفون اسم نونفاييري، ولا يعرفون اسم بويتورينغ، الذي يسمونه «جد الضولانيين».

وهذا ملخص لتلك الأسطورة:

كان بويتورينغ، جد الضولانيين، يشتغل على الحديد. وعندما اكتشف المناجم التي تملكها عفاريت الملك سليمان، بدأ يذهب ليسرق كل يوم حديدا منها. وذات يوم فاجأته العفاريت فاضطر إلى الفرار. وفي أثناء فراره، وصل قرب عش أرضة يقع في حظيرة بقر. وبما أنها كانت تتشكل من مغارة كبيرة، فقد اختفى فيها.

كانت هذه الحظيرة في ملكية راع اسمه نونفاييري. مساء، عندما عاد الراعي بدوابه، عثر على بويتورينغ مختبئا في عش الأرضة. اعترف له هذا الأخير بجريمته وأخبره بأن العفاريت تسعى إلى قتله. وكي يحميه نونفاييري، جعل دوابه تنام حول عش الأرضة. عندما أقبلت العفاريت، قال لها: «هذا المكان في ملكي، ولا علاقة لي بالحديد». فضللت العفاريت ونجا بويتورينغ.

في الغد، طلب نونفاييري لبويتورينغ ألا يخرج من عش الأرضة. قاد حيواناته إلى المرعى حيث قضى اليوم بطوله. مساء، عندما حلب حيواناته، قدم لبويتورينغ حليباً شربه. ظل بويتورينغ مختبئاً طيلة سبعة أيام، وهو الوقت الذي مكنه من أن يتأكد من أنه لم يعد مطارداً من قبل العفاريت.

خلال اليوم السابع، قال بويتورينغ لـ نونفاييري: «أريد أن أعلمك طريقة الاشتغال على المعادن». فعلمه أسرار الاشتغال على

الحديد. ثم قال: «علمتي أنت تربية المواشي»، فأجاب نونفاييري: «ليحصل ذلك، يجب أن أبقى أنا في العش وأن تذهب أنت مع الحيوانات». ثم علمه ما عليه القيام به.

مرت أيام على هذه الشاكلة. تعلم بويتورينغ رعي القطيع وحلب البقرات. وأصبح يعرف كيف يكلم الحيوانات، فتعلقت به. أما نونفاييري، من جهته، فقد استمتع بالاشتغال على الحديد. وذات يوم قال نونفاييري: «هذا ما سنقوم به؛ ستصبح أنت ما كنته أنا، وأنا سأصبح ما كنته أنت. سيتم التحالف بيننا. لن تصيبني أبدا بسوء وستحميني، وأنا لن أصيبك أبدا بسوء وسأحميك. وسننقل هذا التحالف إلى نسلنا». فأضاف نونفاييري: «سنمزج حبنا، لكننا لن نمزج دمنا».

هذا هو السبب في منع الزواج بين الفولانيين والحدادين. وليس لهذا المنع سوى استثناء واحد: عندما يصبح الفولاني ملكا، يمكنه أن يقترن بحدادة، وسيكون حضورها إلى جانبه معتبرا على أنه حماية. ونحن نجهل، على أي حال، متى تم إدراج هذا الاستثناء.

وأستغل هذه الإشارة كي أذكر بأن منع الزواج هذا ليس له، بصفة عامة، أي علاقة (في الأصل على أي حال) بمفهومَي التفوق أو الدونية في الطائفة أو العرق. إن الأمر يتعلق، إما باحترام تحالفات قديمة تقليدية (كما هو الأمر هنا)، وإما بعدم امتزاج (قوى) يجب ألا تمتزج. كانت للطوائف الحرفية (نياماكالالا)، بالفعل، سبل في التعلم مخصوصة، تعتبر على أنها حاملة

ل نياما (أو القوة الخفية). كانت هذه الطوائف تتزوج فيما بينها حتى تحتفظ عندها بأسرار معرفتها وتجنب (المزج بين القوى) الذي يمكنه أن يكون مشؤوماً. وآمل أن أستطيع يوماً التفصيل في هذا الموضوع في كتاب خاص. لنقتصر هنا على التذكير بالمثل: (النبيل «أورون» هو الذي خلق الأسير، لكن الله «مانغالا - جينو» هو الذي خلق نياما كالا «الحرفي»).

تثير هذه الأسطورة، كما أثار وصف هيلي ويويو، كثيراً من الأسئلة التي تبقى بلا جواب. إنه لمن الغريب، بالفعل، أن نرى جداً للفولانيين يُقدّم على أنه شخص يشتغل على الحديد وليس راعياً من الرُّحل. لكن، وكما قلنا في الهامش الرقم ١، كان ثمة زمن، ببلاد ماندي، عاشت خلاله الإثنيات في تناغم، وامتزجت بعض أساطير بلاد ماندي بأساطير الفولانيين، إلى درجة أصبح معها، اليوم، من الصعب التمييز بين ما ينتمي منها إلى هذا الطرف أو ذاك. ويبدو أن هذه الأسطورة تدخل في هذه الفئة. بالنسبة إلى بامبارا (موروث ماندي)، كان أول رجل (أول ابن للأرض) حدادا. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأسطورة تشهد على تحالف قديم يبدو أنه كان في أصل رابطة القرابة الفكهة، التي تجمع بين الفولانيين والحدادين (انظر الهامش الرقم ٤٥).

ففي الفيرلو السنغالية، يعتبر كل الفولانيين الحمر (الرعاة) بمنزلة نسلٍ لثمانية من أبناء بويتورينغ. ووادي بوكول المذكور في الأسطورة هو مكان أسطوري، غير أن واديا يحمل الاسم نفسه يوجد بالسنغال.

٧٩ - «ويحق سر السمن والحليب»: يقسم الفولانيون، في الموروث الرعوي، بالسمن والحليب، المادتين المقدستين. ينتج عن الحليب - رمز المادة الأصلية، والسائل المغذي بامتياز، ورمز الطهارة بسبب بياضه - السمن الذي من المفروض أنه يحوي في ذاته القوى الحيوية الأساس. وبذلك تعتبر القوى الكونية الخيرة، استعاريا، على أنها سمن سائل يجري من ثديي جينو الرحيمين. ويعتبر السمن والزيت، في العديد من التقاليد، عنصرين مفضلين للقريان أو للدهن. تقول فوروفوروندو، آلهة الحليب، زوجة كومين، لمريدها سيلبي ساديو: «استعمل يد قلبك (اليد اليسرى) كي تقذف كُويرة السمن في موقد جينو وسترى النار تصعد إلى الأعلى: آنذاك رتل دعاء موجه للخالق».

٨٠ - العام الجديد: كان العام الجديد يأتي مصحوبا بالابتهاج الشعبي وبالطقوس، التي كان أهمها طقس «الحمام الطقوسي» (لوتوري) للحيوانات وللناس. وبتلك المناسبة، كانت تُنشَد أشعار منها ما هو تقليدي ومنها ما هو مرتجل. وتاريخ السنة الجديدة، الذي يحسب وفق التوقيت القمري، يتقدم كل سنة.

٨١ - كانت جائزته نيل المجد: في الماضي السحيق، لم تكن تقدم جوائز كما يحدث اليوم، بل كان في إمكان بعض الأشخاص الذين يحبون الجياد أن يقدموا «هدايا للفرس» في شكل علف أو هدايا تقدم للحيوانات بصفة خاصة، وللدواب عامة. كان مالك الجواد يبيع حيواناته كي يشتري سرجا أو علفا قصد تحسين حال مطيته.

٨٢ - موقف الملك: ملك هيلي ويويو، هنا، هو صورة للملك

النموذجي: شريف وذو ضمير ومهتم بسعادة رعاياه قبل أن يكون مهتماً بسعادته الخاصة. لا يكفي بالنسبة إليه أن يقبل الشعب التضحية من أجله كي يقدم مصير ابنه على مصائره هؤلاء الشباب. ثمة دائماً، وعبر كل الحكاية، تربية اجتماعية كاملة: الصورة التي يجب أن يكون عليها ابن وزوجة وزوج... إلخ. وهنا يُراد تقديم الصورة التي يجب أن يكون عليها ملك أو زعيم، يستحق هذا الاسم. لم تكن التربية الاجتماعية، فيما مضى، مفصولة عن التلقين، لأن هذا الأخير كان يُعد الأفراد لما يجب أن يكون عليه السلوك الشامل، سواء تعلق الأمر بما هو اجتماعي أو بما هو فردي وروحي. الفصل، في الواقع، بين المقدس والدنيوي، لم يكن له من وجود. وكان للسلوك الروحي أثر على كل أمور الحياة. كان الإنسان يعيش مندمجاً في المقدس.

٨٣ - ملكة العناكب: تعتبر العنكبوت أول حائكة لقنها جينوفن وأسرار الحياكة، تماماً كما تعتبر الأرضة أول بناءة لقنها جينوفن البناء. حول رمزية الحرف (حداد/ حائك... إلخ)، انظر مقالتي «الموروث الحي» في المجلد الأول من التاريخ العام لأفريقيا، (من الأحسن في الطبعة الكاملة jeune Afrique / اليونسكو).

٨٤ - غومباو: كان الأسد الأسود، الذي كان موجوداً بفولتا العليا (بوركينافاسو)، أسداً أكلاً للبشر، في حين أن الأسد الأحمر أو الأسمر، لم يكن يهاجم، في الغالب، إلا الحيوانات. وبصفة عامة، فإن الأسد يجسد القدرة والقوة المتوحشة. ويوصفه أسداً أسود، فإن قوته تلك تبدو كأنها مقرونة بالأذى.

سيلي ساديو، في كومين، بعد أن يعبر فرجات التعلم الاثنتي عشرة، يكون عليه، قبل أن يصبح معلما كبيرا، أن يجتاز امتحانا أخيرا: مصارعة الأسد الأسطوري غومباو والانتصار عليه. وعندما يمتطي الإله كوما سارا، هنا، غومباو الخطير ويتحكم فيه، فإن ذلك يشير إلى قدرته الخارقة.

٨٥ - ديكوري دياوو، ديا فالدي، كوغولدي: هي، في الآن نفسه، شخوص أسطورية، وأسماء معلمين كبار وجدوا فعلا ولعبوا دورا مشرقا في سلسلة التلقين الفولانية (المذكورة أيضا في كومين. ص ٨٣). ديكوري دياوو، هو اسم امرأة عاشت، في غابر الأزمنة، في السنغال، على ضفاف نهر غامبي (غايوبيلي). كانت معلمة ملقنة فولانية كبيرة، كانت «معلمة حليب». وهي تذكر من بين أجداد أردو ديمبو، المعلم الأعظم لناحية موجير (السنغال)، الذي لقنني سنة ١٩٤٣ تقاليد الفولانيين الرعوية.

٨٦ - الشعاع البرتقالي: يكتشف سيلي ساديو، في كومين، وبالموازاة مع تعليمه، الشموس السبع التي توافق السمات السبع التي يعلو بعضها بعضا. وكل شمس ترسل شعاعا بأحد ألوان قوس قزح. الشعاع البرتقالي ينبعث من الشمس الخامسة.

٨٧ - النجوم الثمانية والعشرون: يستعمل الفولانيون النجوم الثمانية والعشرين لمعرفة التوقيت. وعبر انصرام السنة، ييزغ كل نجم، بالتتابع، لمدة ثلاثة عشريوما، ويدوم نجم واحد أربعة عشريوما، مما يجعل الحاصل ٣٦٥ يوما. لهذه النجوم الثمانية والعشرين علاقة بالثمانية والعشرين إلها في المشهد الروحي الفولاني، وأيضا بمنازل القمر الثماني والعشرين.

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

أما دوهم باطلي با

- مالي الجنسية.
- ولد العام ١٩٠٠ وتوفي العام ١٩٩١.
- كاتب ومؤرخ وعالم أنساب وشاعر وراوي حكايات.
- أحد كبار المتخصصين في الثقافة «الفولانية»، وهي التراث الأفريقي.
- اشتغل بإحاط في المعهد الفرنسي الخاص بأفريقيا السوداء، ومقره بكار.
- اشتغل بالمجلس التنفيذي للفونسكو من العام ١٩٦٠.

محمد أحمد بنميوه

- من مواليد تطوان العام ١٩٥٧.
- حاصل على الإجازة في اللغة العربية وآدابها من جامعة مولاي محمد بن عبد الله، فاس العام ١٩٨٣.
- دبلوم في علوم العربية من كلية علوم العربية - الرباط العام ٢٠٠٤.
- دراسة الترجمة لستتين: فاس (١٩٨٢)، والرباط (١٩٩١).
- له عدة ترجمات لعدد من الروايات الأجنبية منها: رواية «اغتيال الفضيلة» ورواية «مخالب الموت» ورواية «جلايبرت سينويه» ورواية «ابن التيل».
- له مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والمقالات التوثيقية والأدبية والحوارات المؤلفة والمترجمة في عدد من الصحف والمجلات العربية والعربية.
- حصل على جائزة المباراة الوطنية للقصة القصيرة العربية العام ٢٠٠٠.
- له رواية ومجموعة قصصية قيد النشر.

صبوح كامسوحة

- من مواليد القصير في سورية العام ١٩٢٨.
- حاصل على الإجازة في الأدب الفرنسي من جامعة دمشق العام ١٩٦٣.
- عمل في الصحافة، كما عمل أيضا مدرسا للغة الفرنسية لفترة طويلة حتى العام ١٩٩٨.
- عضو في اتحاد الكتاب العرب، ومقر جمعية الترجمة لعدة أعوام.
- ترجم كل الأجناس الأدبية والفكرية والفلسفية.
- تم تقليده وساما من السفارة الفرنسية بدمشق العام ٢٠٠٧، وكرمه جمعية الترجمة العام ٢٠٠٨.

المؤلف

في سطور

المترجم

في سطور

المراجع

في سطور

<http://abuabdoalbagl.blogspot.ae/>

ABU ABDO ALBAGL

حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجد وديوال

نقدم للقارئ الكريم في هذا العدد أسطورة من أساطير الأدب الأفريقي «كايدارا» الواردة في كتاب «الحكايات التلقينية الفولانية». وتعتبر من حكايات الشعب الفولاني المسلم المنتمي إلى دولة مالي، بالإضافة إلى أسطورة «نجدو ديوال، أم الكارثة» من الكتاب السابق نفسه، كما نضع أمامك أيها القارئ «حكايات حكماء أفريقيا» التي تحتوي عدة حكايات أسطورية ذات بعد عميق.

يوصل أمدو همباطي با مؤلف تلك الحكايات والأساطير مهمته في تسريب قيم إنسانية سامية، يتقاسمها البشر باختلاف ألوانهم وأعراقهم وثقافتهم، على لسان حيوانات - في الأغلب - وعلى لسان بشر في علاقاتهم بهذه الحيوانات، ضمن حكايات تبرز فيها أحداث قد توهم أحيانا بالواقعية، لكنها في الأغلب تتخذ طابعا عجائبيا للخيال المجنح!

لذلك، نجد أن ما يميز أسطورة «نجدو ديوال» هو كثرة أحداثها وتسلسلها، لتنسج في النهاية حكاية الثنائية الخالدة في حكايات أفريقيا وبقية الأمم وخرافاتها، وهي ثنائية الخير والشر. أما حكايات حكماء أفريقيا العشر فتعالج قيما جديدة شرا وخيرا.

ويمكننا أن نشير في هذا الموجز إلى مقطع شيق من أسطورة «نجدو ديوال، أم الكارثة» - وهو مقطع صراع الفتى باغوماويل مع نجدو ديوال والنيل منها عن طريق إلحاق الأذى ببنايتها - والتي لها شقيقة أوروبية تحمل غالبية ملامحها، وأقصد بها حكاية «الأبئهم الصغير»، حيث ذلك الكشف العجيب وهذا التشابه يحتاجان إلى أبحاث تسبر أغوار تاريخ الإنسان في أزمنة سحيقة انعدمت فيها وسائل الاتصال، فهي في أغلب الأحيان أساطير ومعتقدات.